



أدب

من وصف القرآن
يوم الدين والحساب

د. شكرى محمد عياد



الهيئة المصرية العامة للكتاب



من وصف القرآن

يوم الدين والحساب



٢٠١٢

من وصف القرآن
يوم الدين والحساب

د. شكرى محمد عياد



عياد، شكرى محمد.
من وصف القرآن يوم الدين والحساب / شكرى محمد عياد.ـ القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠١٢.
١٦٠ ص؛ ٢٤ سم. (مكتبة الأسرة ـ سلسلة الأدب)
تدمك ٣ ـ ٢١٦ ـ ٢٠٧ ـ ٩٧٧ ـ ٩٧٨
١ ـ القيامة، يوم
(أ) العنوان.
رقم الإيداع بدار الكتب ٨٣٨٢ / ٢٠١٢
I.S.B.N 978- 977- 207-216-3
ديوى ٢٤٣

توطئة

مشروع له تاريخ

مشروع «القراءة للجميع» أى حلم توفير مكتبة لكل أسرة، سمعنا به أول مرة من رائدنا الكبير الراحل توفيق الحكيم.

وكان قد عبر عن ذلك فى حوار أجراه معه الكاتب الصحفى منير عامر فى مجلة «صباح الخير» مطلع ستينيات القرن الماضى، أى قبل خمسين عامًا من الآن.

كان الحكيم إذًا هو صاحب الحلم، وليس بوسع أحد آخر، أن يدعى غير ذلك.

وهو، جريًا على عادته الخلاقة فى مباشرة الأحلام، تمنى أن يأتى اليوم الذى يزى فيه جموعًا من الحمير النظيفة المطهمة، وهى تجر عربات الكارو الخشبية الصغيرة، تجوب الشوارع، وتتخذ مواقعها عند نواصى ميادين المحروسة، وباحات المدارس والجامعات، وهى محملة بالكتب الرائعة والميسورة، شأنها فى ذلك شأن مثيلاتها من حاملات الخضر وحبات الفاكهة.

ثم رحل الحكيم مكتفيا بحلمه.

وفى ثمانينيات القرن الماضى عاود شاعرنا الكبير الراحل صلاح عبد الصبور التذكير بهذا الحلم القديم، وفى التسعينيات من نفس القرن، تولى الدكتور سمير سرحان تنفيذه تحت رعاية السيدة زوجة الرئيس السابق. هكذا حظى المشروع بدعم مالى كبير، ساهمت فيه، ضمن من ساهم، جهات حكومية عدة، وخلال عقدين كاملين صدرت عنه مجموعة هائلة من الكتب، بينها مؤلفات ثمينة يجب أن نشكر كل من قاموا باختيارها، إلا أنه، للحقيقة ليس غير، حفل بكتب أخرى مراعاة لخاطر البعض، وترضية للآخر، ثم إن المشروع أنعش الكثير من متطلبات دور النشر، بل اصطنع بعضها أحيانًا.

وبعد ثورة ٢٥يناير والتغيرات التى طرأت توقفت كل الجهات الداعمة لهذا المشروع الثقافى عن الوفاء بأى دعم كانت تحمست له عبر عقدين ماضيين، سواء كانت هذه الجهات من هنا، أو كانت من هناك.

ولم يكن أمام اللجنة إلا مضاعفة التدقيق فى كل عنوان تختار، وسيطر هاجس الإمكانات المحدودة التى أخبرتنا بها الهيئة فى كل آن.

والآن لم يبق إلا أن نقول بأن هذه اللجنة كانت وضعت لنفسها معيارًا موجزًا:

جودة الكتاب أولاً، ومدى تلبيته، أولاً أيضًا، لاحتياج قارئ شغوف بأن يعرف، ويستمتع، وأن ينمى إحساسه بالبشر، وبالعالم الذى يعيش فيه.

واللجنة لم تحد عن هذا المعيار أبدًا، لم تشغل نفسها لا بكاتب، ولا بدار نشر، ولا بأى نوع من أنواع الترضية أو الإنعاش، إن لم يكن بسبب التربية الحسنة، فهو بسبب من ضيق ذات اليد.

لقد انشغلنا طيلة الوقت بهذا القارئ الذى انشغل به قديمًا، مولانا الحكيم.

لا نزعم، طبعًا، أن اختياراتنا هى الأمثل، فاختيار كتاب تظنه جيدًا يعنى أنك تركت آخر هو الأفضل دائمًا، وهى مشكلة لن يكون لها من حل أبدًا. لماذا؟

لأنه ليس هناك أكثر من الكتب الرائعة، ميراث البشرية العظيم، والباقى.

رئيس اللجنة

إبراهيم أصلان

بسم الله الرحمن الرحيم

(اللهم يسر وأعن)

مقدمة الطبعة الأولى

هذا بحث سطرته منذ نيف وثلاثين عامًا. وكانت مدرسة «التفسير الأدبى» تحاول شق طريقها فى حياتنا الجامعية والثقافية وسط أعاصير من سوء الفهم وضيق الأفق. ولم أكن راضيًا كل الرضا عن هذا الذى كتبت، وكنت مع ذلك موقنًا أن قلة نادرة من القراء هى التى يمكن أن تصبر على عمل كهذا يحاول أن يفسر كتاب العربية الأكبر طبقًا «لمنهج» يستمد من علوم اللغة والأدب كما يستمد من كتب التفسير المنقول والمعقول، ويرفد الدرس الأدبى بثقافة نفسية واجتماعية، ويبذل غاية الجهد فى استقصاء الوقائع ومقارنة النصوص قبل أن يقدم على إبداء الرأى. وما أدعى أنى بلغت الغاية فى ذلك أو دنوت منها. (ألم أعترف بتقصيرى من أول هذه الكلمة؟) لكن ألمى الأشد كان فى شعورى أنى كالمنبت، لا أرضًا قطع ولا ظهرًا أبقى. وهكذا تركت هذه الصفحات على غرها. فلم أعاود النظر فيها إلا بعد سنين طويلة. وأدهشنى أننى لم أنقص منها شيئًا ولم أكد أضيف إليها شيئًا. ولعلى أيقنت أخيرًا أن عمر الإنسان سيظل دائمًا دون أمله. ولعل الاستجابة الكريمة التى لقيتها بعض أعمالى لدى طائفة من أساتذتى وإخوانى وتلاميذى قد أزالت بعض ترددى، ثم لعل شعورى بأن الحياة الثقافية فى عالمنا العربى تطالب أصحاب التفسير الأدبى أن يتقدموا اليوم بما عندهم، قد محت ما بقى من تردد أو شك.

فلأطلق هذه الصفحات من سجنها، والله المسئول أن يكون حظها على قدر نية صاحبها. وإنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى.

* * *

وأما هذه الطبعة الثالثة

فقد أجريت فيها تعديلاً يسيرًا، فأوردت نصوص عدد من الآيات التى اكتفيت فى الطبعتين السابقتين بالإشارة إلى مواضعها، وحذفت بعض الشروح اللغوية التى لا يحتاج إليها القارئ لفهم النص القرآنى. وقصدى من هذين التعديلين أن أيسر على القارئ، دون أن أخل بسياق البحث.

والله ولى التوفيق

شكرى محمد عياد

مقدمة
فى منهج الدراسة

(أ) المنهج الأدبى فى التفسير

منهج التفسير اليوم فى الجامعة منهج أدبى. وقد تناول أستاذنا أمين الخولى فى مقالة عن التفسير[1] البحث فى اتجاهات التفسير منذ نشأته إلى اليوم، وأوضح تأثر هذه الاتجاهات بالأغراض التى كان يقصد إليها المفسرون، ويعنون بتحقيقها أكثر من غيرها، وأورد نقد الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، لهذا الإكثار فى مقاصد خاصة، بأنه يخرج بالكثيرين عن المقصود من الكتاب الإلهى، وهو - فى نظر الأستاذ الإمام - الاهتداء بالقرآن، ثم يتناول أستاذنا هذا المقصد أيضًا فيقول:

«لكن ليس بدعًا من الرأى أن ننظر فى هذا المقصد لنقول: إنه ليس الغرض الأول من التفسير، وليس أول ما يعنى به ويقصد إليه، بل إن قبل ذلك كله مقصدًا أسبق، وغرضًا أبعد، تتشعب منه الأغراض المختلفة، وتقوم عليه المقاصد المتعددة، ولا بد من الوفاء به قبل تحقيق أى مقصد آخر، سواء أكان ذلك المقصد الآخر علميًا أم عمليًا. دينيًا أم دنيويًا.. وذلك المقصد الأسبق والغرض الأبعد هو النظر فى القرآن من حيث هو كتاب العربية الأكبر، وأثرها الأدبى الأعظم، فهو الكتاب الذى أخلد العربية، وحمى كيانها وخلد معها، فصار فخرها، وزينة تراثها؛ وتلك صفة للقرآن يعرفها العربى مهما يختلف به الدين ويفترق به الهوى، ما دام

---

(١) «التفسير» بحث مستخرج من ترجمة دائرة المعارف الإسلامية.
(أعيد نشره ضمن كتاب «مناهج تجديد»، دار المعرفة ١٩٦١).

شاعرًا بعربيته، مدركًا أن العروبة أصله فى الناس، وجنسه بين الأجناس، وسواء بعد ذلك أكان العربى مسيحيًا أم وثنيًا، أم كان طبيعيًا دهريًا، لا دينيًا، أم كان المسلم المتحنف، فإنه سيعرف بعروبته منزلة هذا الكتاب فى العربية، ومكانته فى اللغة، دون أن يقوم ذلك على شىء من الإيمان بصفة دينية للكتاب، أو تصديق خاص بعقيدة فيه. وليس هذا شأن العرب فحسب، بل إن الشعوب التى ليست عربية الدم أصلاً، ولكن وصلها التاريخ وسير الحياة بهذه العروبة، فارتضت الإسلام دينًا، أو خالطت العرب فساطت دماءها بدمائهم، ثم اتخذت العربية لغة، حتى صارت تلك العربية أصلاً من أصول حياتها الأدبية.. حتى هذه الشعوب التى ربطتها بالعربية هذه الأواصر الوثقى، إلى أن صارت العربية عنصرًا أساسيًا، وجانبًا جوهريًا من شخصيتها اللغوية الفنية، قد صار لكتاب العربية الأعظم وقرآنها الأكرم مكانه بين ما تعنى به، من دراسة أدبية وآثار فنية قولية؛ فألزمها كل أولئك تناول هذا الكتاب بدراسة أدبية، تتفهم بها أصول ما ورثت من تلك العروبة، إن كانت عربية النجار أو كانت قد اتصلت بتلك العروبة اتصالاً حيويًا قويًا، دفع شخصيتها، وسير وجودها، ووجه حياتها. فالعربى القح، أو من ربطته بالعربية تلك الروابط، يقرأ هذا الكتاب الجليل، ويدرسه درسًا أدبيًا، كما تدرس الأمم المختلفة عيون آداب اللغات المختلفة، وتلك الدراسة الأدبية لأثر عظيم كهذا القرآن هى ما يجب أن يقوم به الدارسون أولاً، وفاء بحق هذا الكتاب، ولو لم يقصدوا الاهتداء به أو الانتفاع بما حوى وشمل، بل هى ما يجب أن يقوم به الدارسون أولاً ولو لم تنطو صدورهم على عقيدة ما فيه، أو انطوت على نقيض ما يردده المسلمون الذين يعدونه كتابهم المقدس؛ فالقرآن كتاب الفن العربى الأقدس، سواء أنظر إليه الناظر على أنه كذلك فى الدين أم لا[1]».

ثم يتقدم أستاذنا إلى بحث خطة التفسير، ويوازن بين تفسير القرآن موضوعًا موضوعًا، وتفسيره على حسب ترتيبه فى المصحف الكريم سورًا أو قطعًا؛ ويخلص من هذه الموازنة بأن صواب الرأى ـ فيما يبدو ـ أن يفسر القرآن

---

(١) رسالة «التفسير» للأستاذ أمين الخولى، ص ١٩.

موضوعًا موضوعًا، لا أن يفسر على ترتيبه فى المصحف الكريم سورًا أو قطعًا. ثم إن كانت للمفسر نظرة فى وحدة السورة وتناسب آيها، واطراد سياقها، فلعل ذلك إنما يكون بعد التفسير المستوفى للموضوعات المختلفة فيها[1]».

ويبين قواعد المنهج الأدبى فى التفسير، فيقول:

«وإذا ما كان وجه الرأى أن التفسير الأدبى لكتاب العربية الأكبر، هو أول ما يجب أن يحاوله مَن لهم بالعربية صلة لغوية أدبية، سواء أكانوا عربًا أم غير عرب؛ وإذا ما كان وجه الرأى أن هذا التفسير الأدبى ينبغى أن يتناول القرآن موضوعًا موضوعًا، لا قطعة قطعة، فعلى هذا الأساس يكون منهج التفسير الأدبى إذن، صنفين من الدراسة، كما هى الخطة المثلى فى درس النص الأدبى، وهذان الصنفان هما: أ ـ دراسة حول القرآن. ب ـ دراسة فى القرآن».

ويفصل الأستاذ القول بعد ذلك، فى هذين الصنفين من الدراسة. فدراسة ما حول القرآن تشمل دراسة تاريخ القرآن ذاته، وهى الدراسة التى أطلق عليها المتقدمون اسم «علوم القرآن»، والتى عالجها المستشرقون فى منهج آخر؛ كما تشمل «دراسة البيئة المادية والمعنوية، التى ظهر فيها القرآن وعاش، وفيها جمع وكتب وقرئ وحفظ، وخاطب أهلها أول من خاطب، وإليهم ألقى رسالته لينهضوا بأدائها، وإبلاغها شعوب الدنيا[2].

ودراسة القرآن ذاته تبدأ بالنظر فى المفردات، وأصولها اللغوية، ومعانيها فى العصر الذى نزل فيه القرآن، ثم معانيها الاستعمالية فى القرآن، «ثم بعد المفردات يكون نظر المفسر الأدبى فى المركبات، وهو فى ذلك ـ ولا مرية ـ مستعين بالعلوم الأدبية من نحو وبلاغة إلخ، ولكن لا على أن الصيغة النحوية عمل مقصود لذاته، ولا لون يلون التفسير كما كان الحال قديمًا، بل على أنها أداة من أدوات بيان المعنى وتحديده؛ والنظر فى اتفاق معانى القراءات المختلفة للآيات الواحدة، والتقاء الاستعمالات المتماثلة فى القرآن كله، ثم على أن النظرة البلاغية

---

(١) المرجع السابق، ص ٢١.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٢.

فى هذه المركبات ليست هى تلك النظرة الوصفية التى تعنى بتطبيق اصطلاح بلاغى بعينه، وترجيح أن ما فى الآية منه هو كذا لا كذا، أو إدراج الآية فى قسم من الأقسام البلاغية دون قسم آخر!! كلا، بل على أن النظرة البلاغية هى النظرة الأدبية الفنية، التى تتمثل الجمال القولى فى الأسلوب القرآنى، وتستبين معارف هذا الجمال، وتستجلى قسماته، فى ذوق بارع قد استشف خصائص التراكيب العربية، منضمًا إلى ذلك التأملات العميقة فى التراكيب والأساليب القرآنية، لمعرفة مزاياها الخاصة بها بين آثار العربية، بل لمعرفة فنون القول القرآنى وموضوعاته، فنًا فنًا وموضوعًا موضوعًا، معرفة تبين خصائص القرآن فى كل فن منها ومزاياه التى تجلو جماله[1]».

تلك أصول المنهج الأدبى فى التفسير، وما بى أن أطيل الاحتجاج لها، أو أفصل القول فيها، فلمن أراد شيئًا من ذلك أن يرجع إلى بحث أستاذنا؛ إنما أقرر هذه المبادئ وأعتمدها قبل أن أطبقها على ما أحاول من دراسة الوصف القرآنى ليوم الدين والحساب، وإن كان لدى ما أحب أن أضيفه إلى هذه المبادئ، فهو أن وراء البحث فى المفردات، والبحث فى الأساليب، بحثًا آخر، لا يتم التفسير الأدبى ـ فى رأيى ـ إلا به؛ وما أحسب أنه غاب عن الأستاذ حين اشترط فيمن يقدم على التفسير الأدبى أن يدرس بيئة القران المعنوية، من عقائد، ونظم اجتماعية، وفنون متنوعة، وأعمال مختلفة، إلى سائر ما تقوم به الحياة الإنسانية لتلك العروبة[2]، ولا حين ألمع إلى أن للقرآن معانى ومرامى إنسانية اجتماعية بعيدة الهدف، أبدية العمر[3]. «فوراء البحث عن المفردات والبحث فى الأساليب إذن، بحث فى المرامى الإنسانية والاجتماعية للقرآن. وليس البحث فى هذه المعانى مطلبًا وراء التفسير الأدبى للقرآن، كالبحث فيما جاء فيه من التشريع مثلاً، بل هو من صميم التفسير الأدبى، إذا أردنا أن ندرس القرآن درسًا أدبيًا، كما تدرس الأمم المختلفة عيون آداب اللغات المختلفة. فليس ما يكفى الباحث حتى يتصدى لدراسة كتاب من عيون

---

(١) المرجع السابق، ص ٢٥ ـ ٢٦.

(٢) المرجع السابق، ص ٢٣.

(٣) المرجع السابق، ص ٢٣ (هامش).

الأدب، أن يبين معانى ألفاظه، ووجود البلاغة فى تعبيره، إذا لم يفرغ جهده فى بيان قيمته الإنسانية، بإبراز ما يضيفه إلى النفس الإنسانية من وعى جديد بذاتها، وإدراك دقيق لما حولها.. إدراك يمتزج فيه التفكير والوجدان امتزاجًا لا يتأتى فى غير الأدب الرفيع، ولئن كان هذا القول صادقًا على الأدب فى عمومه، إنه على الأدب الدينى أصدق. تأمل إن شئت ما تحدثه فى نفسك سورة من سور القرآن، أو آية من آياته، فلا تجد أنك بحاجة إلى مزيد من التوضيح لهذا المعنى. ولا عليك إن كنت مؤمنًا أو ملحدًا، ما لم توصد دونه أبواب حسك، وتغلق منافذ نفسك.

لهذا كان التفسير الأدبى عندى أبوابًا ثلاثة، يسلم كل منها إلى تاليه! فأما البال الأول فدراسة معانى المفردات كما أوضحها أستاذنا؛ وأما الباب الثانى فبحث الأساليب القرآنية ومزاياها الخاصة فى التعبير؛ أما الباب الثالث فبيان المرامى الإنسانية والاجتماعية من القرآن[1].

وإذا تقرر ذلك كله من أصول المنهج الأدبى وطرائقه، فمن الخير ألا ننتقل إلى دراسة الوصف القرآنى ليوم الدين والحساب، متبعين هذه الأصول والقواعد، قبل أن تبين صلة هذا المنهج الأدبى بالصنفين الكبيرين من التفسير، اللذين نجدهما فيما بين أيدينا من كتبه، وهما: التفسير النقلى، والتفسير العقلى، ونحدد مبلغ انتفاعنا بهما فيما نحن بسبيله من التفسير الأدبى، جاعلين قطبى هذا البحث تفسيرى الطبرى والزمخشرى ـ وهما التفسيران اللذان رجع إليهما واعتمد عليهما أكثر المتأخرين ـ ومحاذرين أن ننساق فى الحديث عن ألوان التفسير، التى تأثرت بتطور الحياة العقلية الإسلامية، وكادت تتعدد بتعدد من ألفوا فى التفسير؛ ثم مجتهدين أن ندير القول على تفسير ما جاء فى القرآن الكريم من وصف النشأة الآخرة، حتى تكون الفائدة من هذا البحث فائدة مباشرة، وتكون أحكامنا منصبة على تفسير هذه الأحوال الغيبية وحدها، وإن جاز أن نقرر بعض القواعد العامة فى التفسير الأدبى، إذا توفرت لنا الأسباب. ونتبع ذلك التفسير

(١) هنا يحتاج الباحث إلى أن يلم قدر الاستطاعة ببيئة القرآن المادية والمعنوية، التى كونت النفسية العربية والمجتمع العربى. كما يحتاج إلى مقارنة ما جاء فى القرآن من المعانى ما يناظرها فى الكتب الدينية الأخرى ليرى كيف واجه القرآن المسائل الكبرى التى شغلت بها الإنسانية.

فى منهج المستشرقين التاريخى فى دراسة القرآن، محددين ـ كذلك ـ موقفنا منه، ومبلغ اعتمادنا عليه.

(ب) المنهج الأدبى والتفسير النقلى

فإذا تناولنا موقفنا من التفسير النقلى فليس من شأننا أن نطلق القول فى هذا التفسير، لأن ذلك يتطلب دراسة أسانيده، كما يتطلب دراسة العوامل المؤثرة فيه، دراسة مستوعبة ناقدة؛ وهذا من شأن الباحثين فى تاريخ التفسير. وما دمنا لا نجد هذه الدراسة المستوعبة الناقدة، فليس لنا أن نقول قولاً جامعًا فى التفسير المنقول، فنقبله جملة، أو نرفضه جملة، أو نميز المقبول منه من المرفوض. وليس بمقدورنا، حين نعالج تفسيرًا أدبيًا لبعض أحوال النشأة الآخرة، أن نبحث عن قيمة كل ما ورد فى تفسير كل آية تعرض لنا؛ فنحن لا نستبعد من هذه المرويات إلا ما ضعفه المفسرون الأقدمون أنفسهم، وارتابوا فى صحة روايته.. وهو جد قليل. وتبقى لنا بعد ذلك كله، جملة كبيرة من المرويات، يدور قسم منها حول تفسير معانى المفردات، وقسم آخر حول تفسير المركبات، أو أخذ المعانى من الآيات... ولنا من كل من هذين القسمين موقف خاص.

فأما تفسير معانى المفردات، فقد قررنا من أصول منهجنا الأدبى، تحديد معانى المفردات القرآنية، كما كان يفهمها العرب وقت نزول القرآن. ونحن إذ نحدد هذه المعانى، نستعين بما نعرفه من الشعر الإسلامى، أو الجاهلى الذى نرجح صحة روايته، كما نستعين بهذه الأحاديث المروية، التى تقرب إلينا ما كان يفهمه أهل الصدر الأول من ألفاظ القرآن... ونحن نستأنس بهذا التفسير المنقول عند التخريج اللغوى للألفاظ، فلا نجعل الأوزان الصرفية هى الحكم الوحيد فى فهم معنى لفظ من الألفاظ، فإذا جوز الزمخشرى مثلاً، أن كون كلمة أحقابًا فى قوله ﴿لابِثِينَ فِيهَا أَحْقَاباً﴾ (النبأ: ٢٣) جمع حَقب، لا جمعة حقبة، خشية أن يفهم من التفسير الثانى أن بقاء الكفار فى النار إلى انتهاء، إذا جوز الزمخشرى هذا المعنى كان مما يصدنا عنه أنه لم يرد عن أحد من الصحابة أو التابعين، ورجح ذلك عندنا أن «أحقابًا» وإن كانت ـ فى الموازين الصرفية ـ تصلح

جمعًا لحقبة وجمعًا لحَقب ـ من حَقب فلان إذا أخطأه الرزق ـ فالعربى لم يفهم هذا المعنى الأخير فى الآية، وما كان القرآن ـ وهو كتاب العرب المعجز ـ ليعمد إلى معان مذكورة فى كلام العرب.

على أننا نقف من هذه التفاسير المنقولة لمعانى المفردات وقفة الفاحص المدقق، فنراها ـ وإن صلحت للاستئناس بها فيما نقبله وما لا نقبله من المعانى ـ لا تعطينا معنى اللفظ واضحًا محددًا؛ وذلك راجع ـ فى رأيى ـ إلى أن صنيع الأوائل ممن تعرضوا لتفسير القرآن كان يختلف عن صنيع اللغويين فى تفسير لفظ من الألفاظ، فاللغوى يتتبع استعمال اللفظ ومعانيه، ويوضح مدلوله العام، أو مدلولاته العامة، أما الصحابى أو التابعى فكثيرًا ما يكتفى بالمعنى الإجمالى للفظ، أو بمعناه فى السياق، اعتمادًا على فهم المخاطب لأصل المعنى اللغوى، أو اكتفاء بشرح المراد من الآية، من أقرب طريق. والدراسة اللغوية المتقنة، التى تعين علىَ التذوق الأدبى للكتاب الكريم، لا بد أن تحقق معنى اللفظ اللغوى أولاً، ثم تبحث عن حُكمة اختيار هذا اللفظ لذلك الموضع، وائتلافه مع المعنى الإجمالى للآية، وقيمته فى إبراز هذا المعنى على الوجه المطلوب. وهذا كله لم يكن ـ فى الأعم الأغلب ـ من هم الصحابى حين يتعرض لتفسير آية من آيات القرآن. فهو لا يرى بأسًا بأن يفسر الكناية بالمكنى عنه، فيفسر الغاشية مثلاً بالقيامة أو بالساعة، ولا بأن يفسر الشىء بلازمه، فيفسر الكلوح بالعبوس، ولا بأن يفسر الكلمة بشطر معناها، فيفسر العهن بالصوف، أو بلفظها، فيفسر يوم الدين «بيوم يدين الله العباد»، ولا بأن يفسر المجازى بما هو مجاز فيه، فيفسر السرادق بالدخان[1].. وهذه التفاسير، وإن وضح فى أكثر الأحيان أنها مبنية على التسامح فى أداء المعنى المقصود من اللفظ، ينبهم أمرنا أحيانًا حتى يحسب هذا المعنى الجزئى أو المجمل أو المجازى، الذى ذكره الصحابى، من أصل معنى الكلمة اللغوى. روى الطبرى بعد أن شرح معنى السرادق فى قوله: **﴿إِنَّا أَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ نَاراً أَحَاطَ بِهِمْ سُرَادِقُهَا﴾** (الكهف: ٢٩)، وأنه حائط من نار يطيف بالكافرين

---

(١) انظر الأحاديث التى أوردها الطبرى فى شرح كلمة «الغاشية» (الغاشية: ١) وكلمة كالحون (المؤمنون: ١٠٤) وكلمة «الدين» (الفاتحة: ٤) وكلمة «العهن» (القارعة: ٥).

كسرادق الفسطاط وهى الحجرة التى تطيف بالفسطاط، وجاء بالشواهد على ذلك من كلام العرب ـ روى حديثًا فى تفسير السرادق أنه «دخان يحيط بالكفار يوم القيامة، وهو الذى قال الله فى ظل ذى ثلاث شعب». فهذه العبارة الأخيرة تشككنا فى أن المفسر عمد هنا إلى شرح مجاز اللفظ، دون حقيقته، فإذا راجعنا المادة عند صاحب اللسان وجدناه يقول فيها: «والسرادق الغبار الساطع، والدخان الشاخص المحيط بالشىء» ويستشهد بقول لبيد:

رفعن سرادقًا فى يوم ريح يصفق بين ميل واعتدل

ونجد فى القاموس أيضًا تفسير السرادق بأنه الغبار الساطع والدخان المرتفع المحيط بالشىء. وإذا أنعمنا النظر فى شاهد اللسان، وجدناه لا يقوم دليلاً على أن السرادق استعمل استعمالاً أصليًا بمعنى الدخان، فاستعماله فى بيت لبيد يحتمل المجاز والحقيقة، وكونه مجازًا يرجحه ترشيح الاستعارة بعد ذلك بقوله «يصفق بين ميل واعتدال» وقول الآخر وهو عدى بن الرقاع:

يتعاوران من الغبار ملاءة غبراء محكمة هما نسجاها
تطوى إذا علوا مكانًا ناشزًا وإذا السنابك سهلت نشراها

فلا دليل إذن على أن السرادق يعنى الدخان حقيقة، والذى يبدو لى فى هذا البحث أنه فسر فى القرآن تفسيرًا مجملاً، ثم أخذ اللغويون هذا التفسير المجمل، وبحثوا له عن شاهد فى كلام العرب. فالمفسر الأدبى حين ينظر فى هذه التفاسير يقدر ما فيها من تجوز وتسامح، ويبحث، بطريقته المنظمة فى البحث اللغوى، عن المعنى الأصلى للكلمة وقت نزول القرآن، وعن معناها الاستعمالى فى القرآن، وكون هذا الاستعمال حقيقيًا أو مجازيًا، فلا تضيع الصور البيانية الدقيقة التى يرسمها القرآن فى جو من الفهم الغامض المجمل.

هذا مجمل رأينا فيما نقلته إلينا كتب التفسير من المرويات فى تفسير المفردات، وننتقل الآن إلى النظر فيما روى من التأويل عن بعض الصحابة فى بعض آيات القيامة والجنة والنار، فننقل نماذج منه قبل أن نعرض رأينا فيه. ذكر الطبرى فى تفسير قوله ﴿**لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ**﴾ (الأنبياء: ١٠٠)

أن ابن مسعود كان يتأول فى قوله **﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ﴾** ما حدثنا القاسم قال حدثنا الحسين قال حدثنى حجاج عن المسعودى عن يونس بن ضباب قال: قرأ ابن مسعود هذه الآية - **﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ﴾** - قال إذا ألقى فى النار من يخلد فيها جعلوا فى توابيت من نار، ثم جعلت تلك التوابيت فى توابيت أخرى فيها مسامير من نار فلا يرى أحد منهم أن فى النار أحدًا يعذب غيره. ثم قرأ **﴿لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ وَهُمْ فِيهَا لا يَسْمَعُونَ﴾**.

وروى الطبرى فى تفسير قوله **﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾** (الأعراف: ٨) بإسناده عن عبدالله بن عمر هذا الحديث: «يؤتى بالرجل يوم القيامة إلى الميزان فيوضع فى الكفة فيخرج له تسعة وتسعون سجلاً فيها خطاياه وذنوبه، ثم يخرج كتاب مثل الأنملة فيه شهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدًا عبده ورسوله، فتوضع فى الكفة فترجح بخطاياه وذنوبه».

وروى الطبرى أيضًا فى تفسير قوله تعالى: **﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾** (يونس: ٩) الحديث المنسوب إلى قتادة: قوله: «إن الذين آمنوا وعملوا الصالحات يهديهم ربهم بإيمانهم تجرى من تحتهم الأنهار فى جنات النعيم»، بلغنا أن نبى الله - ﷺ - قال: إن المؤمن إذا خرج من قبره صور له عمله فى صورة حسنة فيقول له ما أنت، والله إنى لأراك أمرأ صدق، فيقول أنا عملك، فيكون له نورًا وقائدًا إلى الجنة، وأما الكافر إذا خرج من قبره صور له عمله فى صورة سيئة وبشارة سيئة فيقول ما أنت، فوالله إنى لأراك أمرأ سوء، فيقول أنا عملك، فينطلق به حتى يدخله النار».

هذه الأخبار تمثل لنا قسمًا كبيرًا جدًا من التفسير المأثور الذى نجده فى كتاب ابن جرير الطبرى حول موضوع وصف القيامة والجنة والنار. وجلى أنها - سواء أصحت روايتها أم لم تصح - لا تقدم لنا مادة تعيننا فى التفسير، بل تمثل لنا اتصال التفسير بالقصص فى بعض البيئات، وخصوصًا فيما يتعلق بالغيبيات. والخيال الذى نجده فى هذه الأخبار خيال لا يقف عند حد، ولا يتحرى مناسبة بينه وبين آيات القرآن، فهو - كما رأيت - يتناول المجازات القرآنية فيفهمها فهمًا

حقيقيًا، بل يخلق أنواعًا من المجاز لما جاء من وصف حقيقى غير مجازى، كما فى الحديث الذى رواه الطبرى منسوبًا إلى قتادة.

وقد نمت هذه الأخبار المروية عن النبى والصحابة، وتضخمت على مر الزمن، وأضيف إليها كثير مما تناقلته الألسن من غريب الأخبار، فى أحوال القيامة والجنة والنار وأصبح هذا المزيج موضوع كتب كاملة فى هذا الموضع. ولئن كانت هذه الأحاديث غير ذات نفع لنا فى التفسير، لقد تعيننا حين ندرس خصائص الأسلوب القرآنى فى وصف القيامة والجنة والنار، فنقارن بين الصور القرآنية، وبين الصور التى رسمها هذا اللون من القصص الشعبى ولعلنا نخرج من تلك المقارنة بنتائج ذات قيمة فى فهم أسلوب القرآن فى الترغيب والترهيب.

(جـ) المنهج الأدبى والتفسير العقلى

لعل التفسير العقلى قد ظهر أول ما ظهر فى بيئات المعتزلة، فقد جاهد هؤلاء العقليون لتخليص التفسير من هذه التصورات الشعبية[1]، «وكان ذلك لاعتقادهم بمثل دينية، تصوروا بها، فى إيمانهم بالألوهية، أنها ألوهية تحمل كيانها وسلطانها وتأثيرها فى نفسها، وسلبوا عنها كل الأفكار المادية مما لا يليق بها، ونـزَّهوا الإله عن كل ما ينافى الحكمة والعدالة[2]. «ولئن كان غرض هؤلاء العقليين من تفسيرهم للقرآن أن ينزّهوا الله عن التشبيه والظلم ـ كما يقول جولد تسهير ـ لقد أنتجت هذه المحاولة آثارًا طيبة عظيمة الجدوى على الفهم الأدبى، وبخاصة عند الزمخشرى الذى اتصف بحس أدبى دقيق، فكثرت فى تفسيره

---

(١) لا شك أن عبارة «التفسير العلمى» أوسع من قولنا «التفسير طبقًا للعقل». فالتفسير العقلى قسيم التفسير النقلى، فهو كل نوع من التفسير لم يعتمد على الرواية. أما التفسير ـ طبقًا للعقل ـ فمعناه تحكيم العقل وحده فى فهم معانى الكتاب الكريم. على أنه يظهر أن العقليين الإسلاميين (المعتزلة) قد كانوا هم الذين اقتلعوا الحجر الأول من بناء التفسير بالمأثور كما يقول جولد تسهير، ثم انبرى أهل السنة للرد عليهم بمثل أسلوبهم (كما نجد فى تفسير الفخر الرازى) وتعددت ألوان التفسير وتنوعت على حسب الاتجاهات العقلية المختلفة فى البيئات الإسلامية وثقافات المتصدين للتأليف فى التفسير.

(٢) جولد تسهير: المذاهب الإسلامية فى تفسير القرآن، الترجمة العربية للدكتور عبد الحليم النجار، ص ٩٩.

الملاحظ النفسية العميقة، كما تنبه إلى أسلوب التمثيل، وكثرة استعماله فى القرآن، وأشار إلى ذلك فى مواضع كثيرة من تفسيره. فيقول فى تفسير قوله: **﴿وَمَا قَدَرُوا اللَّهَ حَقَّ قَدْرِهِ وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَالسَّموَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ﴾** (الزمر: ٦٧): «والغرض من هذا الكلام إذا أخذته كما هو بجملته ومجموعه تصوير عظمته والتوقيف على كنه جلاله لا غير، من غير ذهاب بالقبضة ولا باليمين إلى جهة حقيقية أو جهة مجاز. وكذلك حكم ما يروى أن جبريل جاء إلى النبى ـ ﷺ ـ فقال: يا أبا القاسم، إن الله يمسك السماوات يوم القيامة على إصبع والثرى على إصبع وسائر الخلق على إصبع، ثم يهزهن فيقول أنا الملك، فضحك رسول الله ـ ﷺ ـ تعجبًا مما قال، ثم قرأ تصديقًا له وما قدروا الله حق قدره... الآية؛ وإنما ضحك أفصح العرب ـ ﷺ ـ وتعجب لأنه لم يفهم منه إلا ما يفهمه علماء البيان، من غير تصور إمساك ولا إصبع، ولا شىء من ذلك، ولكن فهمه وقع أول شىء وآخره على الزبدة والخلاصة، التى هى الدلالة على القدرة الباهرة، وأن الأفعال العظام التى تتحير فيها الأفهام والأذهان ولا تكتنهها الأوهام هينة عليه هوانًا لا يوصل السامع إلى الوقوف عليه إلا إجراء العبارة فى مثل هذه الطريقة من التخييل. ولا ترى بابًا فى علم البيان أدق ولا أرق ولا ألطف من هذا الباب، ولا أنفع وأعون على تعاطى تأويل المشتبهات من كلام الله تعالى فى القرآن وسائر الكتب السماوية، وكلام الأنبياء، فإن أكثره وعليته تخييلات قد زلت فيها الأقدام قديمًا، وما أتى الزالون إلا من قلة عنايتهم بالبحث و التنقير.

وإذا جاء الزمخشرى إلى تفسير قوله تعالى: **﴿كَلاَّ إِذَا دُكَّتْ الأَرْضُ دَكّاً دَكّاً وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾** (الفجر: ٢١ ـ ٢٣)، قال: «فإن قلت ما معنى إسناد المجىء إلى الله تعالى، والحركة والانتقال إنما يجوزان على من كان فى جهة، قلت هو تمثل لظهور آيات اقتداره، وتبين آثار قهره وسلطانه، مثلت حاله فى ذلك بحال الملك إذا حضر بنفسه ظهر بحضوره من آثار الهيبة والسياسة ما لا يظهر بحضور عساكره كلها، ووزرائه وخواصه عن بكرة أبيهم».

وإذا فسر قوله تعالى: ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظاً وَزَفِيراً﴾ (الفرقان: ١٢) قال: «رأتهم: من قولهم دورهم تتراءى وتتناظر، ومن قوله - ﷺ - لا تراءى نارًا هما كأن بعضها يرى بعضًا على سبيل المجاز. والمعنى إذا كانت منهم بمرأى الناظر فى البعد سمعوا صوت غليانها وشبه ذلك بصوت المتغيظ والزافر». فيجيبه ابن المنير، ممثلاً رأى أهل السنة: «لا حاجة إلى حمله على المجاز، فإن رؤية جهنم جائزة، وقدرة الله تعالى صالحة، وقد تضافرت الظواهر على وقوع الجائز، وعلى أن الله تعالى يخلق لها إدراكًا حسيًا وعقليًا. ألا ترى إلى قوله: ﴿سمعوا لها تغيظًا وزفيرًا﴾، وإلى محاجتها مع الجنة، وإلى قولها هل من مزيد، وإلى اشتكائها إلى ربها فأذن لها فى نفسين، وإلى غير ذلك من الظواهر التى لا سبيل إلى تأويلها، إذ لا محوج إليه، ولو فتح باب التأويل والمجاز لتطوح الذى يسلك ذلك إلى وادى الضلالة والتحيز إلى فرق الفلاسفة. والحق أنّا متعبدون بالظاهر ما لم يمنع مانع والله أعلم».

وهكذا نواجه مشكلة الفرق بين المجاز والحقيقة، وكيف يتأتى لنا أن نفهم وجه استعمال اللفظ، أمجازى هو أم حقيقى، إذا استعمل ذلك اللفظ فى أمر من الأمور الغيبية؟ فنجد الأستاذ الإمام، الشيخ محمد عبده، يقول فى التمييز بين التمثيل والحقيقة: «وكل قول أو فعل ينسب إلى من لا يصدر عنه فى المعروف فنسبته إليه على طريق التمثيل، إلا أن يكون هناك سبب يسوغ النسبة فى عرف الخطاب[1]». وهذه العبارة على إيجازها جليلة القيمة عندنا فى فهم الأسلوب الأدبى؛ ذلك أن الفن القولى لا بد فيه من مراعاة حال المخاطبين، وأول ذلك، مراعاة مفاهيم الألفاظ عندهم؛ فإذا كان من مفهوم النار عندهم - أو مفهومها الرئيسى - اتصافها بالإحراق، فاستعمال لفظة النار فى وصف النار الكبرى، إنما يراد به هذا المعنى، وما يتصل به... وكل ما يأتى بعد ذلك من أوصاف تخصص هذا المعنى، وتتفرد بها نار الآخرة عن النار المعهودة فى الدنيا، فهو تأكيد لهذا المعنى، وتقوية له، وإبراز لبلوغ هذه النار الدرجة العليا فى الإحراق والإتلاف.

---

(١) تفسير جزء عم للأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، ص ٥٠.

وذلك كوصفها بالكبرى، وقوله «لا يموت فيها ولا يحيا»، ووصفها بأن وقودها الناس والحجارة، ووصفها بأوصاف تفيد الطول والعرض والعمق... فكل تلك الأوصاف حقيقة، لأنها لا تتنافى مع مفهوم الناس من كلمة النار، وإن صورت شدتها التى تحيل نار الدنيا شيئًا لا يقاس بجانبها، وأما نسبة الكلام إليه، أو غير الكلام من أعراض الحياة، فلون آخر من التصوير، يعتمد على التخييل، وهو أفعل فى النفس، وأوغل فى الوعيد. ذلك أن التأمل النفيس يدلنا على أنه إذا ثار انفعالنا لشىء من الأشياء، سواء أكان هذا الانفعال حبًا أو غضبًا أم كرهًا أم خوفًا، إلخ. فنحن نخلع على هذا الشىء أولاً الصفات التى تثير حبنا أو غضبنا أو كراهيتنا أو خوفنا فى العادة؛ فإذا بلغ منا الانفعال مبلغه فنحن نتوهم أن هذا الشىء الحبيب يتودد إلينا ويتمسح بنا؛ وأن هذا الشىء المفزع يستفزنا ويروعنا، وأن هذا الشىء الكريه يغثى نفوسنا بحركاته وإشاراته، وأن هذا الشىء المخيف يتوعدنا ويتربص بنا ويدعونا ساخرًا هازئًا. وهذه الحالة هى عند الباحثين فى علم النفس، أعلى درجة من اضطراب الحس، ليس بعدها إلا الجنون. أما الأدب فيستخدم هذه الانفعالات الإنسانية فى مجال بعيد عن مجال الواقع المعانى، ليجعلها جزءًا متممًا لتعبيره عن معنى من معانى الحياة.

والزمخشرى - وإن لم يوضح هذا المعنى فى آية (الفرقان: ١٢) - قد وقف وقفة عند هذا الأسلوب التمثيلى فى القرآن، وأوضح أنه جار على سنن العرب فى التعبير؛ وذلك عند تفسيره للآية: ﴿**إِنَّا عَرَضْنَا الأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُوماً جَهُولاً**﴾ (الأحزاب: ٧٢)، فقد قال إن الأمانة مجاز عن الطاعة، التى أشفقت السماوات والأرض والجبال أن يحملنها لثقل محملها، وحملها الإنسان فعجز عن حملها وقصر فى أداء ما التزمه من الطاعة. ثم يقول: «ونحو هذا من الكلام فى كثير فى لسان العرب، وما جاء القرآن إلا على طرقهم وأساليبهم؛ من ذلك قولهم: «لو قيل للشحم أين تذهب لقال أسوى العوج. وكم لهم من أمثال على ألسنة البهائم والجمادات. وتصور مقاولة الشحم محال، ولكن الفرض أن السمن فى الحيوان مما يحسن قبيحه، كما أن العجف مما يقبح حسنه، فصور أثر

السمنة فيه تصويرًا هو أوقع فى نفس السامع وهى به آنس وله أقبل وعلى حقيقته أوقف. وكذلك تصوير عظم الأمانة وثقل محملها والوفاء بها». ويلحظ الزمخشرى الفرق بين هذا النوع من التمثيل وبين التمثيل الذى عناه البلاغيون؛ فعرض الأمانة على السموات والأرض والجبال، هو فى ذاته محال، فكيف جاز أن يجعل مشبهًا به؟ ويجيب على ذلك بقوله: «إن الممثل به فى الآية وفى قولهم لو قيل للشحم أن تذهب وفى نظائره مفروض، والمفروضات تتخيل فى الذهن كما المحققات». وهذا القول على إجماله يرينا أن الزمخشرى قد شعر بأنه هنا إزاء أسلوب بيانى يختلف عن التشبيه والاستعارة اللذين يتحدث عنهما البلاغيون، فى أن المقصود منه ليس هو تشبيه شىء بشىء، ولا تشبيه حالة بحالة، وإنما هو إحلال طائفة من الصور الحسية، محل طائفة من المعانى المجردة، وربط هذه الصور الحسية بعضها ببعض برباط ذهنى. وهذا أقرب إلى أسلوب الرمز على ما نفهمه فى النقد الحديث. ونجد للزمخشرى وقفة مثل هذه الوقفة، عند تفسير هذه الآية: ﴿**وَضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً قَرْيَةً كَانَتْ آمِنَةً مُطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَداً مِنْ كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ اللَّهِ فَأَذَاقَهَا اللَّهُ لِبَاسَ الْجُوعِ وَالْخَوْفِ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ**﴾ (النحل: ١١٢) فيقول: «وضرب الله مثلاً قرية؛ أى جعل القرية التى هذه حالها مثلاً لكل قوم أنعم الله عليهم فأبطرتهم النعمة، فكفروا وتولوا، فأنزل الله عليهم نقمته؛ فجوز أن تراد قرية مقدرة على هذه الصفة وأن تكون فى قرى الأولين قرية هذه حالها فضربها الله مثلاً لمكة إنذارًا من مثل عاقبتها». فيجوّز أيضًا أن يكون المثل الذى ضرب فى هذه الأية أمرًا مفروضًا مقدرًا.

هذه أمثلة من بحث الزمخشرى فى أسلوب القرآن، وهو بحث أدت إليه - كما ذكرت من قبل - رغبة فى تنقية العقيدة مما ألصق بالقرآن من تأويلات المشبّهة والمجبرة والحشوية إلى آخر ما ينعت به خصومه فى العقيدة؛ على أن هذا لا ينفى قيمة هذه الأبحاث من الناحية الأدبية الخالصة، ولا أنها تفتح للمفسر الأدبى أبوابًا من الفهم تقربه من تذوق بلاغة القرآن؛ والفرق - بعد - كبير بين المفسر الأدبى والمفسر العقلى، فالمفسر العقلى ينظر إلى القرآن أولاً على أنه المرجع الأول للعقائد، ويؤول الآيات تأويلاً يتفق مع مذهبه وفكرته عن الله، التى

تأثرت بالتفكير الفلسفى؛ أما المفسر الأدبى فينظر إلى القرآن على أنه كتاب العربية الأكبر، الذى سحر هذه الأمة ببلاغته، وأمدهم بتصور جديد للحياة؛ وهو يضع منهجه وفقًا لهذه الأغراض، فيستعين لفهم بلاغة القرآن بدراسة لغة القرآن، وبيئة القرآن، كما يقتضى المنهج الأدبى السليم، ليتوصل من ذلك إلى إدراك مرامى القرآن الإنسانية، وأساليبه البيانية.

(د) المنهج الأدبى ومنهج المستشرقين التاريخى فى دراسة القرآن

لقد أشار أستاذنا أمين الخولى فى رسالته عن التفسير إلى أبحاث المستشرقين فى تاريخ القرآن، وذكر أن أبحاث هؤلاء المحدثين أفاضت على هذا الموضوع ألوانًا من العناية العلمية، «إن لم تخل من الاتهام فإنها لن تخلو من روح النقد والتمحيص، التى لا بد منها فى تناول هذه الأبحاث». وقال إن الباحث الأدبى ينبغى له أن ينال حظه من هذه الدراسة القريبة الخاصة حول القرآن، ليستطيع فهمه فهمًا أدبيًا صحيحًا[1].

وأرى من الضرورى أن يُقال ـ تفصيلاً لذلك المقال ـ إن لهؤلاء المستشرقين طريقة خاصة فى دراسة القرآن، تقوم على دعامتين: فأما الدعامة الأولى، فهى أن القرآن قد نزل مفرقًا فى فترة من الزمن تبلغ نيفًا وعشرين عامًا، فكان مما اقتضاه تطور الزمن أن تتغير موضوعاته وأسلوبه حسب تغير ظروف نزوله. والدعامة الثانية أن القرآن من إنشاء محمد، وأن محمدًا استعار كثيرًا من الأفكار التى بثها فيه من الأفكار اليهودية والنصرانية، التى كانت معروفة فى بعض البيئات فى الجزيرة العربية، أو قريبًا منها، كما استمد بعض المعانى من الشعراء الجاهليين.

فهؤلاء المستشرقون لا يقفون عند دراسة مسائل تتصل بتاريخ القرآن، كقراءاته، وتدوينه، والمعرب فيه، إلخ؛ ولكن هذه المباحث جزء من دراستهم التاريخة للقرآن، التى ترمى إلى فهمه على النحو السابق. وهم يتناولون معانى

---

(١) رسالة التفسير، ص ٢٢.

القرآن وفقًا لهذه الدراسة التاريخية، ويردونها إلى أصولها، فيما يزعمون. وأذكر على سبيل التمثيل، من آراء المستشرقين فى وصف الجنة فى القرآن، ما ذهب إليه كارادى فو كاتب مادة «جنة» فى دائرة المعارف الإسلامية، من أن فكرة الحور والولدان فى الجنة، يغلب أن تكون قد خطرت لمحمد، أو لأحد أساتذته المجهولين، من مشاهدة بعض الرسوم المسيحية التى كانت منتشرة فى ذلك العهد، والتى تصور مناظر من الجنة، وفيها الملائكة، فحسبهم محمد حورًا وولدانًا.... وقد اطلعت على رسالة للمستشرق الألمانى «وسف هوروفتس» موضوعها «الجنة فى القرآن»، فوجدته يقول فى صدر هذه الرسالة: «وسأحاول ـ فيما يلى ـ أن أعرض أقوال القرآن عن الجنة، وأن أبحث مصادرها[1]. «فجعل هذا البحث قوام دراسته.. ولا أريد أن أناقش هذه الأقوال الآن، فسوف أعالجها فى موضعها من رسالتى؛ وإنما ذكرتها الآن تمثيلاً وتوضيحًا لمنهج المستشرقين التاريخى فى دراسة القرآن. ومن مقارنة هذا المنهج بمنهجنا الأدبى، يتضح لنا اختلاف ما بين المنهجين؛ وليس هذا الاختلاف راجعًا إلى أننا نؤمن بقدسية القرآن وهم لا يؤمنون بها، فنحن نخرج هذا الإيمان من دائرة البحث، وندرس القرآن ـ كما سبق القول ـ على أنه كتاب أدبى خالد؛ ولمن يشترك معنا فى هذا البحث أن يؤمن بأنه من عند الله، أو يقول بأنه من عند محمد، ما دام يسلم معنا بأنه كان كتابًا وجد فى العرب دليلهم المبين، وقرآنهم المعجز، فهو ـ من هذه الناحية ـ خليق بأن يدرس ـ ككل أثر أدبى ممتاز على الأقل ـ لبيان ما أتى به من جديد، إن فى التصورات الإنسانية، أو فى التعبيرات البيانية؛ وإنما يستعان بدراسة القديم من أفكار دينية، أو شعر جاهلى، لفهم هذا الجديد. ولئن كان المستشرقون يطمئنون من بحثهم إلى بيان ما يعدونه أصولاً قديمة لهذا الكتاب، جاءته من بيئات مختلفة، ولا يقفون عند تذوق معانيه وأسلوبه، إلا ريثما يقررون أن السور المكية الأولى امتازت بخيال حار مشتعل، وكانت تدور حول الوعد والوعيد، واقتراب العذاب النازل بالكفار، ثم أصبح أسلوب القرآن أقل حرارة ـ على حد تعبيرهم ـ

(1) Josef Horovitz: Das Koranische Paradies. S.l.

حين أصبحت أكثر موضوعاته فى التأمل فى صنع الله، والرد على معارضى الرسول، ثم زاد الأسلوب فتوراً، وغلب عليه الأسلوب الوعظى الممل، مع بعض التشريعات المجملة فى العصر المدنى[1] - لئن كان المستشرقون يطمئنون من بحثهم إلى هذا ومثله، فإننا نحن لا نكتفى بهذه الملاحظات المجملة السطحية، بل نستعين بالبحث التاريخى فى القرآن لنفهم بيئته الفكرية، وبيئته المادية، وبيئته اللغوية، بأوسع ما فى كلمة البيئة من معنى، ولنلاحظ تطور الأسلوب، مع تطور البيئة، وتسلسل الفكرة؛ فإذا بلغنا من ذلك الفهم درجة صالحة، غدونا أقدر على إدراك مرامى القرآن الإنسانية والاجتماعية، وطرائقه التعبيرية.. وتلك هى غايتنا من التفسير.

(1) Noldeke: Sketches from Estern History-Koran P. 42-46.

الباب الأول

المفردات

تمهيد
فى الألفاظ ودلالتها

أوضحنا فى الفقرة الأولى من مقدمة هذا البحث أن عملنا فى التفسير مراحل ثلاثة: فأولى تلك المراحل هى دراسة المفردات، أى الألفاظ القرآنية فى وصف الدين والحساب، وهى دراسة يلم فيها القارئ بجزئيات المعانى، والمرحلة الثانية هى بحث أسلوب القرآن فى هذا الوصف، أى طريقته فى التأليف بين هذه الجزئيات، وتطور هذه الطريقة، وفاء بحق المعانى النامية أو المتطورة. والمرحلة الأخيرة هى البحث عن مرامى القرآن الإنسانية والاجتماعية من هذه الأوصاف، وهى لُب هذا التفسير.

وليست دراسة المفردات بأقل شأنًا فى خطة التفسير عندنا من دراسة الأساليب والمرامى. فالمعاجم التى بين أيدينا، وكتب التفسير التى وصلت إلينا، لا توضح معانى الألفاظ فى استعمالها القرآنى توضيحًا كاملاً ولا قريبًا من الكمال.

ذلك بأن للألفاظ حياة وتاريخًا كما لكل كائن آخر حياة وتاريخ. فهى تبدأ ذات مدلول بسيط ساذج، ثم يتطور هذا المدلول مع تطور الحياة الإنسانية، وتتشقق المعانى وتتفرع، كما تتفرع الصيغ بالاشتقاق، وكلها راجعة إلى ذلك الأصل الأول، محتفظة بإثارة منه، عظمت أو قلت، ثم إنك مهما أحصيت هذه المعانى فلست ببالغ أن تفهم معنى اللفظة فهمًا كاملاً حتى تعرف مواضعها فى الاستعمال، ومواقعها فى التركيب، لأن مدلول اللفظ لا يتحدد بذاته فقط، بل يتحدد أيضًا بائتلافه مع غيره من الألفاظ؛ والاستعمال اللغوى كثيرًا ما يميل إلى تخصيص

لفظ معين بضرب معين من التعبير، فهذا لفظ شعرى مثلاً، وذاك لفظ سوقى مبتذل، وهذا لفظ يستعمله التجار كثيرًا، وذلك لفظ يشيع على ألسنة الصناع[1]. وبين هذه الأطراف المتباعدة، التى تنص عليها المعاجم الحديثة، درجات مختلفة من الميل إلى تخصيص اللفظ بضرب معين من ضروب التعبير، وهذه الدرجات لا تحصيها المعاجم، ولا يمكن أن تحصيها، ولهذا كانت المعرفة المعجمية باللغة غير كافية فى نظر المتمرسين بها، المتذوقين لبلاغتها. ثم لكل منشئ، ولكل أثر أدبى، طريقة فى استعمال الألفاظ، تخلع عليها بعض المعانى التى لا تجدها فى الاستعمال العادى، ولهذا يعنى الغربيون أيضًا بعمل معاجم خاصة بكبار كتابهم، كما ينصون فى معاجمهم أحيانًا على أن لفظ كذا قد استعمله فلان الكاتب أو الشاعر مريدًا به كذا...

فهذه الصنوف من الدراسة اللغوية للفظة المفردة، من دراسة معناها الأصلى الذى ترجع إليه بالاشتقاق، ثم تطور هذا المعنى، وفى أى هذه المعانى استعملها القرآن - دع عنك بيان تأثر اللفظ بلفظ أجنبى يشبهه فى لفظه أو معناه، وتمييز الأصيل من المعانى من الدخيل، مما لا تغنى فيه معاجمنا كبير غناء - هذه الدراسة هى أقل ما يجب علينا لهذا الكتاب المبين، إذا كان غيرنا من الأمم يقومون لها لكتب أقل من هذا الكتاب شأنًا عندهم، وتأثيرًا فى حياتهم.

ولقد كان الواجب أن يكون بين أيدينا معجم خاص بمفردات القرآن، مؤلف على هذا النهج الذى وصفناه، فيستغنى به المفسر عن البحث اللغوى فى المفردات كلما أراد أن يدرس موضوعًا من موضوعات القرآن. أما وهذا المعجم غير موجود فلا بد أن يقوم المفسر - أول شىء - بعمل شبيه به، وأقول شبيهًا به؛ لأن المفسر الذى يدرس موضوعًا بعينه إنما يدرس المفردات فى هذا الموضوع، ولا يتبع دورانها فى القرآن إلا تمحيصًا لفكرة وردت له عن استعمال فى القرآن كله.

---

(١) هذا النوع من التخصيص غير التخصيص الذى يتفق عليه أهل كل صناعة بالاصطلاح على ألفاظ خاصة لمسميات خاصة، لأن التخصيص - الذى أشرنا إليه - يظهر ظهورًا تلقائيًا فى تطور اللغة.

ثم إن عمل المفسر الأدبى فى المفردات، يزيد على عمل اللغوى، بأن المفسر الأدبى لا يقنع بالدلالة الصريحة للفظ، بل يتجاوز هذه الدلالة الصريحة إلى الدلالات الضمنية، أى ما يوحيه اللفظ من المعانى التى قد لا تدخل فى تعريفه ولكنها مع ذلك تطوف حوله وتتعلق به، بحيث لا يخلو ذهن قائل أو سامع منها أو من بعضها حين يذكر ذلك اللفظ. فهذه الدلالات الضمنية للألفاظ ـ أو ظلال المعانى إن شئت ـ عامل مهم من عوامل التعبير الأدبى، لجليل قيمتها فى التلوين الوجدانى للمعانى؛ وبها تتمايز الألفاظ المتحدة فى معانيها الصريحة، فتنفرد كل لفظة بلون من التعبير لا تجده لزميلاتها، وإن تشابه التعريف المعجمى للجميع.

وإذ كان من أصول منهجنا أن ندرس الآليات حسب موضوعاتها، فسوف نتبع هذا النظام عند دراسة المفردات، فنقسم الآيات أقسامًا حسب معانيها الظاهرة أو القريبة، لنستعين بهذا التقسيم فى تحديد معانى الألفاظ؛ فإذا فسرنا الآيات ذات الموضوع الواحد، فهمنا بعضها ببعض، واستطعنا بذلك أن نحدد المعانى الإجمالية للألفاظ، ونجونا مما أغرم به الأقدمون من كثرة التخريج، ثم نحاول ـ حيثما استطعنا ـ أن نتبين اختصاص كل لفظ من هذه الألفاظ المتصاقبة المعانى بميزة فى التعبير، جعلته أنسب الألفاظ لموضعه المقسوم.

هذا ما سنحاول فى هذا الباب واقفين فيما ندرس عند الألفاظ التى اختلف فى معناها، أو أجمل القول فيها إجمالاً لا يفى بحاجة القارئ المتفهم. ثم إن كان جهدنا بعد ذلك، جهدًا قاصرًا ضعيفًا، أو شابه بعض التعسف، أو شانه بعض الإغراب، فهو جهد المقل، وشفيعنا أننا نضرب فى طريق غير ممهدة، وأننا لم نؤثر الأيسر الأسلم، على الطيب الأكرم.

ـ ١ ـ

أسماء اليوم الآخر فى القرآن

أكثر أسماء اليوم الآخر ورودًا فى القرآن «يوم القيامة» فقد ورد فيه سبعين مرة. وقال المفسرون فى القيامة إنه مصدر من قام يقوم، (ولم أطلع على رأى

يخالف ذلك إلا ما أورده صاحب اللسان فى آخر مادة قام من أنه «قيل هو تعريب قيمنا، وهو بالسريانية بهذا المعنى «فأورده كما ترى بصيغة التضعيف. وبحثت عن هذا اللفظ فى كتاب «الألفاظ الآرامية فى اللغة العربية»[1] لفرنكل فوجدته لم يورده بين الكلمات الآرامية المعربة، وكذلك وجدت مكدونلد قد تابع اللغويين والمفسرين العرب فى اشتقاق الكلمة عند بحثه مادة «قيامة» فى دائرة المعارف الإسلامية).

والأصل الحسى لماذا قام هو الوقوف والثبات: قام الماء إذا ثبت متحيرًا لا يجد منقذًا، وإذا جمد أيضًا، وقامت الدابة إذا وقفت عن السير، وعين قائمة ذهب بصرها وحدقتها صحيحة سالمة. ومن هذا جاءت أسماء عدة لما به وقوف الشىء وثباته، فقوام كل شىء ما استقام به، وقائم السيف مقبضه، وقوائم السرير والدابة ونحوها ما قامت عليه.

ومن الوقوف والثبات، جاء الاعتدال والاستواء: قام الشىء واستقام واعتدل واستوى، وقامة الإنسان وقيمته وقوميته وقوامه شطاطه (طوله فى اعتدال). وقوّم الشىء ثقفه، وأقام درأه أزال عوجه.

ومن الوقوف والثبات أيضًا جاءت الإقامة بالمكان بمعنى لزومه والدوام فيه.

واستعمل هذا الفعل فى المعنويات. فمن الوقوف والثبات الحسين جاء القيام على الشىء بمعنى التمسك به والمواظبة عليه، ورووا من ذلك قول حكيم بن حزام: بايعت رسول الله - ﷺ - ألا أخر إلا قائمًا، أى لا أموات إلا ثابتًا على الإسلام؛ ثم بمعنى المحافظة عليه، فقالوا قام الرجل على المرأة أى مانها، والقيم السيد وسائس الأمور. وفلان لا يقوم بهذا الأمر، أى لا يقدر عليه.

ومن معنى الثبات توسعوا فى استعمال «قام»، فاستعملوه بمعنى الاستمرار كطفق؛ قامت امرأة تنوح أى طفقت تنوح. واستعملوه مع الجمل ليدل على معنى

---

(1) Sligmund Fraenkel: Die Aramischen Fremdworter im Arabishen.

العزم أو التهيؤ للفعل. كقول العمانى الراجز للرشيد عندما هم بأن يعهد إلى ابنه قاسم:

قل للإمام المقتدى بأمه.. ما قاسم دون مدى ابن أمه.. فقد رضيناه فقم فسمه.

وجاء من هذه المادة فى القرآن الفعل «قام» فى ثلاثة وثلاثين موضعًا، اثنان منها أسند فيهما القيام إلى الكفار: **﴿يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا﴾** (البقرة: ٢٠)، **﴿الَّذِينَ يَأْكُلُونَ الرِّبَا لا يَقُومُونَ إِلاَّ كَمَا يَقُومُ الَّذِي يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ﴾** (البقرة: ٢٧٥)؛ وجاء مسندًا إلى المنافقين مرتين فى قيامهم للصلاة: **﴿إِنَّ الْمُنَافِقِينَ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَهُوَ خَادِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوا إِلَى الصَّلاةِ قَامُوا كُسَالَى﴾** (النساء: ١٤٢)؛ ومسندًا إلى سليمان **﴿قَالَ عِفْرِيتٌ مِنَ الْجِنِّ أَنَا آتِيكَ بِهِ قَبْلَ أَنْ تَقُومَ مِنْ مَقَامِكَ﴾** (النمل: ٣٩)؛ وجاء مسندًا إلى السماء والأرض فى موضع واحد **﴿وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ﴾** (الروم: ٢٥). والمعنى فى هذه المواضع السابقة حسى محض.

واستعمل مسندًا إلى الساعة على سبيل المجاز ـ والمراد الحدوث ـ فى خمسة مواضع (الروم: ١٢، ١٤، ٥٥، وغافر: ٤٦، والجاثية: ٢٧)، ومسندًا إلى الحساب أيضًا (إبراهيم: ٤١)، ومسندًا إلى الأشهاد يوم القيامة (غافر: ٥١)، وإلى الروح والملائكة كذلك (النبأ: ٣٨)، وإلى الناس يوم القيامة (المطففين: ٦).

وجاء مسندًا إلى النبى أو إلى المؤمنين فى الصلاة أو ما يشبهها فى ثلاثة مواضع (النساء: ١٠٢، والتوبة: ٨٤، ١٠٨)، وفى معنى العبادة مطلقًا فى خمسة مواضع (البقرة: ٢٣٨، والشعراء: ٢١٨، والطور: ٤٨، والمزمل: ٢، ٢٠)، ونجد المعنى هنا أقرب إلى المعنوى منه إلى الحسى. ويظهر الانتقال من الحسى إلى المعنوى بوضوح أكبر فى (سبأ: ٤٦) **﴿قُلْ إِنَّمَا أَعِظُكُمْ بِوَاحِدَةٍ أَنْ تَقُومُوا لِلَّهِ مَثْنَى وَفُرَادَى﴾** قال الزمخشرى فى تفسير القيام هنا إنه «القيام الذى لا يراد به المثول على القدمين، ولكنه الانتصاب فى الأمر والنهوض فيه بالهمة».

وجاء القيام بمعنى الرعاية والمحافظة فى موضعين اثنين (النساء: ١٢٧، والحديد: ١٢٥)، وبمعنى العزم على الشىء والتهيؤ له فى ثلاثة مواضع (الكهف: ١٤، والجن: ١٩، والمدثر: ٢).

ويلاحظ من هذا أن أقل استعمال القرآن للفعل قام هو فى المعانى الحسية القريبة، وأن أكثر استعماله فى الصلاة والعبادة. بل نلاحظ أن فيما عددناه من المعانى الحسية ما يظهر فيه الانصياع والانقياد على أتم وجه. وذلك فى آية (الروم: ٢٥) ﴿**وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ تَقُومَ السَّمَاءُ وَالأَرْضُ بِأَمْرِهِ**﴾.

وجاء الوصف من هذا الفعل «قائم» (م. قائمة ج. قائمون وقيام) فى تسعة عشر موضعًا، استعمل منها بالمعنى الحسى الأول فى ثلاثة مواضع (هود: ٧١، والحشر: ٥، والجمعة: ١١)، وظرفًا للصلاة أو الدعاء أو ما يماثلها فى خمسة مواضع (آل عمران: ١٩١، والنساء: ١٠٣، ويونس: ١٢، والفرقان: ٦٤، والزمر: ٩)، وللعبادة ورعاية أمر الله فى موضعين (آل عمران: ١١٣، والحج: ٢٦)، ووصفًا للساعة فى موضعين (الكهف: ٣٦، وفصلت: ٥٠) وللخلق عن قيام الساعة (الزمر: ٦٨). وورد هذا الوصف بمعنى المحافظة على الشىء والقيام عليه فى ثلاثة مواضع (آل عمران: ١٨، ٧٥، والمعارج: ٣٣).

وتتبع سائر مشتقات هذا الفعل فى القرآن، ينتهى بنا إلى مثل ما رأينا فى تتبع الثلاثى والوصف منه، من كونهما استعملا فى المعنويات أو فى واد بين الحسى والمعنوى بمعنى التوجه إلى الله.. وهذه الملاحظة العامة، تهدينا إلى فهم مدلول «يوم القيامة» فى القرآن، فقد ذكر الراغب أن «القيامة عبارة عن قيام الساعة المذكور فى قوله: ﴿**يوم تقوم الساعة؛ يوم يقوم الناس لرب العالمين؛ وما أظن الساعة قائمة**﴾. وهو قول مجمل. والتحقيق أن يقال إن القيامة إما أن تكون مأخوذة من قيام الناس من قبورهم عند البعث، أو من قيام الساعة، أو من قيام الخلق لله عند مجىء الساعة. والمعنى الأول يبعده أن الفعل «قام» لم يأت فى القرآن قط للدلالة على قيام الناس من القبور، وأنه لم يستعمل فى المعانى الحسية المحضة إلا قليلاً. ويبعد الثانى أن إسناد القيام للساعة إسناد مجازى، فإذا أتى المصدر منه صعب أن يردّ هذا المصدر إلى الاستعمال المجازى مع غياب

قرينة توضح معناه. فيبقى المعنى الثالث، وهو أن يوم القيامة سمى كلذلك لما ورد فى آية (غافر: ٥١): ﴿**إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ**﴾، و(النبأ: ٣٨): ﴿**يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفّاً لا يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً**﴾، و(المطففين: ٦): ﴿**يَوْمَ يَقُومُ النَّاسُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ**﴾. ويؤيد هذا المعنى أن القيام استعمل فى القرآن كثيرًا بمعنى التوجه إلى الله، وأن هذا الاستعمال ـ فيما نعلم ـ خاص بالقرآن.

وقد جاء يوم القيامة فى القرآن:

غاية وحدًا للفعل، وفى (آل عمران: ٥٥، والمائدة: ١٤، ٦٤، والأعراف: ١٦٧، والإسراء: ٥٨، ٦٢، والقصص: ٧١، ٧٢، والأحقاف: ٥، والقلم: ٣٩).

وظرفًا للحشر وما فى معناه فى (النساء: ٨٧، والأنعام: ١٢، والإسراء: ٩٧، والمؤمنون: ١٦، والجاثية: ٢٦).

وظرفًا لكون الأرض جميعًا قبضة الرحمن فى (الزمر: ٦٧).

وللحساب وما فى بابه من إقامة الميزان وإخراج الكتب فى (آل عمران: ١٨٥، والإسراء: ١٣، والكهف: ١٠٥، ومريم: ٩٥، والأنبياء: ٤٧، والقصص: ٦١، والعكبوت: ٣).

وللإنباء بالأعمال فى (المجادلة: ٧).

ولتبيين ما اختلف فيه فى (النمل: ٩٢).

ولحمل الأوزار وما فى معناه ما يدل على ملابسة الذنب فى (آل عمران: ١٦١، ١٨٠، والنمل: ٢٥، وطه: ١٠٠، ١٠١).

وللحكم وما فى معناه فى (البقرة: ١١٣، والنساء: ١٤١، ويونس: ٩٣، والنحل: ١٢٤، والحج: ١٧، ٦٩، والسجدة: ٢٥، والممتحنة: ٣).

وللمجادلة وما فى معنى الاعتذار فى (النساء: ١٠٩، والأعراف: ١٧٢).

ولتخاصم الكفار وكفر بعضهم ببعض فى (العنكبوت: ٢٥، وفاطر: ١٤، والزمر: ٣١).

وللشهادة فى (النساء: ١٥٩).

وللافتداء (منفيًا قبوله) فى (المائدة: ٣٦، والزمر: ٤٧).

ولما فى معنى مكافأة المؤمنين بالطيبات فى (الأعراف: ٣٢).

ولما فى معنى رفعة المؤمنين فى (البقرة: ٢١٢).

ولما فى معنى الأمن لهم فى (فصلت: ٤٠).

ولما فى معنى إدخال النار فى (الحج: ٩، والفرقان: ٦٩، والقصص: ٤١، وفصلت: ٤٠).

وللعذاب الشديد والسيئ فى (البقرة: ٨٥، ١٧٤، والزمر: ٢٤).

وللخزى وما فى معناه فى (البقرة: ١٧٤، وآل عمران: ٧٧، ١٩٤، والنمل: ٢٧، والزمر: ٦٠).

ولخسران النفس والأهل فى (الزمر: ١٥، والشورى: ٤٥).

وظرفًا لاستفهام تعجبى عن حال الكفار فى (يونس: ٦٠).

ومستفهمًا عنه من الكافر على سبيل الإنكار فى (القيامة: ٦).

ومقسمًا به فى (القيامة: ١).

ومن تتبع استعمال «يوم القيامة» فى القرآن نلاحظ أنه يدل على «زمان ممتد إلى أن يفصل بين العباد ويدخل أهل الجنة، الجنة وأهل النار، النار»، كما قال أبوحيان؛ كما نلاحظ أن المجىء بيوم القيامة ظرفًا ناسب الإتيان معه بمعان حسية ومعنوية ونفسية، فى الحشر، وفى الحساب والحكم بين الخلق ومجازاتهم بما عملوا، وفى رفعتهم أو إخزائهم.

ووردت فى القرآن للقيامة ويوم القيامة أسماء كثيرة أخرى.

فسميت القيامة «الساعة» فى أربعين موضعًا، وساع وواوى ويائى. ومعانى الواوى واليائى تتقارب، وتدور كلها فى الأصل العربى حول معنى الانسياب والانطلاق.

فالسيع الماء الجارى على وجه الأرض، وقد انساع، وانساع الجمد ذاب وسال، وساع الماء والسراب يسيع سيعًا وسيوعًا وتسيع اضطرب وجرى على وجه الأرض، وسراب أسيع. وساع الشىء يسيع ويسوع ضاع، وساعت الإبل سوعًا ذهبت فى المرعى وانهملت، وناقة مسياع ذاهبة فى المرعى، ورجل مسياع مضياع للمال.

على أن هذا اللفظ قد امتزج بألفاظ معربة من لغات أخرى؛ فأدخل اللغويون فى هذه المادة: السياع وهو ما يطلى به من طين ونحوه، والفعل منه سيّع، والمسيعة ما يطين بها. فيغلب على الظن أن هذه الكلمة آرامية، لأنها بعيدة عن أصل المادة العربى، وهى من جهة أخرى كثيرة الاستعمال فى الآرامية[1].

أما الساعة فقد جاء فى اللسان أنها تطلق فى الأصل بمعنيين، أحدهما أن تكون عن جزء من أربعة وعشرين جزءًا هى مجموع اليوم والليلة، والثانى أن تكون عبارة عن جزء قليل من النهار أو الليل. وهذان المعنيان موجودان فى اللفظ السريانى «شاعتا»، ومن ثم نرجح أن لفظ «ساعة» فى العربية معرب عنه. واستعمال الساعة فى العربية للوقت القليل، أكثر من استعماله بمعنى جزء اليوم المعروف، إذا جاز أن نتخذ كثرة الشواهد التى يرويها صاحب اللسان على المعنى الأول دليلاً على ذلك، وإن صح هذا فإنه يكون راجحًا أقرب هذا المعنى من أصل مادة الكلمة فى العربية.

وقد استعملت الساعة فى القرآن فى ثمانية وأربعين موضعًا منها ثمانية مواضع جاءت فيها بمعنى الجزء من النهار أو الليل (الأعراف: ٣٤، والتوبة: ١١٧، ويونس: ٤٥، ٤٩، والنمل: ٦١، والروم: ٥٥، وسبأ: ٣٠، والأحقاف: ٣٥) وهى صريحة فى هذه المواضع فى الدلالة على أن المراد بها الجزء القليل، عدا موضعًا واحدًا يمكن أن يراد بها فيه الجزء القصير من الزمن والجزء من الزمن مطلقًا (التوبة: ١١٧).

---

(١) المصدر السابق، ص ٧.

ووردت بمعنى القيامة فى المواضع الباقية. فجاءت بما يفيد قرب وقوعها فى (النمل: ٧٧، والقمر: ١). وبما يفيد مجيئها فجأة فى (الأنعام: ٣١، ويوسف: ١٠٧، والحج: ٥٥، والزخرف: ٦٦، ومحمد: ١٨).

ثم وردت كلمة الساعة فى حكاية سؤال الكفار عن القيامة ـ وعن وقتها بخاصة ـ وشكهم فيها، وتكذيبهم بها، وفى الرد عليهم. وتقرير مجيئها، وتخويفهم به (إما العذاب وإما الساعة)، وذكر إيمان المؤمنين بها، فى مواضع كثيرة: (الأنعام: ٤٠، والأعراف: ١٨٧، والحجر: ٨٥، والكهف: ٢١، ٣٦، ومريم: ٧٥، وطه: ١٥، والأنبياء: ٤٩، والحج: ٧، والفرقان: ١١ (مرتين)، والأحزاب: ٦٣ (مرتين)، وسبأ: ٣، وغافر: ٥٩، وفصلت: ٥٩، والشورى: ١٧، ١٨، والزخرف: ٦١، والجاثية: ٣٢ (مرتين)، والقمر: ٤٦ (مرتين)، والنازعات: ٤٢).

ووردت مضافًا إليها الزلزلة فى (الحج: ١).

ووردت مضافًا إليها أو إلى ضميرها العلم (عنده علم الساعة) فى أربعة مواضع: (لقمان: ٣٤، وفصلت: ٤٧، والزخرف: ٦١، ٨٥.

وجاءت مع «تقوم» ظرفًا للحساب والجزاء فى خمسة مواضع: (الروم: ١٢ و١٤ و٥٥، وغافر: ٤٦، والجاثية: ٢٧).

ويظهر من هذا البيان أن الاستعمال القرآنى للساعة كثير فى مواطن المجادلة عن حقيقتها، وتقرير وقوعها بأسلوب من المنطلق الوجدانى يعتمد على «الخوف من المجهول»؛ وقلما جعلت الساعة ظرفًا للحساب والجزاء كما رأينا فى استعمال «يوم القيامة».

وجاءت تسمية يوم القيامة «يوم الدين» فى اثنى عشر موضعًا من القرآن الكريم.

والمعانى التى أوردها اللغويون العرب لكلمة دين متعددة متشعبة يكاد يضل الباحث فى رجعها إلى أصل أو أصول، وأرى قبل أن أبسط ما هدتنى إليه المحاولة فى تحقيق ذلك، أن آتى على معانى الكلمة التى ذكرها اللغويون العرب، ثم ألخص ما اطلعت عليه من آراء المستشرقين فى أصل هذه المادة أو أصولها.

وإليك ما تورده كتب اللغة من معانى هذه المادة مرتبة ترتيبًا يضم المعانى المتصاقبة بعضها إلى بعض.

الدين بالكسر الجزاء، وقد دنته دينًا، والدين القهر والغلبة والاستعلاء. والمدين العبد، وبهاء الأمة، لأن العمل أذلهما.

والدين الإسلام، وقد دنت به، والدين العبادة، والدين الملة والورع.

والدين العادة، والدين الحال.

والدين القضاء، والدين السلطان والملك والحكم والسيرة والتدبير. والديان القهار، والقاضى، والحاكم، والسائس، والحاسب، والمجازى الذى لا يضيع عملاً بل يجزى بالخير والشر. ودنته أدينه ملكته، ومنه المدينة للمصر.

والدَّين ما له أجل، والقرض ما ليس له أجل.

والدَّين الموت.

والدَّين والدينة المواظب من الأمطار أو اللين منها[1].

وقد هالت المستشرقين كثرة هذه المعانى وتباعدها. فيقول مكدونلد فى مادة دين من دائرة المعارف الإسلامية: «يمكن تبين ثلاث كلمات متميزة فى هذه المعانى المختلطة التى يسوقها اللغويون العرب تحت لفظة «دين»:

١ ـ كلمة مستعارة من الآرامية والعبرية بمعنى الحكم.

٢ ـ كلمة عربية صريحة بمعنى العادة والطريقة، وقد ارتبطت بالكلمة الأولى.

٣ ـ كلمة فارسية متميزة عن هاتين الكلمتين تمامًا بمعنى الدين Religion. وقد حاول فولرس أن يثبت أن كلمة «دين» كلمة عربية صحيحة، ودلل على أن الفارسية «دين» كانت مستعملة فى اللغة العربية فى العصر الجاهلى، ليتوصل من ذلك إلى أن معنى العادة والطريقة أخذ من هذا المعنى. وقد كان هذا الاختلاط بلا شك سببًا لمشكلات لا نهاية لها عند مفسرى القرآن المسلمين. فمثلاً، عند تفسير ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يحسون كلهم تقريبًا أن المعنى

(١) لعل الدين والدينة بهذا المعنى لغتان فى الديمة.

الضرورى هو الحساب والجزاء، ولكنهم يضطربون جدًا فى الوصول إليه. وعلى أية حال فكل ما ورد فى القرآن من هذه الكلمة يمكن تفسيره بأحد المعانى الثلاثة السابقة.

ويظهر من هذا أن مكدونلد يرى أن المعنى الأصلى لكلمة دين فى اللغة العربية هو العادة والطريقة، وأن معنى الحكم والجزاء دخل العربية مع كلمة عبرية أو آرامية تشبه هذه الكلمة (ولم يوضح إن كان هذا الأخذ راجعًا إلى العصر الجاهلى أو إلى القرآن، وإن كان كلامه عن اضطراب المفسرين فى تفسير قوله ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ يشعرنا بأن استعمال الدين لمعنى الحساب لم يكن مألوفًا لهم - فى رأيه - ولعله كان خاصًا بالقرآن)[1].

ويذهب برجشتراسر إلى مثل ما رآه ماكدونالد من أن كلمة دين بمعنى الحساب والجزاء معرَّبة عن الآرامية، وبمعنى أن الدين معرَّبة عن الفارسية؛ ويقول إن الأولى أكادية الأصل متصلة بشرائع حمورابى التى كان لها تأثير بين الأمم السامية، ويخالف مكدونلد فى الصلة بين الكلمتين فيقول: «ولعل دين فى الفارسية بمعنى الديانة مأخوذة من denu الأكادية بعينها مع اختلاف معنييهما[2]».

وعندى أن رد كلمة «دين» بهذه السهولة إلى أصول ثلاثة عربى وفارسى وعبرانى أو أكادى لا يفسر لنا كل معانى الكلمة التى أوردها اللغويون، ولا يوضح لنا أوجه استعمالهما فى القرآن الكريم كما زعم مكدونلد. ويظهر لى أن المعنى الأصلى لهذه المادة هو «القرض» فى أيسر معانيه - أى شىء يجب قضاؤه وسداده. ومنه جاء الدين بمعنى الموت، كما قالوا قضى نحبه أى مات، والنحب أصل معناه النذر.

---

(١) ولست أدرى كيف ساغ لمكدونلد أن يقول إن المفسرين المسلمين اضطربوا فى تفسير كلمة الدين فى قوله تعالى ﴿مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ﴾ مع أن الزمخشرى يقول فى تفسيرها فى هذا الموضع: ويوم الدين يوم الجزاء ومنه قولهم كما تدين تدان، وبيت الحماسة:

ولم يبق سوى العدوان دناهم كما دانوا

(٢) التطور النحوى للغة العربية، ص ١٤٤.

ومن هذا المعنى جاء معنى القهر والإذلال، إذ كان ذلك «دينًا» يجب قضاؤه ورده: دنته أدينه أخضعته، ودنت له خضعت له، أى كانت له قبلى حقوق لم تكن له، ثم جاء من المفاعلة ـ الإقراض والرد ـ معنى الجزاء: دنته كما داننى أى جازيته بمثل ما فعل بى؛ ويشهد ذلك قولهم «كما تدين تدان» وقول الفند الزمانى فى حرب البسوس:

فلما صرح الشر فأضحى وهو عريان
ولم يبق سوى العدوان دناهم كما دانوا

ومن معنى الخضوع تأتى فى يسر كلمة دين بمعنى العبادة وبمعنى الديانة، ثم بمعنى الملة؛ أى جامعة الدين الواحد. ومن الديانة يأتى معنى العادة؛ والنقلة هنا يسيرة أيضًا حيث كان الدين فى أبسط مظاهره جملة ومن الطقوس والعادات.

ونجد فى القرآن نفسه شاهد الانتقال من معنى الخضوع إلى معنى العبادة فالديانة، فى (الأعراف: ٢٩) **﴿وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِنْدَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾**، و(النحل: ٥٢) **﴿وَلَهُ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَلَهُ الدِّينُ وَاصِبًا﴾**، و(العنكبوت: ٦٥) **﴿فَإِذَا رَكِبُوا فِي الْفُلْكِ دَعَوُا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ﴾**.

ونرجح بعد هذا كله أن تكون كلمة «دين» قد تأثرت فى عصر ما من عصور العربية بالكلمة الأكادية denu بوساطة لغة آرامية، فدخلت فيها هذه المعانى التى تتصل بالحكم والقضاء، والتى ترجح كون الكلمة مأخوذة من حضارة عريقة فى الحكم والتشريع. وانضم معنى الحكم إلى معنى الجزاء الذى أوضحنا عربيته فيما سبق. وبهذا المعنى المزدوج استعملت فى القرآن حين ذكر **﴿يوم الدين﴾** (الحجر: ٣٥، والشعراء: ٨٢، والصافات: ٢٠، وص: ٧٨، والذاريات: ١٢، والواقعة: ٥٦، والمعارج: ٢٦، والمدثر: ٤٦، والانفطار: ١٥، ١٧، ١٨، والمطففين: ١١). وجاءت كلمة الدين وحدها بمعنى الحكم والجزاء أيضًا فى خمسة مواضع (الذاريات: ٦، والانفطار: ٩، والتين: ٧، والماعون: ١، والنور: ٢٥) و«مدينون»؛ أى محاسبون فمجازون فى موضعين (الصافات: ٥٣، والواقعة: ٨٦).

وذكر «يوم الفصل» فى القرآن ست مرات. وأصل معنى الفصل لغة فرق ما بين الشيئين من شأنهما أن يتصلا فى نظام، كما أن أصل معنى الفرق انفصال أجزاء الشىء الواحد وتباعدها، أو انفصال الشيئين بمنزلة الشىء الواحد وتباعدهما كذلك، وكما أن أصل معنى التزييل تخليص الشكلين من خليط غير منتظم والتمييز بينهما.

فمن معانى الفصل لغة كل ملتقى عظمين فى الجسد كالمفصل. والفصلة النخلة المنقولة. والفصيل ولد الناقة إذا فصل عن أمه. والفاصلة الخرزة تفصل بين الخرزتين فى النظام. وجاء الفصل المعنوى على طريق المجاز من هذا الفصل الحسى، فالفصل المعنوى هو الفرق بين أمرين متصلين عند الحد الذى ينتهى عنده أحدهما ويبدأ الآخر، وذلك كقولهم أصاب المحز وطبق المفصل، وفى التعبير عن براعة القول ووقوعه موقعه.

ومن معانى الفرق لغة: الطرق فى شعر الرأس، وفرقت الناقة أو الأتان أخذهما المخاض فندت فى الأرض. والفرق تابع ما بين الثنيتين وما بين المنسمين، وفى الخيل إشراف إحدى الوركين على الأخرى، والفرقاء الشاة البعيدة من بين الطبيين. وفرقة تفرقًا بدده. ومن هذا المعنى الحسى جاء المعنى المعنوى فى التفريق وهو التخويف.

ومن معانى الزيل لغة زلته أزيله فلم ينزل مزته فلم ينمز. وأزلت الضأن من المعز والبيض من السود إزالاً وإزالة وكذلك زلتها أزيلها زيلاً أى ميزت.

ولهذا جاء فى القرآن الكريم يوم الفصل، لأن الفصل أدق فى معنى الفرق بين الشيئين لم يمتزجا فيعدا كشىء واحد ولم يتفرقا فيكون الحاجز بينهما ظاهرًا. وهكذا الفرق بين الصالح والطالح فليس بين الصلاح والطلاح فرق بين، بل فى كل امرئ قدر من كليهما؛ والفرق بين العمل الصالح والعمل الطالح كذلك، فهما مراتب يختلف تقديرهما ولا يسهل الحكم بأحدهما. فكان الفصل أدق فى أداء معنى الحساب الدقيق والحكم العادل.

وقد جاء «يوم الفصل» فى (الصافات: ٢١) ﴿**هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِى كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ**﴾، و(الدخان: ٤٠) ﴿**إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ**﴾، و(المراسلات: ١١،

١٢، ١٣) ﴿وَإِذَا الرُّسُلُ وُقِّتَتْ لأَىِّ يَوْمٍ أُجِّلَتْ لِيَوْمِ الْفَصْلِ﴾، و(المرسلات: ٣٨) ﴿هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ﴾، و(النبأ: ١٧) ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً﴾.
وما يزيدنا أنسًا بالمعنى الذى أسلفنا ذكره سياق آية (الصافات: ٢٠، ٢١): ﴿وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ، هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِى كُنتُمْ بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾. فجاءت تسمية اليوم بيوم الدين أولاً، والدين معناه الجزاء بوجه عام، فكان من تمام المعنى فى هذا الموضع أن يسمى اليوم مرة أخرى يوم الفصل، إذ كان ذلك من جواب الملائكة للكفار، أو من جواب الكفار بعضهم لبعض على سبيل التذكير والتوبيخ، فقيل لهم أو قالوا لأنفسهم إنه يوم القضاء الدقيق العادل.

أما «الفرق» فاستعماله فى مثل هذا المقام، من الفصل بين المؤمنين والكفار، فيه معنى من الشدة ـ وقد رأينا أنه حين انتقل من الوادى الحسى إلى الوادى المعنوى استعمل كثيرًا فى معنى الفزع وذهاب النفس أباديد ـ ولهذا جاء فى كلام موسى لربه ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّى لا أَمْلِكُ إِلاَّ نَفْسِى وَأَخِى فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ﴾ (المائدة: ٢٥).

وورد التنزيل فى آيتين، إحداهما فى شأن الكفار وما يعبدون يوم القيامة، والآخر فى شأن كفار مكة ومؤمنيها. ومعنى التمييز بين الشكلين المتداخلين واضح فى الموضعين؛ والتداخل والتزييل فى الموضعين حسيان ﴿وَلَوْلا رِجَالٌ مُؤْمِنُونَ وَنِسَاءٌ مُؤْمِنَاتٌ لَمْ تَعْلَمُوهُمْ أَنْ تَطَئُوهُمْ فَتُصِيبَكُمْ مِنْهُمْ مَعَرَّةٌ بِغَيْرِ عِلْمٍ لِيُدْخِلَ اللَّهُ فِى رَحْمَتِهِ مَنْ يَشَاءُ لَوْ تَزَيَّلُوا لَعَذَّبْنَا الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَاباً أَلِيماً﴾ (الفتح: ٢٥). ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ﴾ (يونس: ٢٨).

وورد ذكر «يوم الحساب» فى أربعة مواضع من القرآن الكريم: ﴿وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (ص: ١٦)، ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ﴾ (ص: ٢٦)، ﴿هَذَا مَا تُوعَدُونَ لِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (ص: ٥٣)، ﴿وَقَالَ مُوسَى إِنِّى عُذْتُ بِرَبِّى وَرَبِّكُمْ مِنْ كُلِّ مُتَكَبِّرٍ لا يُؤْمِنُ بِيَوْمِ الْحِسَابِ﴾ (غافر: ٢٧).

والحساب اسم مصدر من حاسب يحاسب، وأصله الحساب فى المعاملات، أخذ من حسب يحسب حسبًا وحسابًا بمعنى عد، أو بمعنى قدّر، فالحساب يدخل فى معناه العد والتقدير معًا؛ ولهذا عرفه الراغب بأنه استعمال العدد، وجاء من معانيه الحساب الشىء الكافى والشىء الكثير، وكفاية الشىء إعطاؤه قدره. وكلام اللغويين فى هذه المادة يشعر باختلافهم فى تحديد أى المعنيين أصل للآخر. فالأزهرى ينقل عنه صاحب اللسان هذا القول: «إنما سمى الحساب فى المعاملات حسابًا؛ لأنه يعلم به ما فيه كفاية ليس فيه زيادة على المقدار»، فكأنه جعل معنى التقدير أصلاً لمعنى العد. وجعل الزبيدى وصاحب القاموس الأصل هو العد؛ قال الزبيدى: «والمعدود محسوب، يستعمل على أصله وعلى حسب محركه، وهو فعل بمعنى مفعول، مثل نفض بمعنى منفوض. ومنه قولهم ليكن عملك بحسب ذلك أى على قدره وعدده».

وقد ورد المصدر مع الفعل فى آيتين: (الطلاق: ٨) ﴿وَكَأَيِّنْ مِنْ قَرْيَةٍ عَتَتْ عَنْ أَمْرِ رَبِّهَا وَرُسُلِهِ فَحَاسَبْنَاهَا حِسَاباً شَدِيداً﴾، و(الانشقاق: ٨) ﴿فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً﴾. ولعل وصف الحساب بالشدة مرة واليسر مرة، مما يؤيد أنه يدخل فى معناه العدد والتقدير معًا، فالعد ذاته لا يكون شديدًا ولا يسيرًا؛ إنما يوصف بالشدة أو اليسر إذا كان فيه تقدير لحالة المحاسب وما يستحقه من جزاء.

وسمى يوم القيامة «يوم البعث» مرتين فى موضع واحد (الروم: ٥٦). وأصل معنى البعث الإثارة، ويغلب أن تكون إثارة بعد سكون، وأن يكون فى هذه الإثارة نوع من التوجيه: بعث الناقة أثارها، وبعثه من نومه أهبّه،والبعث ويحرك الجيش، وتبعث منى الشعر انبعث كأنه سال. وقد فرق الراغب بين البعث والإرسال، فقال: «أصل البعث إثارة الشىء وتوجيهه» وقال «أصل الرسل الانبعاث على التؤدة، يُقال ناقة رسلة سهلة السير، وإبل مراسيل منبعثة انبعاثًا سهلاً، ومنه الرسول المنبعث. وتصور منه تارة الرفق فقيل على رسلك إذا أمرته بالرفق، وتارة الانبعاث فاشتق منه الرسول».

فالإرسال فيه معنى السهولة، والبعث فيه معنى القوة؛ وكأن فيه أيضًا معنى من الحركة العنيفة التى تكون من المبعوث، لا مجرد الانقياد والطاعة لأمر

الباعث. وقد ورد هذا الفعل فى اثنين وخمسين موضعًا فى القرآن الكريم، وهو فى جميعها واقع على أحياء يجوز لنا أن نتوقع منها هذا الحركة العنيفة، فهم أنبياء (كما فى البقرة: ٢١٣، وآل عمران: ١٦٤، والأعراف: ١٠٣، والإسراء: ٩٤، والفرقان: ٤١، والجمعة: ٢ ....) أو ملوك ورؤساء (كما فى البقرة: ٢٤٧، والمائدة: ١٢ ...) أو عباد أولو بأس (الإسراء: ٥). وقد يدل السياق دلالة واضحة على هذه الحركة العنيفة **﴿فَبَعَثَ اللَّهُ غُرَاباً يَبْحَثُ فِي الأَرْضِ﴾** (المائدة: ٣١)، **﴿وَكَذَلِكَ بَعَثْنَاهُمْ لِيَتَسَاءَلُوا بَيْنَهُمْ﴾** (الكهف: ١٩)، **﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكَ لَيَبْعَثَنَّ عَلَيْهِمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ مَنْ يَسُومُهُمْ سُوءَ الْعَذَابِ﴾** (الأعراف: ١٦٧).

ولم يأت الفعل «بعث» واقعًا على غير حى إلا فى آية واحدة **﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَى أَنْ يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَاباً مِنْ فَوْقِكُمْ﴾** (الأنعام: ٦٥)؛ لما كان المراد فى الآية إظهار القدرة عبّر بالبعث لما فيه من معنى القوة؛ أما إذا كان المعنى المراد بيانه بسهولة الأمر عليه تعالى فثمة الإرسال: **﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَنْ يَشَاءُ﴾** (الرعد: ١٣)، **﴿أَفَأَمِنتُمْ أَنْ يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ الْبَرِّ أَوْ يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِباً﴾** (الإسراء: ٦٨)...

وجاء «انبعث» من البعث فى موضع واحد، وهو يدل كذلك على هذه الحركة العنيفة، فهو مسند إلى أشقى بنى ثمود الذى عقر الناقة **﴿إِذْ انْبَعَثَ أَشْقَاهَا﴾** (الشمس: ١٢)، وقد جاء الفعل «بعث» فى بعث يوم القيامة فى واحد وعشرين موضعًا (الأنعام: ٣٦، والأعراف: ١٤، والحجر: ٣٦، والنحل: ٢١ و٣٨ و٨٤ و٨٩، ومرم: ١٥ و٣٣، والحج: ٧، والمؤمنون: ١٦ و١٠٠، والشعراء: ٨٧، والنمل: ٦٥ ويس: ٥٢، والصافات: ١٤٤، وص: ٧٩، والمجادلة: ٦ و ١٨، والتغابن: ٧ ـ مرتين). وجاء المصدر فى أربعة مواضع (الحج: ٥، والروم: ٥٦ ـ مرتين ـ ولقمان: ٢٨)؛ واسم المفعول فى تسعة مواضع (الأنعام: ٢٩، وهود: ٧، والإسراء: ٤٩ و٩٨، والمؤمنون: ٣٧ و ٨٢، والصافات: ١٦، والواقعة: ٤٧، والمطففين: ٤)، والسياق فى هذه المواضع التسعة حكاية لتعجب الكفار من أمر البعث واستجهال لهم لذلك، كأنهم صعب عليهم أن يؤمنوا بأن تدب فيهم الحياة والحركة ثانية بعد أن يموتوا ويصبحوا ترابًا وعظامًا.

وكذلك جاءت آية (الروم: ٥٦) وهى التى ورد فيها «يوم البعث» فى الرد على الكفار: ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾.

ووردت تسمية الساعة ﴿**الواقعة**﴾ (الواقعة: ١ والحاقة: ١٥)، و﴿**الحاقة**﴾ (الحاقة١ ـ ٣) و﴿**القارعة**﴾ (الحاقة: ٤، والقارعة: ١ ـ ٣)، و﴿**الصاخة**﴾ (عبس: ٣٣)، و﴿**الغاشية**﴾ (الغاشية: ١).

ويلاحظ أن هذه الأسماء جميعها هى من قبيل الكنايات، وهى أوصاف عامة عرفت بالألف واللام إشارة إلى أن مفهومها لا يتحقق على وجه الكمال إلا فى ذلك الموصوف. وهى جميعها قد وردت فى سور مكية، وأربع منها جاءت فى أوائل هذه السور. فاستعمال هذه الأسماء يناسب ما فى طبيعة اللغة العربية من التوسع فى تسمية الشىء الواحد بأسماء متعددة، وأخذ الأسماء من الصفات، كتسميتهم السيف بالحسام والمهند والمشرفى وتسميتهم الأسد بالهراس والخطار والحطام والباسل والأصيد. وهذه الأسماء التى تحمل معانى الصفات هى من أشد الكلمات إثارة للوجدان والخيال معًا. فأما إثارتها للوجدان فلأنها صريحة فى بيان الصفة التى تهز النفس من الشىء، وأما إثارتها للخيال فلأنها مع تحدد مفهومها ووضوحه يرتبط هذا المفهوم بآلاف الأشياء التى يمكن أن تتصف به. وعلى قدر ما يرتبط الشىء بغيره كثرة وعمقًا يكون ما يوحيه من المعانى كثرة وعمقًا كذلك. وما يصدق على الأشياء يصدق على رموزها الصوتية وهى الكلمات، فإذا استعمل اللفظ المفعم بألوان الإيحاء اسمًا لشىء بعينه، فكأنما جمعت هذه الصور المختزنة فى الذهن كلها حول شىء واحد، فالخيال يتعلق بأيها شاء، أو يسبح بينها جميعًا.

ووردت تسمية يوم القيامة ﴿**يوم التغابن**﴾ فى آية (التغابن: ٩): ﴿**يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ**﴾، والتغابن من الغبن وأصله ستر الشىء يكره ظهوره، واستعير للغش فى البيع والتجارة بإخفاء شىء عن البائع أو المشترى، فالغابن يسكب والمغبون يخسر، ومن هذا جاء الغبن فى القسمة السيئة كما فى البيت الذى أورده صاحب اللسان:

أجــول فــى الــدار لا أراك وفى الـدار أنـاس جـوارهم غـبن

وقد فسر الطبرى يوم التغابن بأنه «يوم غبن أهل الجنة أهل النار». وقال الزمخشرى: «التغابن مستعار من تغبن القوم فى التجارة وهو أن يغبن بعضهم بعضًا لنزول السعداء منازل الأشقياء التى كانوا ينزلونها لو كانوا سعداء، ونزول الأشقياء منازل السعداء التى ينزلونها لو كانوا أشقياء». وفى المعنيين نظر، لأن المفاعلة غير واضحة فى كلمة التغابن على تفسير الطبرى، وفى تفسير الزمخشرى بعد وتكلف. ويبدو أن المراد أنه اليوم الذى يتغابن فيه الكفار، فهم فريقان يقول لولا أنتم لكنا مؤمنين. فهو يخفى زيفه الذى أدى به إلى الكفر ظنًا منه أن ذلك ينجيه أو يخفف عنه العذاب ويجعله مضاعفًا لمن ضل وأضل؛ وفريق يتبرأ من الفريق الأول ﴿إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوُا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الأَسْبَابُ﴾ (البقرة: ١٦٦)؛ فأئمة الشرك أيضًا يخفون إضلالهم الكفار، ويزعمون أنهم كانوا غافلين عن عبادتهم، ليفلتوا من نصيبهم من ذنوبهم، ويتركوه على كواهلهم وحدهم. هذا ما بدا لى فى معنى التغابن والله أعلم.

- ٢ -

النفخ فى الصور

ورد النفخ فى الصور فى عشرة مواضع من القرآن الكريم: ﴿قَوْلُهُ الْحَقُّ وَلَهُ الْمُلْكُ يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ﴾ (الأنعام: ٧٣)، ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً﴾ الكهف: ٩٩)، ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً﴾ (طه: ١٠٢)، ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلا أَنسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلا يَتَسَاءَلُونَ﴾ (المؤمنون: ١٠١)، ﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ﴾ (النمل: ٨٧)، ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾ (يس: ٥١)، ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ﴾ (الزمر: ٦٨)، ﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ﴾ (ق: ٢٠)، ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ﴾ (الحاقة: ١٣)، ﴿يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً﴾ (النبأ: ١٨).

وأكثر المفسرين على أن الصور هو القرن ينفخ فيه. وكذلك ورد الصور فى اللغة، وعليه الراجز:

لقد نطحناهم غداة الجمعين   نطحاً شديداً لا كنطح الصورين

وأصل معنى المادة هو القطع. ومن معنى القطع أيضًا جاءت الصورة وهى الشكل، لأن التشكيل فيه قطع، كما أخذ القد ـ قامة الرجل ـ من القد بمعنى القطع طولاً.

وروى صاحب اللسان قولاً عن أبى الهيثم فى الصور: «اعترض قوم فأنكروا أن يكون الصور قرنًا، كما أنكروا العرش والميزان والصراط، وادعوا أن الصور جمع الصورة كما أن الصوف جمع الصوفة والثوم جمع الثومة، ورووا ذلك عن أبى عبيدة. (قال أبو الهيثم) وهذا خطأ فاحش وتحريف لكلمات الله ـ عز وجل ـ عن مواضعها، لأن الله ـ عز وجل ـ قال: ﴿**وصوركم فأحسن صوركم**﴾ ففتح الواو، (قال) ولا نعلم أحدًا من القراء قرأها فأحسن صوركم، وكذلك قال ونفخ الصور. فمن قرأ ونفخ فى الصوَر أو قرأ فأحسن صوركم فقد افترى الكذب وبدل كتاب الله. وكان أبو عبيدة صاحب أخبار وغريب، ولم يكن له معرفة بالنحو. قال الفراء: كل جمع على لفظ الواحد الذكر سبق جمعه واحدته فواحدته بزيادة هاء فيه، وذلك مثل الصوف والوبر والشعر والقطن والعشب؛ فكل واحد من هذه الأسماء اسم لجميع جنسه، فإذا أفردت زيدت فيه هاء، لأن جميع هذا الباب سبق واحدته؛ ولو أن الصوفة كانت سابقة الصوف لقالوا صوفة وصوف وبسرة وبسر كما قالوا غرفة وغرف وزلفة وزلف. وأما الصور القرن فهو واحد، لا يجوز أن يقال واحدته صورة، وإنما نجمع صورة الإنسان صورًا لأن واحدته سبقت جمعه».

وقد كانت مسألة الفرق بين جمع التكسير واسم الجنس الجمعى موضوع خلاف بين النحاة امتد عصورًا فى حياة الدراسة اللغوية، ونجد خلاصته فيما رواه صاحب اللسان فى مادة «سور» بعد أن نقل خلافًا فى كون السورة من سور البناء كالخلاف السابق فى كون الصور جمع صورة: «قال أبو منصور البصريون جمعوا الصورة والسورة وما أشبهها سورًا وسورًا وصورًا، ولم يميزوا بين

ما سبق جمعه وحدانه وما سبق وحدانه جمعه. (قال) والذى حكاه أبو الهيثم هو قول الكوفيين: «[ويعرض سيبويه فى الكتاب (جـ٢ ص ١٨٣) لهذا الصنف من الكلمات فيترجم له لقوله: «هذا باب ما كان واحدا يقع للجميع ويكون واحدة على بنائه من لفظه إلا أنه مؤنث تلحقه هاء التأنيث ليتبين الواحد من الجميع». ويقول فى هذا الباب: «فإذا أردت أدنى العدد جمعت الواحد بالتاء، وإذا أردت الكثير صرت إلى الاسم الذى يقع على الجميع، ولم تكسر الواحد على بناء آخر». فاسم الجنس عنده نوع من جمع التكسير يراد به الكثير... ثم تتمخض المسألة، وينتهى الخلاف، بأن اسم الجنس «ليس موضوعًا للجمع... بل هو لمجرد الماهية، سواء كان مع القلة أو الكثرة. (ابن الحاجب)][١].

فاسم الجنس إذا لا يدل على الجمع، كما يدل عليه جمع التكسير، بل هو لمجرد الماهية، وهو خاص بما سبق جمعه وحدانه، فلا يجوز أن يكسر المفرد على صيغة اسم الجنس للدلالة على الكثير؛ والصورة لا تجمع صورًا، وإذا نقل صاحب اللسان هذا الجمع فهو بناء على رأى الكوفيين، وقد رأينا خطأه. والصور إذا هو القرن ينفخ فيه كما قال المفسرون.

ومما يؤيد كون الصور بمعنى القرآن آية (المدثر: ٨) ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى النَّاقُورِ فَذَلِكَ يَوْمَئِذٍ يَوْمٌ عَسِيرٌ﴾ «فالناقور فاعول من النقر[٢]. والنقر ـ كما جاء فى اللسان ـ «أن يضع لسانه فوق ثناياه مما يلى الحنك ثم ينقر... وقد نقر بالدابة نقرًا، وهو صويت يزعجه. وفى الصحاح: نقر بالفرس. قال عبيد بن ماوية الطائى:

أنا ابن ماوية إذ جد النقر   وجاءت الخيل أثابى زمر

أراد النقر بالخيل فلما وقف نقل حركة الراء إلى القاف، وهى لغة لبعض العرب.

---

(١) تتبع هذا الخلاف ووصف هذا التطور ملخص من محاضرات أستاذنا أمين الخولى التى ألقاها فى كلية الآداب سنة ١٩٣٩ عن «جدل القرآن عن نفسه» عند بحث كلمة سورة.

(٢) يقول بروكلمان فى كتاب النحو المقارف للغات السامية (ص ٢٤٢) إن وزن فاعول لا يوجد فى العربية إلا فى بعض صيغ قليلة أصلية فى العربية مثل: عافور (وقع فى عافور شر: عاثوره) وراحول؛ أى ما يستصحب من الأثاث.

فالنقر إذًا ـ كما يظهر من شاهد اللسان ـ صوت تنفر به الدواب والخيل، وقد كنى به عن الحرب. والناقور آلة تحدث صوتًا يشبه النقر. على أن صاحب اللسان حين ينقل عن المفسرين يقول: «والناقور الصور الذى ينقر فيه الملك أى ينفخ، وقوله تعالى ﴿فَإِذَا نُقِرَ فِى النَّاقُورِ﴾ قيل الناقور الصور الذى ينفخ فيه للحشر، أى نفخ فى الصور».

وقد لاحظ بعض المفسرين اختلاف معنى النقر عن معنى النفخ، فكان تعليلهم لذلك الاختلاف عجيبًا... ونحن ننقل هذا القول عن النيسابورى. قال: «وقد يلوح من كلام الإمام فخر الدين الرازى فى التفسير الكبير أن النقر غير النفخ، وهكذا من كلام الحليمى فى كتاب المنهاج؛ وذلك أنه قال: جاء فى الأخبار أن فى الصور ثقوبًا بعدد الأرواح كلها، فإذا نفخ فيه للإحياء لم ينقر فيه واقتصر على النفخ، لأن المراد إرسال الأرواح من ثقب الصور إلى أجسادها. ويظهر من فحوى كلامه أنه حمل هذا النقر على أنه مقرون بالنفخة الأولى بعد أثبت المغايرة».

والظاهر لنا أن النفخ والنقر ـ مع اختلاف معنيهما فى الأصل ـ كلاهما تعبير عن اشتداد الهول يوم القيامة. وقد وردت «**الصيحة**» بهذا المعنى أيضًا فى أربعة مواضع من القرآن الكريم: (يس: ٤٩): **﴿مَا يَنظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ﴾**، و(يس: ٥٣): **﴿إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾**، و(ص: ١٥): **﴿إِنْ كُلٌّ إِلاَّ كَذَّبَ الرُّسُلَ فَحَقَّ عِقَابِ وَمَا يَنظُرُ هَؤُلاءِ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً مَا لَهَا مِنْ فَوَاقٍ﴾**، و(ق: ٤٢): **﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾**، وقد فسرها المفسرون فى هذه المواضع «**بالنفخة**» وذهبوا يفصلون القول هل المراد نفخة الفزع أم نفخة الصعق أم نفخة القيام لرب العالمين. وعندى أن تفسيرها بأنها كناية عن الهول الشديد أولى؛ لأن تفسيرها بالنفخ فى الصور خروج اللفظ عن معناه فى غير مسوغ وتفسيرها بأنها كناية عن الهول الشديد يتفق مع ما جاء فى كتب اللغة من أنه يقال «صيح فى آل فلان» إذا هلكوا، والصيحة الغارة إذا فوجئ الحى بها، ويقال ما ينظرون إلا مثل صيحة الحبلى أى شرا سيعاجلهم... وهو تفسير يتفق

به معنى الصيحة فى هذه الآيات مع أصل معناه اللغوى، ومع استعمالها فى القرآن فى مواضع عدة بمعنى الهول والعذاب اللذين ينزلان بالأمم المكذبة (هود: ٦٧ و٩٤، والحجر: ٧٣ و٨٣، والمؤمنون: ٤١، والعنكبوت: ٤٠، ويس: ٢٩، والقمر: ٣١). وجلى أن يوم القيامة، وإن كان هولاً كله، ففيه أوقات يشتد عندها الفزع، ويتراخى بينها الهول.

- ٣ -

وصف خراب الدنيا إيذانًا بيوم الدين

جاء وصف خراب الدنيا إيذانًا بالقيامة والحساب فى هذه الآيات:

(البقرة: ٢١٠): **﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ أَنْ يَأْتِيَهُمْ اللَّهُ فِى ظُلَلٍ مِنْ الْغَمَامِ وَالْمَلائِكَةُ وَقُضِىَ الأَمْرُ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾**.

(إبراهيم: ٤٨): **﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ وَبَرَزُوا لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾**.

(الكهف: ٤٧): **﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً﴾**.

(الكهف: ٩٩): **﴿وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً﴾**.

(طه: ١٠٥ ـ ١٠٧): **﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفاً فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً لا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً﴾**.

(الأنبياء: ٩٦ ـ ٩٧): **﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ (٩٦) وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِىَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾**.

(الأنبياء: ١٠٤): **﴿يَوْمَ نَطْوِى السَّمَاءَ كَطَىِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ كَمَا بَدَأْنَا أَوَّلَ خَلْقٍ نُعِيدُهُ وَعْداً عَلَيْنَا إِنَّا كُنَّا فَاعِلِينَ﴾**.

(الحج: ١ ـ ٢): ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾.

(النمل: ٨٢): ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ﴾.

(النمل: ٨٨): ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ صُنْعَ اللَّهِ الَّذِي أَتْقَنَ كُلَّ شَيْءٍ إِنَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَفْعَلُونَ﴾.

(الطور: ٩ ـ ١٠): ﴿يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً﴾.

(الرحمن: ٣٧): ﴿فَإِذَا انشَقَّتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾.

(الواقعة: ١ ـ ٦): ﴿إِذَا وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ لَيْسَ لِوَقْعَتِهَا كَاذِبَةٌ خَافِضَةٌ رَافِعَةٌ إِذَا رُجَّتْ الأَرْضُ رَجّاً وَبُسَّتْ الْجِبَالُ بَسّاً فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً﴾.

(الحاقة: ١٣ ـ ١٧): ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ نَفْخَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) وَحُمِلَتْ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً (١٤) فَيَوْمَئِذٍ وَقَعَتْ الْوَاقِعَةُ (١٥) وَانشَقَّتْ السَّمَاءُ فَهِيَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ (١٦) وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ﴾.

(المعارج : ٨ ـ ١٠): ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ (٨) وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ (٩) وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً﴾.

(المزمل: ١٤): ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً﴾.

(المزمل: ١٧ ـ ١٨): ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً، السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً﴾.

(القيامة: ٧ ـ ١٠): ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾.

(المرسلات: ٨ ـ ١٠): ﴿فَإِذَا النُّجُومُ طُمِسَتْ وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾.

(النبأ: ١٩ ـ ٢٠): ﴿وَفُتِحَتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً وَسُيِّرَتْ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً﴾.

(النازعات: ٦ ـ ٩): ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ، تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ، قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ، أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾.

(التكوير: ١ ـ ١٤): ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ. وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ. وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ. وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ. وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ. وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ. وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ. وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ. بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ. وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ. وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ. وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ. وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ. عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾.

(الانفطار: ١ ـ ٥): ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ. وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ. وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ. وَإِذَا الْقُبُورُ بُعْثِرَتْ. عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا قَدَّمَتْ وَأَخَّرَتْ﴾.

(الانشقاق: ١ ـ ٥): ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ. وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ. وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ. وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ. وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾.

(الفجر: ٢١ ـ ٢٣): ﴿كَلاَّ إِذَا دُكَّتْ الأَرْضُ دَكّاً دَكّاً. وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً. وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾.

(الزلزلة: ١ ـ ٥): ﴿إِذَا زُلْزِلَتْ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا. وَأَخْرَجَتْ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا. وَقَالَ الإِنسَانُ مَا لَهَا. يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا. بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾.

وصف ما يحدث للأرض يوم القيامة فى (إبراهيم: ٤٨) ﴿يَوْمَ تُبَدَّلُ الأَرْضُ غَيْرَ الأَرْضِ وَالسَّمَوَاتُ﴾، و(الكهف: ٤٧) ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً﴾، و(طه: ١٠٥ ـ ١٠٧) ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنْ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّى نَسْفاً فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً لا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً﴾ و(الواقعة: ٤) ﴿إِذَا رُجَّتْ الأَرْضُ رَجّاً﴾»، و(الحاقة: ١٤) ﴿وَحُمِلَتْ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾، و(المزمل: ١٤) ﴿يَوْمَ

تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً﴾، و(الانشقاق: ٢ ـ ٥) **﴿وَإِذَا الأَرْضُ مُدَّتْ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾**، و(الفجر: ٢١) **﴿كَلاَّ إِذَا دُكَّتْ الأَرْضُ دَكّاً دَكّاً﴾**، و(الزلزلة: ١ ـ ٢) **﴿إِذَا زُلْزِلَتْ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا وَأَخْرَجَتْ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾**.

وكل ذلك يمثل لنا حركة عنيفة شاملة تسرى فى الشىء. أما الرج فكأنه يمثل لنا اهتزازًا مستمرًا منتظمًا يشمل الشىء ظاهره وباطنه، ولهذا قالوا ناقة رجاء عظيمة السنام مرتجته، وكتيبة رجراجة. وأما الزلزلة فهى زلل متكرر، كررت حروفه دلالة على تكرر معناه؛ والزلل حركة سقوط مفاجئة.

ولم يتكرر ورود هذه الأفعال ولا مشتقاتها فى القرآن بحيث نستطيع أن نتتبع هذه الفروق التى نحسها بين معانيها، ونرى هل فى القرآن ما يدل لها؟ غير أننا نجد هذه الفروق التى بدت لنا من الاستعمال اللغوى، يمكن فهمها فى غير تعسف من السياق القرآنى. ورد الفعل «ترجف» فى موضعين: (المزمل: ١٤) **﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً﴾**. و(النازعات: ٦) **﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الرَّاجِفَةُ. تَتْبَعُهَا الرَّادِفَةُ. قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ﴾**. والاسم «الرجفة» فى أربعة مواضع: (الأعراف: ٧٨ و٩١) **﴿فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾**. و(الأعراف: ١٥٥) **﴿فَلَمَّا أَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّاىَ﴾**. و(العنكبوت: ٣٧) **﴿فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَتْهُمْ الرَّجْفَةُ فَأَصْبَحُوا فِى دَارِهِمْ جَاثِمِينَ﴾**. ووردت المرجفون فى آية واحدة: (الأحزاب: ٦٠) **﴿لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ وَالْمُرْجِفُونَ فِى الْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ﴾**.

فالرجفة هزة عنيفة كتيار الكهرباء؛ ورجف الأرض (المزمل: ١٤) يذر الجبال ـ فى لمحة عين ـ كثيبًا مهيلا، ألا ترى أنه عطف على الفعل المضارع الفعل الماضى، كأنه يشير إلى قصر الزمن الذى يكون بين الرجفة وانهيال الجبال.

وورد الرج فى موضع واحد: **﴿إِذَا رُجَّتْ الأَرْضُ رَجّاً. وَبُسَّتْ الْجِبَالُ بَسّاً. فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً﴾**. (الواقعة: ٤ ـ ٦). وتفسيرنا الرج بأنه هز مستمر منتظم، يتسق

مع الآية، إذ عطف على هذه الجملة بس الجبال أى تفتيتها كالسويق. وهو عمل فيه تكرار وانتظام. فإذا انتهى هذا العمل المنتظم كانت الجبال كالدقيق بل كالهباء المتفرق.

أما الزلزلة فجاءت فى أربعة مواضع: ﴿... مَسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّى يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَى نَصْرُ اللَّهِ﴾. (البقرة: ٢١٤). ﴿هُنَالِكَ ابْتُلِيَ الْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا زِلْزَالاً شَدِيداً﴾ (الأحزاب: ١١). ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾ (الحج: ١). ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الأَرْضُ زِلْزَالَهَا﴾ (الزلزلة: ١). و(الزلزلة: ١). والزلزلة فى الموضعين الأولين تمثيل لحالة المؤمنين فى ساعة الشدة وقد أحدقت بهم المخاطر وأزعجتهم إزعاجًا شديدًا وهم يتثبتون ويتجلدون. وهى فى الموضعين الآخرين زلزلة الأرض الصلبة الثابتة تتخسف بما عليها مرة بعد مرة. ولعل الآية التالية من (سورة الزلزلة: ٢) ﴿وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا﴾ تتمة لهذه الصورة يكمل بها الاندكاك والبروز والتخلى. فكلما ابتلعت الأرض شيئًا قذفت من باطنها بشىء. حتى تنخسف وتصير دكاء، منبسطة، ممدودة، خالية.

وورد ذكر ما يحدث للجبال عند الرجفة فى (الكهف: ٤٧) ﴿وَيَوْمَ نُسَيِّرُ الْجِبَالَ وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً﴾، و(طه: ١٠٥ ـ ١٠٧) ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الْجِبَالِ فَقُلْ يَنسِفُهَا رَبِّي نَسْفاً. فَيَذَرُهَا قَاعاً صَفْصَفاً. لا تَرَى فِيهَا عِوَجاً وَلا أَمْتاً﴾، و(النمل: ٨٨) ﴿وَتَرَى الْجِبَالَ تَحْسَبُهَا جَامِدَةً وَهِيَ تَمُرُّ مَرَّ السَّحَابِ﴾، و(الطور: ١٠) ﴿وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْراً﴾، و(الواقعة: ٥ ـ ٦) ﴿وَبُسَّتِ الْجِبَالُ بَسّاً. فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثّاً﴾، و(الحاقة: ١٤) ﴿وَحُمِلَتِ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً﴾، و(المعارج: ٩) ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ﴾، و(المزمل: ١٤) ﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتِ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً﴾، و(المرسلات: ١٠) ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ نُسِفَتْ﴾، و(النبأ: ٢٠) ﴿وَسُيِّرَتِ الْجِبَالُ فَكَانَتْ سَرَاباً﴾، و(التكوير: ٣) ﴿وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ﴾، و(القارعة: ٥) ﴿وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾.

فأسند إلى الجبال: التسيير، والمر، والنسف (اقتلاع الشىء من أصله) ووصفت بكونها كالصوف المصبوغ ألوانًا، وكالرمل المجتمع حين يحرك أسفله فينهال من أعلاه. وشبهت فى سرعة مرها بالسحاب وبالسراب. وليس من همنا فى هذا الباب أن نبحث عن طريقة استخدام هذه الصور المختلفة المؤتلفة، ولكننا نكتفى بالإشارة إلى التقابل بين معانيها وبين ما وصفت به الجبال فى القرآن فى مقام التذكير بنعم الله. قال تعالى: ﴿**وَالْجِبَالَ أَرْسَاهَا**﴾ (النازعات: ٣٢) وكنى عنها بالرواسى: ﴿**وَجَعَلْنَا فِى الأَرْضِ رَوَاسِىَ أَنْ تَمِيدَ بِهِمْ**﴾ (الأنبياء: ٣١)، والتسيير ضد الإرساء. وقال تعالى: ﴿**وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ**﴾ (فاطر: ٢٧)، فوصفت بأنها كالطرق الظاهرة (ولا شك أن هذه الطرق تختلف ألوانها، فى بيئة صحراوية، بين البياض والحمرة)، وبأنها مختلفة الألوان؛ فلما لوحظ اللون فى آية الرجفة وصفت بأنها كالعهن وهو الصوف المصبوغ. وقال تعالى: ﴿**أَلَمْ نَجْعَلْ الأَرْضَ مِهَاداً. وَالْجِبَالَ أَوْتَاداً**﴾ (النبأ: ٦ ـ ٧) فشبهت بالأوتاد لثباتها فى الأرض، فإذا أريد وصفها عند الرجفة قيل إنها تنسف أى تقتلع من أصولها. وقال تعالى: ﴿**أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ. وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ**﴾ (الغاشية: ١٧ ـ ١٩)، فوصف شخوصها وارتفاعها؛ فإذا وصف الرجفة وصفها بالاندكاك والاستواء ﴿**وَحُمِلَتْ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ فَدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً**﴾ (الحاقة: ١٤)، ووصفها بالتفرق والانبثاث ﴿**وَبُسَّتْ الْجِبَالُ بَسّاً فَكَانَتْ هَبَاءً مُنْبَثاً**﴾ (الواقعة: ٥، ٦).

ووصف ما يحدث للسماء فى هذه الآيات: (الأنبياء: ١٠٤) ﴿**يَوْمَ نَطْوِى السَّمَاءَ كَطَىِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ**﴾ و(الفرقان: ٢٥) ﴿**وَيَوْمَ تَشَقَّقُ السَّمَاءُ بِالْغَمَامِ وَنُزِّلَ الْمَلائِكَةُ تَنْزِيلاً**﴾، و(الدخان: ١٠) ﴿**فَارْتَقِبْ يَوْمَ تَأْتِى السَّمَاءُ بِدُخَانٍ مُبِينٍ. يَغْشَى النَّاسَ هَذَا عَذَابٌ أَلِيمٌ**﴾، و(الطور: ٩) ﴿**يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْراً**﴾، و(الرحمن: ٣٧) ﴿**فَإِذَا انْشَقَّتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ**﴾، و(الحاقة: ١٦ ـ ١٧) ﴿**وَانْشَقَّتْ السَّمَاءُ فَهِىَ يَوْمَئِذٍ وَاهِيَةٌ. وَالْمَلَكُ عَلَى أَرْجَائِهَا وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ**﴾، و(المعارج: ٨) ﴿**يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ**﴾، و(المزمل: ١٨) ﴿**السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً**﴾، و(المرسلات: ٩) ﴿**وَإِذَا السَّمَاءُ فُرِجَتْ**﴾، و(النبأ: ١٩) ﴿**وَفُتِحَتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ أَبْوَاباً**﴾،

و(التكوير: ١ ـ ٢) ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ. وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ﴾، و(التكوير: ١١) ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾، و(الانفطار: ١ ـ ٢) ﴿إِذَا السَّمَاءُ انفَطَرَتْ. وَإِذَا الْكَوَاكِبُ انتَثَرَتْ﴾، و(الانشقاق: ١ ـ ٢) ﴿إِذَا السَّمَاءُ انشَقَّتْ. وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾.

هذه ثلاثة عشر موضعًا، عشرة منها أسند فيها الانشقاق أو ما فى معناه إلى السماء يوم القيامة؛ وهنا أيضًا نجد المقابلة واضحة بين ما يحدث للسماء يوم القيامة، وبين حالها فى الدنيا، كما وصفهما القرآن جاء فى خلق السموات: ﴿الَّذِى جَعَلَ لَكُمْ الأَرْضَ فِرَاشاً وَالسَّمَاءَ بِنَاءً﴾ (البقرة: ٢٢) ﴿ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ فَسَوَّاهُنَّ سَبْعَ سَمَاوَاتٍ﴾ (البقرة: ٢٩). ﴿وَجَعَلْنَا السَّمَاءَ سَقْفاً مَحْفُوظاً وَهُمْ عَنْ آيَاتِهَا مُعْرِضُونَ﴾ (الأنبياء: ٣٢). ﴿وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَنْ تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلاَّ بِإِذْنِهِ﴾ (الحج: ٦٥). ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ (ق: ٦).

كما وصفت السماء بأوصاف تدل على بشاعة المنظر: ﴿فَإِذَا انشَقَّتْ السَّمَاءُ فَكَانَتْ وَرْدَةً كَالدِّهَانِ﴾ (الرحمن: ٣٧). ﴿يَوْمَ تَكُونُ السَّمَاءُ كَالْمُهْلِ﴾ (المعارج: ٨)؛ ووصفت بالزينة فى مقام التحدث عن بديع صنع الله: ﴿وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِى السَّمَاءِ بُرُوجاً وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ﴾ (الحجر: ١٦). ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ﴾ (الصافات: ٦). ﴿وَزَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ﴾ (فصلت: ١٢)...

ونجد هذه المقابلة نفسها واضحة فى ذكر الشمس والقمر (القيامة: ٧ ـ ٩) ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ. وَخَسَفَ الْقَمَرُ. وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ﴾؛ لا يغيب عنك تقابل هذا المعنى بما جاء فى القرآن الكريم من جعل الشمس والقمر ضياء، وتسخيرهما يجريان فى نظام دقيق: ﴿هُوَ الَّذِى جَعَلَ الشَّمْسَ ضِيَاءً وَالْقَمَرَ نُوراً﴾ (يونس: ٥). ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لأَجَلٍ مُسَمًّى﴾ (الرعد: ٢). ﴿لا الشَّمْسُ يَنْبَغِى لَهَا أَنْ تُدْرِكَ الْقَمَرَ وَلا اللَّيْلُ سَابِقُ النَّهَارِ﴾ (يس: ٤٠). ﴿الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ بِحُسْبَانٍ﴾ (الرحمن: ٥)...

وورد ما يحدث للبحار يوم القيامة فى آيتين: (التكوير: ٦) ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ﴾، و(الانفطار: ٣) ﴿وَإِذَا الْبِحَارُ فُجِّرَتْ﴾ واختلف فى تفسير قوله «سجرت» فقيل معناها اشتعلت نارًا وحميت، وقيل معناها فاضت. والسجر فيه المعنيان لغة: سجر التنور أحماه، وسجر النهر ملأه. والراجح عندنا أن يكون أصل المعنى الحسى هو ما يلاحظ فى لهب النار من صفاء واسترسال، لوحظ معنى الاسترسال فأطلق على الماء الكثير، ولوحظ معنى الصفاء فقيل السجير الخليل الصفى، ولوحظ المعنيان معًا فقيل لؤلؤ مسجور أى منظوم مسترسل. وقد استعمل السجر: معنى الإحماء فى وصف أهل النار ﴿إِذْ الأَغْلالُ فِى أَعْنَاقِهِمْ وَالسَّلاسِلُ يُسْحَبُونَ. فِى الْحَمِيمِ ثُمَّ فِى النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ (غافر: ٧١ ـ ٧٢)، أسند الإحماء إليهم على سبيل المبالغة، إذ النار تحمى بهم على الحقيقة، كما قال تعالى ﴿وَقُودُهَا النَّاسُ وَالْحِجَارَةُ﴾ (البقرة: ٢٤)؛ ولكنهم جعلوا كالجزء من تلك النار، وكأن سجرها بهم سجر لهم فيها. وجاء السجر فى موضع آخر فى القسم بالبحر ﴿والبحر المسجور﴾ (الطور: ٦) ـ أى الممتلئ ـ ثم ورد فى هذه الآية ﴿وإذا البحار سجرت﴾ (الانفطار: ٣)، والتضعيف يفيد المبالغة والتكثير، فيكون التعبير بتسجير البحار عن ملئها حتى تفيض، تعبيرًا قريبًا إلى الأذهان، ويرجح هذا المعنى اتفاقه مع ما جاء فى آية الانفطار، وأن فيه مقابلة لما وصفت به البحار من إمساك مائها أن يفيض فيختلط بعضها ببعض، ﴿وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا﴾ (النمل: ٦١). ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ. بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لا يَبْغِيَانِ﴾ (الرحمن: ١٩ ـ ٢٠).

وجاء وصف ما يصيب الأحياء عند قيام الساعة فى هذه الآيات: (الكهف: ٩٨ ـ ٩٩) ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّى فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّى جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّى حَقًّا وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِى بَعْضٍ وَنُفِخَ فِى الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعًا﴾، و(الأنبياء: ٩٦ ـ ٩٧) ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِى غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾، و(الحج: ١، ٢) ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ

ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾، و(النمل: ٨٢) ﴿وَإِذَا وَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ أَخْرَجْنَا لَهُمْ دَابَّةً مِنَ الأَرْضِ تُكَلِّمُهُمْ أَنَّ النَّاسَ كَانُوا بِآيَاتِنَا لا يُوقِنُونَ﴾، و(المعارج: ١٠) ﴿وَلا يَسْأَلُ حَمِيمٌ حَمِيماً﴾، و(المزمل: ١٧) ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً﴾، و(القيامة: ٧ ـ ١٠) ﴿فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ (٧) وَخَسَفَ الْقَمَرُ. وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ. يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ﴾، و(النازعات: ٨ ـ ٩) ﴿قُلُوبٌ يَوْمَئِذٍ وَاجِفَةٌ. أَبْصَارُهَا خَاشِعَةٌ﴾، و(التكوير: ٤ ـ ٥) ﴿وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ. وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾، و(القارعة: ٤) ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ﴾.

وقد جاء ذكر **يأجوج ومأجوج** فى (الأنبياء: ٩٦) ﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾ كما وردت الإشارة إليهم فى (الكهف: ٩٨ ـ ٩٩) ﴿قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِنْ رَبِّي فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقّاً. وَتَرَكْنَا بَعْضَهُمْ يَوْمَئِذٍ يَمُوجُ فِي بَعْضٍ وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَجَمَعْنَاهُمْ جَمْعاً﴾. وقرئ **يأجوج ومأجوج** بغير همز، ويأجوج ومأجوج مهموزًا، ورجح الطبرى القراءة الأولى، وقال إن وزن يأجوج على هذه القراءة فاعول من يججت، ومأجوج فاعول من مججت، وإن وزن يأجوج على القراءة الثانية يفعول من أججت ومأجوج مفعول منه... وهو تمحل لا ضرورة له، إذ أن يأجوج ومأجوج علمان أعجميان، وقد منعا الصرف لذلك. وقد روى الطبرى وغيره فى شأن يأجوج ومأجوج أحاديث كثيرة. منها ما رواه الطبرى فى حديث طويل عن وهب بن منبه أنهم خلق من خلق الله وكثير منهم مشابه للإنس وهم أشباه البهائم يأكلون العشب، ويفترسون الدواب والوحوش كما تفترسها السباع، ويأكلون خشاش الأرض كلها من الحيات والعقارب وكل ذى روح مما خلق الله فى الأرض[1]. وما ذكره الزمخشرى فى تفسير آية الكهف: ٩٤ هو أقرب إلى التاريخ. فقال إنهما اسمان أعجميان، وقيل يأجوج من الترك ومأجوج من الجيل والديلم. قيل كانوا يأكلون الناس، وقيل كانوا

---

(١) تفسير الطبرى ـ الجزء السادس عشر. عند تفسير قوله «قالوا يا ذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون فى الأردن» (الكهف / ٩٤).

يخرجون أيام الربيع فلا يتركون شيئًا أخضر إلا أكلوه ولا يابسًا إلا احتملوه، وكانوا يلقون منهم قتلاً وأذى شديدًا.

وقد ورد اسما «جوج» و «مأجوج» فى بعض أسفار العهدين القديم الجديد. فورد فى سفر حزقيال ٣٨ : ٢ ذكر «جورج» «من مأجوج» «رئيس ردش ماشك وتوبال». وقيل فى تفسير هذا الاسم إنه يمثل القطعان الشمالية التى ستغزو آسيا الصغرى حين يستقر بنو إسرائيل فى مملكتهم مطمئنين. واختلف الشراح فى بيان أصل التسمية. فمنهم من جوز أن يكون «جوج» هو جاجى حاكم أرض ساخى، الذى ورد اسمه فى حوليات الملك **الأشورى اشور بانيبال**. ومنهم من قال إن الاسم العبرى مطابق لاسم الملك الليدى الذى يسميه الإغريق «جيج»، والذى يسمى فى النقوش المسمارية «جوجو»؛ ويقولون إن جيج كان أول ملك فى غرب آسيا الصغرى عرف للأشوريين. ومن ثم يجوزون أن يكون اسمه قد أصبح عند الأشوريين لقبًا يطلقونه على من خلفه من الملوك فى ذلك الصقع من الأرض. وبناء على هذا الرأى تكون مأجوج ـ أو أرض جوج، لأن «ما» معناها أرض اللغة الليدية ـ هى ليديا. على أن اسمى «جورج ومأجوج» قد وردا أيضًا فى رؤيا يوحنا اللاهونى (٢٠ : ٨) «ثم متى تمت الألف السنة يحل الشيطان من يجنه ويخرج ليضل الأمم الذين فى أربع زوايا الأرض جوج ومأجوج ليجمعهم للحرب». فجوج ومأجوج هنا اسما ثعبين. ويوسيفوس يجعل مأجوج هم الشيثيين، ولكن العلماء المحدثين يقولون إن اسم الشيثيين (Scythians) كان يستعمل استعمالاً غامضًا للدلالة على أى شعب شمالى لم يعرف عنه الكثير[1].

وهذه الأقوال، وإن لم تبين لنا أصل تسمية يأجوج ومأجوج، قد يؤخذ منها أن «يأجوج ومأجوج» أو «جوج ومأجوج» كانا يطلقان عند شعوب ذلك العهد إطلاقًا مبهمًا على قبائل الشمال المتبربرة. وهذا القول يتفق إجمالاً مع ما ذكره الزمخشرى. وربما كانت هذه التسمية المبهمة، مما يرجح أن ذكر يأجوج ومأجوج،

---

(١) كتاب «معجم الكتاب المقدس» لها ستنجس فى معانى «جوج ومأجوج» Magog, Gog مع تصرف Hastings: Dictionary of the Bible.

وما نسب إليهما من الفظائع عند قيام الساعة، إنما أريد به تصوير ما يصحب خراب الدنيا من الفتن الشديدة، وطغيان القوى المدمرة.

وقد اختلف فى تفسير حشر الوحوش فى (التكوير: ٥)، ففسر الحشر بالجمع للقصاص، كما فسر بالإهلاك، وروى الطبرى أحاديث عن بعض الصحابة فى هذين الوجهين، ورجح أن يكون معنى الحشر هنا «جمعت فأميتت»، مستدلا بمعنى الكلمة فى اللغة واستعمالها فى القرآن: «لأن المعروف فى كلام العرب من معنى الحشر الجمع، ومنه قول الله والطير محشورة يعنى مجموعة، وقوله فحشر فنادى، وإنما يحمل تأويل القرآن على الأغلب الظاهر من تأويله لا على الأنكر المجهول». (على أننا نلاحظ مع ذلك أن الطبرى لم يحتج لتفسيره الحشر بالجمع فالإماتة معًا).

ويبدو أن المعنى الأصلى لمادة حشر هو الضغط الشديد. حشر السكين والسنان حشرًا أحده فأدقه وألطفه، وحشر العود حشرًا براه، وحربة حشرة شديدة، وبعير حشر الأذن دقيقها. ومن هذا المعنى جاءت الحشرة واحدة صغار دواب الأرض كاليرابيع والقنافذ والضباب ونحوها، كأنها شبهت بما يسقط أو يتناثر عند الحشر. وقد جاء من هذه المادة وصف بمعنى إجتماع أجزاء الشىء كأنه ضغط ضغطًا فقيل الحشور، وهو من الدواب الملزز الخلق، ومن الرجال العظيم البطن. ومن معنى الضغط الشديد جاء قولهم «حشرت السنَة مال فلان» بمعنى أهلكته. عن اللسان: قال الليث إذا أصابت الناس سنة شديدة فأجحفت بالمال وأهلكت ذوات الأربع قيل قد حشرتهم السنة تحشرهم وتحشرهم، وذلك أنها تضمهم من النواهى إلى الأمصار. وحشرت السنة مال فلان أهلكته. قال رؤبة:

وما نجا من حشرها المحشوش وحش ولا طمش من الطموش

فكأن الحشر استعمل أولاً للناس بدوابهم، إذ أصابتهم السنة فضمتهم من النواحى إلى الأمصار، ثم أسند إلى الدواب وحدها، فكان معناه الجمع فالإمانة. ومن ثم يكون تفسير الطبرى حشر الوحوش بأنه جمعها فإماتتها، تفسيرًا سليمًا دقيقًا فى أداء معنى الحشر.

على أننا لا نطمئن إلى تفسير الحشر فى هذا الموضع حتى نبحث استعماله فى القرآن. ورد الحشر فى القرآن فعلاً ومصدرًا واسم فاعل واسم مفعول فى ثلاثة وأربعين موضعًا. فجاء بمعنى الجمع مطلقًا - أى لغير يوم القيامة - فى هذه الآيات: **﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ﴾** (الأنعام: ١١١). **﴿قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَأَرْسِلْ فِى الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾** (الأعراف: ١١١). **﴿قَالَ مَوْعِدُكُمْ يَوْمُ الزِّينَةِ وَأَنْ يُحْشَرَ النَّاسُ ضُحًى﴾** (طه: ٥٩). **﴿قَالُوا أَرْجِهِ وَأَخَاهُ وَابْعَثْ فِى الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾** (الشعراء: ٣٦). **﴿فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِى الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ﴾** (الشعراء: ٥٣). **﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنْ الْجِنِّ وَالإِنْسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾** (النمل: ١٧). **﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ. وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَهُ أَوَّابٌ﴾** (ص: ١٩). **﴿هُوَ الَّذِى أَخْرَجَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِنْ دِيَارِهِمْ لأَوَّلِ الْحَشْرِ﴾** (الحشر: ٢). **﴿فَحَشَرَ فَنَادَى. فَقَالَ أَنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى﴾** (النازعات: ٢٣).

والظاهر من معنى الحشر فى هذه الآيات أنه بمعنى الجمع فى شدة. وهو ما يظهر أيضًا فى الآيات التى ورد فيها حشر يوم القيامة. مثل (التكوير: ٥) **﴿وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ﴾** والآيات الكثيرة التى أوقع فيها الحشر على البشر ومنها قوله **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾** (البقرة: ٢٠٣). **﴿قُلْ لِلَّذِينَ كَفَرُوا سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَى جَهَنَّمَ﴾** (آل عمران: ١٢). **﴿وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾** (آل عمران: ١٥٨). **﴿وَمَنْ يَسْتَنْكِفْ عَنْ عِبَادَتِهِ وَيَسْتَكْبِرْ فَسَيَحْشُرُهُمْ إِلَيْهِ جَمِيعاً﴾** (النساء: ١٧٢). **﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾** (المائدة: ٩٦). **﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا أَيْنَ شُرَكَاؤُكُمْ﴾** (الأنعام: ٢٢). **﴿مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾** (الأنعام: ٣٨). **﴿وَأَنْذِرْ بِهِ الَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْ يُحْشَرُوا إِلَى رَبِّهِمْ﴾** (الأنعام: ٥١). **﴿وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلاةَ وَاتَّقُوهُ وَهُوَ الَّذِى إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾** (الأنعام: ٧٢). **﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدْ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنْ الإِنسِ﴾** (الأنعام: ١٢٨). **﴿وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾** (الأنفال: ٢٤). **﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ﴾**

(الأنفال: ٣٦). ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ﴾ (يونس: ٢٨). ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ﴾ (يونس: ٤٥)... ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ هُوَ يَحْشُرُهُمْ إِنَّهُ حَكِيمٌ عَلِيمٌ﴾ (الحجر: ٢٥). ﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وُجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً﴾ (الإسراء: ٩٧). ﴿وَتَرَى الأَرْضَ بَارِزَةً وَحَشَرْنَاهُمْ فَلَمْ نُغَادِرْ مِنْهُمْ أَحَداً﴾ (الكهف: ٤٧). ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَحْشُرَنَّهُمْ وَالشَّيَاطِينَ﴾ (مريم: ٦٨). ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً﴾ (مريم: ٨٥). ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً﴾ (طه: ١٠٢). ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى. قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً﴾ (طه: ١٢٤ ـ ١٢٥). ﴿وَهُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (المؤمنون: ٧٩). ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ﴾ (الفرقان: ١٧). ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً﴾ (الفرقان: ٣٤). ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا﴾ (النمل: ٨٣). ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ يَقُولُ لِلْمَلائِكَةِ أَهَؤُلاءِ إِيَّاكُمْ كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (سبأ: ٤٠). ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ﴾ (الصافات: ٢٢). ﴿وَيَوْمَ يُحْشَرُ أَعْدَاءُ اللَّهِ إِلَى النَّارِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (فصلت: ١٩). ﴿وَإِذَا حُشِرَ النَّاسُ كَانُوا لَهُمْ أَعْدَاءً وَكَانُوا بِعِبَادَتِهِمْ كَافِرِينَ﴾ (الأحقاف: ٦). ﴿يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً ذَلِكَ حَشْرٌ عَلَيْنَا يَسِيرٌ﴾ (ق: ٤٤). ﴿وَتَنَاجَوْا بِالْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (المجادلة: ٩). ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي ذَرَأَكُمْ فِي الأَرْضِ وَإِلَيْهِ تُحْشَرُونَ﴾ (الملك: ٢٤).

ويلاحظ أن الحشر أوقع على الجموع فى هذه المواضع كلها عدا موضعًا واحدًا وهو قوله عالى ﴿وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى. قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً﴾ (طه: ١٢٤ ـ ١٢٥)، فأوقع على المفرد، ولعل هذا الاستعمال مما يؤيد رأينا فى أن الحشر يدل بأصل معناه على الضغط الشديد، ومن ذلك جاء معنى الجمع فى ضغط وشدة.

وصف أحوال الناس عند بعثهم من القبور

جاء وصف أحوال الناس عند بعثهم من القبور فى هذه الآيات: (إبراهيم: ٤٢ ـ ٤٣) **﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ . مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾**. و﴿(الإسراء: ٥٢): **﴿يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِن لَّبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً﴾**. و(طه: ١٠٨): **﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلا تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْساً﴾**. و(النمل: ٨٧): **﴿وَيَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ فَفَزِعَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ وَكُلٌّ أَتَوْهُ دَاخِرِينَ﴾**. و(الروم: ٥٥ ـ ٥٦): **﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُقْسِمُ الْمُجْرِمُونَ مَا لَبِثُوا غَيْرَ سَاعَةٍ كَذَلِكَ كَانُوا يُؤْفَكُونَ. وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَالإِيمَانَ لَقَدْ لَبِثْتُمْ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِلَى يَوْمِ الْبَعْثِ فَهَذَا يَوْمُ الْبَعْثِ وَلَكِنَّكُمْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾**. و(يس: ٥١ ـ ٥٣): **﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُم مِّنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ. قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَن بَعَثَنَا مِن مَّرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ. إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَّدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾**. و(الصافات: ١٩ ـ ٢١): **﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ. وَقَالُوا يَا وَيْلَنَا هَذَا يَوْمُ الدِّينِ. هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ الَّذِي كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ﴾**. و(الزمر: ٦٨): **﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَمَن فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَن شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنظُرُونَ﴾**. و(ق: ٤١ ـ ٤٢): **﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ . يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾**. و(القمر: ٦ ـ ٨): **﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ. خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ. مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾**. (المعارج: ٤٣ ـ ٤٤): **﴿يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ. خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ ذَلِكَ الْيَوْمُ الَّذِي كَانُوا يُوعَدُونَ﴾**. (النبأ: ١٧ ـ ١٨): **﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ كَانَ مِيقَاتاً. يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ**

فَتَأْتُونَ أَفْوَاجاً﴾. و(النازعات: ١٣ ـ ١٤): **﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ. فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾**.

وقد وصفت الأبصار بالشخوص فى (إبراهيم: ٤٢) **﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ﴾** ووصفت بالخشوع فى (القمر: ٧) **﴿خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾** و(المعارج: ٤٤) **﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ تَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ﴾**. وشبيه بالمعنى الأول ـ الشخوص ـ ما جاء فى (الصافات: ١٩) **﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ فَإِذَا هُمْ يَنظُرُونَ﴾**، وفى (الزمر: ٦٨) **﴿ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾** وإن كان من الجائز أن يحمل قوله «ينظرون» فى آية الزمر على معنى الانتظار. ولعل رغبة بعض المفسرين فى التوفيق بين وصف الأبصار بالشخوص مرة وبالخشوع مرة هو الذى حملهم على أن يفسروا خشوع الأبصار فى (القمر: ٧ والمعارج: ٤٤) على أنه مجاز عن الذلة، عادلين عن المعنى الحسى للخشوع. فالخشوع يدل بأصله الحسى على قرب الشىء من الأرض: أكمة خاشعة: ملتزقة لاطئة بالأرض، وبلدة خاشعة أى مغيرة لا منزل بها، والخاشع من الأرض الذى تثيره الرياح لسهولته فتمحو آثاره، أخذ هذا المعنى كما ترى من معنى السهولة، وجدار خاشع إذا تداعى واستوى مع الأرض. قال النابغة: «ونؤى كجزم الحوض أثلم خاشع»، ويقال خشع سنام البعير إذا أنضى فذهب شحمه وتطأطأ شرفه، وخشعت الكواكب أى دنت من المغيب.

ومن ثم يكون أقرب المعانى إلى خشوع البصر أنه انكساره وغضه، بما يدل عليه ذلك من معنى الاستسلام والذل، كما فى الشاهد الذى رواه صاحب اللسان من شعر ذى الرمة:

تجلى السرى عن كل خرق كأن   صفيحة سيف طرفه غير خاشع

أما إذا تجنبنا تفسير خشوع البصر بانكساره، وأردنا أن نأخذه من معنى الذلة عمومًا، فإن ذلك يئول بنا مرة أخرى إلى تفسيره بالانكسار والإغضاء، إذ كيف تتصور الذلة فى البصر غير ذلك؟

والحق أننا نلمح اختلافًا بين صنيع اللغويين وصنيع المفسرين فى تفسير هذه الآية. فيقول صاحب اللسان: «وقيل الخشوع قريب من الخضوع، إلا أن الخضوع فى البدن وهو الإقرار بالاستخذاء، والخشوع فى البدن والصوت والبصر، كقوله تعالى **﴿خَاشِعَةً أَبْصَارُهُمْ ..﴾** (القلم: ٤٣، المعارج: ٤٤)، **﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِىَ لا عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتْ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ﴾** (طه: ١٠٨). ويقول صاحب التاج: «الخشوع الخضوع... أو الخشوع قريب المعنى من الخضوع... أو هو فى البدن والخشوع فى الصوت والبصر، قال الله تعالى خاشعة أبصارهم... وفى النهاية الخشوع فى الصوت والبصر كالخضوع فى البدن». أما الطبرى فيقول فى تفسير قوله تعالى: **﴿خُشَّعاً أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنْ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ﴾** (القمر: ٧) «خشعًا أبصارهم: ذليلة أبصارهم... وإنما وصف جل ثناؤه بالخشوع الأبصار دون سائر أجسامهم والمراد به جميع أجسامهم، لأن أثر ذلة كل ذليل وعزة كل عزيز تتبين فى ناظريه دون سائر جسده ...» وقال الزمخشرى فى تفسير هذه الآية «وخشوع الأبصار كناية عن الذلة والانخزال، لأن ذلة الذليل وعزة العزيز تظهران فى عيونهما. «فصاحب اللسان وصاحب التاج استدلا بالآية على ما رواه اللغويون من أن الخشوع عام للبدن والصوت والبصر، أو للصوت والبصر فقط، فكأنهم لم يفرقوا الخشوع الذى هو حالة نفسية، عن دلالته الحسية على حالة البدن أو الصوت أو البصر. أما الطبرى وصاحب الكشاف ففسرا الخشوع بالذلة التى هى حل نفسية، ضد العزة، وجعلاه مسندًا إلى الأبصار ههنا على طريق المجاز فى عرفهم، ولجآ فى تفسيرهما للآية، كما ترى، إلى التعميم الذى لا يغنى فى إيضاح المعنى. ويبدو لى أن هذا الصنيع منهما ناشئ عن أنهما رأيا وصف الأبصار بالشخوص كما أسلفت، فظنا أن اتفاق معانى الكتاب العزيز يقتضى أن يكون معنى الفعل المسند إلى الأبصار هنا، كمعنى الفعل المسند إليها هناك. وعندى أنه لا اختلاف، وأن خشوع الأبصار هنا يفسر بانكسارها كما هو ظاهر المعنى؛ وأريد بذكر الوصفين فى هذين الموضعين، بيان حالين من أحوال الكفار يوم القيامة، وهم فى ذلك اليوم تنقلب بهم الأحوال، بين الفزع والخزى، وبين اليأس المهلك والرجاء الخادع، فوصفوا بما يناسب هذه الأحوال المتقلبة من الصفات المتغايرة.

وقد صرح بهذا المعنى فى (النور: ٣٧): ﴿**رِجَالٌ لا تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَنْ ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ يَخَافُونَ يَوْماً تَتَقَلَّبُ فِيهِ الْقُلُوبُ وَالأَبْصَارُ**﴾(١).

ووصف إسراع الخلق عند خروجهم من القبور فى أكثر هذه الآيات. جاء هذا المعنى صريحًا فى (ق: ٤٤): ﴿**يَوْمَ تَشَقَّقُ الأَرْضُ عَنْهُمْ سِرَاعاً**﴾. وعبر عنه بإذا الفجائية فى (يس: ٥١): ﴿**وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ**﴾. وبإذا الفجائية مع النفى والاستثناء قبلها فى (يس: ٥٣): ﴿**إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ**﴾. و(الزمر: ٦٨): ﴿**ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ**﴾ كما عبر عنه بأسلوب المجاز فى (الإسراء: ٥٢): ﴿**يَوْمَ يَدْعُوكُمْ فَتَسْتَجِيبُونَ بِحَمْدِهِ وَتَظُنُّونَ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ قَلِيلاً**﴾. وقد نستطيع بالتأمل فى هذه المواطن المختلفة أن نتبين انفراد كل منها بلون من الدلالة، وضرب من التأثير، ولكننا سنقتصر الآن على محاولة توضيح معانى أفعال ثلاثة، جاءت فى هذه الآيات. وهى قوله «ينسلون» (يس: ٥١) وقوله «مهطعين» (إبراهيم: ٤٣ والقمر: ٨) وقوله «يوفضون» (المعارج: ٤٣): ﴿**يَوْمَ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ سِرَاعاً كَأَنَّهُمْ إِلَى نُصُبٍ يُوفِضُونَ**﴾.

فسر الراغب النسل بأنه الانفصال عن الشىء. «يقال نسل الوبر عن البعير والقميص عن الإنسان. قال الشاعر: فسلى ثيابى من ثيابك تنسلى «والنسالة ما سقط من الشعر وما يتحات من الريش. وقد انسلت الإبل حان أن ينسل وبرها. ومنه نسل إذا عدا، ينسل نسلانا، إذا أسرع. قال وهم من كل حدب ينسلون...» ونقل صاحب اللسان عن الليث تخصيص النسلان بمشية الذنب إذا أسرع. وأورد قبله: «وقيل أصل النسلان للذنب ثم استعمل فى غير ذلك» كما أورد هذا الشاهد:

عسلان الذنب أمس قاربا ... برد الليل عليه فنسل

وروى هذا الحديث: أنهم شكوا إلى رسول الله ـ ﷺ ـ الضعف فقال عليكم بالنسل، قال ابن الأعرابى... وهو الإسراع فى المشى... وفى حديث لقمان وإذا سعى القوم نسل أى إذا عدوا لغارة أو مخافة أسرع هو، قال والنسلان دون السعى».

---

(١) سنفرد لتنوع الصور فصلاً خاصًا فى باب «الأساليب».

ويظهر لنا من النظر فى أصل المادة، ومن مراجعة هذه الأقوال، والنظر فيما أورد من الشواهد، أن النسلان بمعنى الإسراع هو سير فيه شدة وصعوبة. وقد ورد فى القرآن الكريم فى موضعين: **﴿حَتَّى إِذَا فُتِحَتْ يَأْجُوجُ وَمَأْجُوجُ وَهُمْ مِنْ كُلِّ حَدَبٍ يَنسِلُونَ﴾** (الأنبياء: ٩٦). **﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنسِلُونَ﴾** (يس: ٥١). وفسر الطبرى ينسلون فى الموضع الأول فقال: «وأما قوله ينسلون فإنه يعنى أنهم يخرجون مشاة مسرعين فى مشيهم كنسلان الذئب» وأورد شاهد اللسان وفسره النيسابورى بالإسراع. وفسر الطبرى ينسلون فى الموضع الثانى بقوله: «يخرجون سراعًا، والنسلان الإسراع فى المشى». وفسره الزمخشرى فى الموضعين بالعدو. وتفسيرنا النسل بأنه سير فيه شدة وصعوبة، يتفق مع استعمال القرآن له، فقد ورد النسل فى الآية الأولى «من كل حدب»، والحدب المرتفع من الأرض، وإسراع المرء حين يهبط من جهة مرتفعة، إسراع فيه تشدد ومحاولة لضبط الحركات، وذلك كالشاهد الذى أورده صاحب اللسان من حديث لقمان: «وإذا سعى القوم نسل» أى إذا عدوا لغارة أو مخافة أسرع هو. «وورد النسل فى الآية الثانية «مَن الأجداث إلى ربهم»، فسرعة المبعوثين عند خروجهم من الأجداث، يغلب ألا تكون سرعة الخفيف المنطق، وخصوصًا إذا كانوا مقبلين إلى موقف الحساب. والمعنى الأصلى للمادة (الانفصال) ملحوظ فى هذه الآية على وجه الخصوص، وكون حرف الجر «من» دالا على هذا المعنى، أولى من حمله على أنه «ابتداء للغاية»، إذ الموتى فى قبورهم كجزء من هذه القبور، فانفصالهم منها كانفصال الوبر عن البعير.

أما الإهطاع ففيه تفسيران مختلفان وردا فى كتب اللغة وفى كتب التفسير (الطبرى ـ الزمخشرى ـ النيسابورى ـ ابن منظور). فأول هذين التفسيرين قولهم هطع يهطع وأهطع أقبل على الشىء ببصره فلم يرفعه عنه. وقد رويت معان أخرى ترجع إلى هذا المعنى، فى زيادة تخصيص. فقيل الإهطاع والتجميح بمعنى واحد، وهما إدامة النظر مع فتح العينين؛ وقيل الإهطاع النظر بخضوع؛ وقيل مد العنق وتصويب الرأس... والوجه الثانى تفسير الإهطاع بأنه الإسراع فى العدو، من قولهم أهطع البعير فى سيره واستهطع إذا أسرع، وناقة هطعى سريعة؛ وقد روى من

معانى الثلاثى أيضًا الإسراع، وقيل لا يكون إلا مع الخوف. ولعل أصل المادة هو ما يلاحظ من حالة البعير المسرع، وجاء المعنى الثانى ـ الإقبال على الشىء بالبصر ـ من ملاحظة رأس البعير إذا أهطع، فهو متجه إلى الأمام لا يلتفت؛ وأبرز الاستعمال هذا المعنى أحيانًا، وذاك أحيانًا أخرى. على أننا لا نبالغ فى قيمة هذا الفرض من حيث التطور اللغوى لدلالة الكلمة، بل نكتفى بأن نقول إن فهم الإهطاع فى (إبراهيم: ٤٣ والقمر: ٨) على أنه الإسراع تشبيهًا بحالة البعير المسرع يجعل الصورة أوضح فى الذهن، وبخاصة لأنه وصفهم فى آية إبراهيم بعد قوله «مهطعين» بقوله «مقنعى رءوسهم» والإقناع ـ كما فى اللسان ـ رفع الرأس فى جانب، مثل الجانف، والجانف الذى يعدل فى مشيته؛ فأما رفعه فى استقامة فليس عندهم بإقناع». والملحوظ أن البهير إذا أسرع أقنع وجهه. فتآزر الوصفان فى هذا الموضع على تجلية صورة الكفار فى إسراعهم، رافعى الرءوس فى جنف، فعل الفزع الذى ينظر ولا يستطيع أن يوجه بصره إلى ما يخافه.

وفسر الإيفاض بالإسراع كذلك (الطبرى ـ الزمخشرى ـ الراغب ـ ابن منظور). وقال الراغب: «وأصله أن يعدو من عليه الوفضة وهى الكنانة تتخشخش عليه. ومن المعانى التى ذكرت لهذا الفعل، ومزيدة، يبدو لنا أن الإيفاض استعمل أكثر ما استعمل، لعدو فيه اضطراب؛ فقد قالوا استوفضت الإبل إذا تفرقت فى رعيها، واستوفض استعجل، والمستوفض النافر من الذعر، ولقيته على أوفاض أى على عجلة. وهذه المعانى ترجح أن استعمال الإيفاض فى الآية، أريدت به الإشارة إلى معنى من الاضطراب والاختلاط، لا نجده فى أفعال أخرى بمعنى الإسراع أو العدو.

ـ ٥ ـ

وصف أحوال الناس عند حشرهم

جاء وصف أحوال الناس عند حشرهم فى هذه الآيات: (يونس: ٤٥): **﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ كَأَنْ لَمْ يَلْبَثُوا إِلاَّ سَاعَةً مِنَ النَّهَارِ يَتَعَارَفُونَ بَيْنَهُمْ قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ وَمَا كَانُوا مُهْتَدِينَ﴾** . و(الإسراء: ٩٧): **﴿وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى**

وَجُوهِهِمْ عُمْيـاً وَبُكْماً وَصُمّاً﴾. و(مريم: ٨٥ ـ ٨٦): ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْداً. وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْداً﴾. و(طه: ١٠٢ ـ ١٠٤): ﴿يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقاً. يَتَخَافَتُونَ بَيْنَهُمْ إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ عَشْراً. نَحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَقُولُونَ إِذْ يَقُولُ أَمْثَلُهُمْ طَرِيقَةً إِنْ لَبِثْتُمْ إِلاَّ يَوْماً﴾. و(طه: ١٢٤ ـ ١٢٦): ﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكاً وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى. قَالَ رَبِّ لِمَ حَشَرْتَنِي أَعْمَى وَقَدْ كُنتُ بَصِيراً. قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى﴾. و(الفرقان: ٣٤): ﴿الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ إِلَى جَهَنَّمَ أُوْلَئِكَ شَرٌّ مَكَاناً وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾. و(النمل: ٨٣): ﴿وَيَوْمَ نَحْشُرُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ فَوْجاً مِمَّنْ يُكَذِّبُ بِآيَاتِنَا فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾. و(الصافات: ٢٢ ـ ٢٣): ﴿احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ وَمَا كَانُوا يَعْبُدُونَ. مِنْ دُونِ اللَّهِ فَاهْدُوهُمْ إِلَى صِرَاطِ الْجَحِيمِ﴾.

وقد فصلنا القول فى الفصل الثالث فى معنى الحشر واستعماله فى القرآن. وجاء وصف الكفار بأنهم يحشرون عميا وبكما وصما فى (الإسراء: ٩٧)، وبأنهم يحشرون عميًا فى (طه: ١٢٤ ـ ١٢٥). وروى الطبرى اختلافًا فى تفسير العمى فى الآية الأولى على أنه عمى البصر حقيقة أو على أنه مجاز عن فقدان البصيرة؛ ومثل هذا الاختلاف فى تفسير قوله بصيرًا. ورأى أن الصواب أن يقال فى الموضع الأول: «يحشر أعمى عن الحجة وعن رؤية الشىء، كما أخبر جل ثناؤه، فعم ولم يخصص»؛ وأن يقال فى الموضع الثانى: «إن الله ـ عز شأنه وجل ثناؤه ـ عم بالخبر عنه بوصفه نفسه بالبصر ولم يخصص معنى دون معنى، فذلك على ما عم...» فتجنب الطبرى كما ترى أن يقطع برأى أو يرجح رأيًا على رأى فى تفسير الآية، وفهم العمى والبصر فى الآية على أنهما محتملان للحقيقة والمجاز معًا. أما الزمخشرى فكان أكثر جرأة فى فهم الآية، فبعد أن قال: «وهذا مثل قوله ونحشرهم يوم القيامة على وجوههم عميا وبكما وصما، وكما فسر الزرق بالعمى» قال: «كذلك: أى مثل ذلك فعلت أنت. ثم فسر بأن آياتنا أتتك واضحة مستنيرة فلم تنظر إليها بعين المعتبر وتركتها وعميت عنها، فكذلك اليوم نتركك

على عماك ولا نزيل غطاءه عن عينيك» فجعل عمى الكافر فى الآخرة كعماه فى الدنيا: عمى عن رؤية آيات الله: ولعل هذا التفسير أن تضعفا قيمته حين نلاحظ أن الكافر يوم القيامة فى موقف جزاء لا موقف اعتبار. والأولى أن تفهم الكاف فى «كذلك» الثانية على أنها للتعليل لا للتشبيه، فيكون المعنى: أن إعراض الكافر عن آيات الله فى الدنيا سبب لإعراض الله عنه فى الآخرة. ويؤنس بهذا المعنى ما أورده الطبرى رواية عن ابن عباس فى تفسير قوله تعالى: ﴿**وَنَحْشُرُهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى وَجُوهِهِمْ عُمْياً وَبُكْماً وَصُمّاً**﴾ (الإسراء: ٩٧)، ثم قال ورأى المجرمون النار فظنوا، وقال سمعوا لها تغيظًا وزفيرًا، وقال دعوا هنالك ثبورًا... أما قوله عميا فلا يرون شيئًا يسرهم، وقوله بكما لا ينطقون بحجة، وقوله صمًا لا يسمعون شيئًا يسرهم. «فالعمى والبكم والصمم هنا مجاز، ولكنه ليس كالمجاز الذى فى وصفهم بالعمى والبكم والصمم فى (البقرة: ١٨) ﴿**صُمٌ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَرْجِعُونَ**﴾ أو (البقرة: ١٧١) ﴿**صُمٌ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُونَ**﴾ أو (الأنعام: ٣٩) ﴿**وَالَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا صُمٌ وَبُكْمٌ فِى الظُّلُمَاتِ**﴾... فالعمى والصمم والبكم فى تلك الآيات تعبير عن الانصراف عن التدبر وإحالة الفكر فى حكمة الخلق، حتى تصدأ ملكات الذهن، وتبطل وظيفة الحواس. أما فى آية الإسراء وآيات طه فهى تعبير عن بعث هؤلاء الكفار مئوفى الملكات، مبتورى النفوس، لا يستمتعون بشىء من اللذائذ التى تأتى عادة عن طريق الحواس. فلوحظ فى الحواس مرة أنها أبواب العلم، فكان التعبير بفقدانها المقصود معناه إغلاق أبواب المعرفة؛ وهذا هو نسيان آيات الله. ولوحظ فيها مرة أنها أبواب اللذة، فكان التعبير بسلبها القهرى معناه الحرمان من جميع اللذائذ؛ وهذا هو نسيان الله للكافر. ونجد فى قوله تعالى ﴿**قَالَ كَذَلِكَ أَتَتْكَ آيَاتُنَا فَنَسِيتَهَا وَكَذَلِكَ الْيَوْمَ تُنسَى**﴾ (طه: ١٢٦) جعل حرمان الكافر من اللذائذ التى مصدرها الحس جزاء لإعراضه عن العلم الذى طريقه الحس كذلك. كأن الهدف البعيد أن يقال: إن من لم يستخدم حواسه كما منحها الله سبيلا للمعرفة كما هى سبيل للذة، فقد أساء استخدامها وكان جزاؤه الحق أن يحرمها سبيلاً للذة، كما ضيعها طريقًا للمعرفة.

وصف الحساب والجزاء

جاء وصف حساب الله للعباد وجزائه إياهم يوم القيامة فى هذه الآيات: (آل عمران: ١٨٥): ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ وَإِنَّمَا تُوَفَّوْنَ أُجُورَكُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَمَنْ زُحْزِحَ عَنِ النَّارِ وَأُدْخِلَ الْجَنَّةَ فَقَدْ فَازَ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ مَتَاعُ الْغُرُورِ﴾. و(النساء: ٤٠ - ٤٢) ﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْراً عَظِيماً. فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِن كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلاءِ شَهِيداً. يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً﴾. و(المائدة: ١١٦ - ١١٩): ﴿وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَانَكَ مَا يَكُونُ لِى أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ إِن كُنتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلا أَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنتَ عَلاَّمُ الْغُيُوبِ. مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلاَّ مَا أَمَرْتَنِى بِهِ أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيداً مَا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنتَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ. إِن تُعَذِّبْهُمْ فَإِنَّهُمْ عِبَادُكَ وَإِن تَغْفِرْ لَهُمْ فَإِنَّكَ أَنتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ. قَالَ اللَّهُ هَذَا يَوْمُ يَنفَعُ الصَّادِقِينَ صِدْقُهُمْ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً رَضِىَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. و(الأنعام: ٣٠): ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ قَالَ أَلَيْسَ هَذَا بِالْحَقِّ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا قَالَ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾. (الأنعام: ١٢٨ - ١٣٢): ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُم مِّنَ الإِنسِ وَقَالَ أَوْلِيَاؤُهُم مِّنَ الإِنسِ رَبَّنَا اسْتَمْتَعَ بَعْضُنَا بِبَعْضٍ وَبَلَغْنَا أَجَلَنَا الَّذِى أَجَّلْتَ لَنَا قَالَ النَّارُ مَثْوَاكُمْ خَالِدِينَ فِيهَا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ إِنَّ رَبَّكَ حَكِيمٌ عَلِيمٌ. وَكَذَلِكَ نُوَلِّى بَعْضَ الظَّالِمِينَ بَعْضاً بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ. يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِى وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ. ذَلِكَ أَن لَّمْ يَكُن رَّبُّكَ مُهْلِكَ

الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا غَافِلُونَ. وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾. و(الأعراف: ٦ ـ ٩): ﴿فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ. فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ. وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾. و(الأنفال: ٣٧): ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعاً فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾. و(يونس: ٢٦ ـ ٣٠): ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنَ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُولَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. وَيَوْمَ نَحْشُرُهُمْ جَمِيعاً ثُمَّ نَقُولُ لِلَّذِينَ أَشْرَكُوا مَكَانَكُمْ أَنْتُمْ وَشُرَكَاؤُكُمْ فَزَيَّلْنَا بَيْنَهُمْ وَقَالَ شُرَكَاؤُهُمْ مَا كُنْتُمْ إِيَّانَا تَعْبُدُونَ. فَكَفَى بِاللَّهِ شَهِيداً بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ إِنْ كُنَّا عَنْ عِبَادَتِكُمْ لَغَافِلِينَ. هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ وَرُدُّوا إِلَى اللَّهِ مَوْلاهُمُ الْحَقِّ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾. و(يونس: ٤٦ ـ ٤٧): ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِلَيْنَا مَرْجِعُهُمْ ثُمَّ اللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا يَفْعَلُونَ. وَلِكُلِّ أُمَّةٍ رَسُولٌ فَإِذَا جَاءَ رَسُولُهُمْ قُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْقِسْطِ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾. و(إبراهيم: ٥١): ﴿لِيَجْزِيَ اللَّهُ كُلَّ نَفْسٍ مَا كَسَبَتْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾. و(النحل: ٨٤ ـ ٨٩): ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ. وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلا هُمْ يُنْظَرُونَ. وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمُ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ. وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ. الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَاباً فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ. وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِي كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَاناً لِكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾. و(النحل: ١١١): ﴿يَوْمَ تَأْتِي كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ

وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾. و(الإسراء: ١٣ ـ ١٤): ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَاباً يَلْقَاهُ مَنشُوراً. اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيباً﴾. و(الإسراء: ٧١ ـ ٧٢): ﴿يَوْمَ نَدْعُو كُلَّ أُنَاسٍ بِإِمَامِهِمْ فَمَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَأُوْلَئِكَ يَقْرَءُونَ كِتَابَهُمْ وَلا يُظْلَمُونَ فَتِيلاً. وَمَنْ كَانَ فِي هَذِهِ أَعْمَى فَهُوَ فِي الآخِرَةِ أَعْمَى وَأَضَلُّ سَبِيلاً﴾. و(الكهف: ٤٨ ـ ٤٩): ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفّاً لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً. وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾. و(الكهف: ١٠٥): ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً﴾. و(طه: ١١٢): ﴿وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَاتِ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلا يَخَافُ ظُلْماً وَلا هَضْماً﴾. و(الأنبياء: ٤٧): ﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾. و(المؤمنون: ١٠٢ ـ ١٠٣): ﴿فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُوْلَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾. و(النور: ٢٤ ـ ٢٥): ﴿يَوْمَ تَشْهَدُ عَلَيْهِمْ أَلْسِنَتُهُمْ وَأَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. يَوْمَئِذٍ يُوَفِّيهِمُ اللَّهُ دِينَهُمُ الْحَقَّ وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾. و(الفرقان: ١٧ ـ ١٩): ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ وَمَا يَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ فَيَقُولُ أَأَنْتُمْ أَضْلَلْتُمْ عِبَادِي هَؤُلاءِ أَمْ هُمْ ضَلُّوا السَّبِيلَ. قَالُوا سُبْحَانَكَ مَا كَانَ يَنْبَغِي لَنَا أَنْ نَتَّخِذَ مِنْ دُونِكَ مِنْ أَوْلِيَاءَ وَلَكِنْ مَتَّعْتَهُمْ وَآبَاءَهُمْ حَتَّى نَسُوا الذِّكْرَ وَكَانُوا قَوْماً بُوراً. فَقَدْ كَذَّبُوكُمْ بِمَا تَقُولُونَ فَمَا تَسْتَطِيعُونَ صَرْفاً وَلا نَصْراً وَمَنْ يَظْلِمْ مِنْكُمْ نُذِقْهُ عَذَاباً كَبِيراً﴾. و(الفرقان: ٢٣): ﴿وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُوراً﴾. و(الفرقان: ٣٠ ـ ٣١): ﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً. وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوّاً مِنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِياً وَنَصِيراً﴾. و(الشعراء: ٨٧ ـ ٨٩): ﴿وَلا تُخْزِنِي يَوْمَ يُبْعَثُونَ. يَوْمَ لا يَنْفَعُ مَالٌ وَلا بَنُونَ. إِلاَّ مَنْ أَتَى اللَّهَ بِقَلْبٍ سَلِيمٍ﴾. و(النمل: ٨٤ ـ ٨٥): ﴿حَتَّى

إذا جاءُوا قَالَ أَكَذَّبْتُمْ بِآيَاتِي وَلَمْ تُحِيطُوا بِهَا عِلْماً أَمَّاذَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ. وَوَقَعَ الْقَوْلُ عَلَيْهِمْ بِمَا ظَلَمُوا فَهُمْ لا يَنطِقُونَ﴾. و(القصص: ٦٢ - ٦٦): ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ. قَالَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ رَبَّنَا هَؤُلاءِ الَّذِينَ أَغْوَيْنَا أَغْوَيْنَاهُمْ كَمَا غَوَيْنَا تَبَرَّأْنَا إِلَيْكَ مَا كَانُوا إِيَّانَا يَعْبُدُونَ. وَقِيلَ ادْعُوا شُرَكَاءَكُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَرَأَوُا الْعَذَابَ لَوْ أَنَّهُمْ كَانُوا يَهْتَدُونَ. وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ. فَعَمِيَتْ عَلَيْهِمُ الأَنْبَاءُ يَوْمَئِذٍ فَهُمْ لا يَتَسَاءَلُونَ﴾. و(القصص: ٧٤ - ٧٥): ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ. وَنَزَعْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً فَقُلْنَا هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ فَعَلِمُوا أَنَّ الْحَقَّ لِلَّهِ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾. و(سبأ: ٣٧): ﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾. و(يس: ٥٤): ﴿فَالْيَوْمَ لا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَلا تُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾. و(يس: ٥٩ - ٦٢): ﴿وَامْتَازُوا الْيَوْمَ أَيُّهَا الْمُجْرِمُونَ. أَلَمْ أَعْهَدْ إِلَيْكُمْ يَا بَنِي آدَمَ أَنْ لا تَعْبُدُوا الشَّيْطَانَ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ. وَأَنْ اعْبُدُونِي هَذَا صِرَاطٌ مُسْتَقِيمٌ. وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلاً كَثِيراً أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ﴾. و(يس: ٦٥): ﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾. و(الزمر: ٦٩ - ٧٠): ﴿وَأَشْرَقَتْ الأَرْضُ بِنُورِ رَبِّهَا وَوُضِعَ الْكِتَابُ وَجِيءَ بِالنَّبِيِّينَ وَالشُّهَدَاءِ وَقُضِيَ بَيْنَهُمْ بِالْحَقِّ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ. وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾. و(غافر: ١٦ - ١٧): ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ. الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لا ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾. و(فصلت: ٢٠ - ٢٣): ﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ (٢٠) وَقَالُوا لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنطَقَ كُلَّ شَيْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ. وَمَا كُنْتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَنْ يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلا أَبْصَارُكُمْ وَلا جُلُودُكُمْ وَلَكِنْ ظَنَنتُمْ أَنَّ اللَّهَ لا يَعْلَمُ كَثِيراً مِمَّا تَعْمَلُونَ. وَذَلِكُمْ ظَنُّكُمْ الَّذِي ظَنَنتُمْ بِرَبِّكُمْ أَرْدَاكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ مِنْ الْخَاسِرِينَ﴾. و(الجاثية: ٢٨ - ٣٥): ﴿وَتَرَى كُلَّ

أُمَّةٍ جَاثِيَةً كُلُّ أُمَّةٍ تُدْعَى إِلَى كِتَابِهَا الْيَوْمَ تُجْزَوْنَ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ. هَذَا كِتَابُنَا يَنطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنسِخُ مَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ. فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُدْخِلُهُمْ رَبُّهُمْ فِي رَحْمَتِهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْمُبِينُ. وَأَمَّا الَّذِينَ كَفَرُوا أَفَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَى عَلَيْكُمْ فَاسْتَكْبَرْتُمْ وَكُنتُمْ قَوْماً مُجْرِمِينَ. وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِن نَظُنُّ إِلاَّ ظَنّاً وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ. وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُون. وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُم مِّن نَّاصِرِينَ. ذَلِكُم بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُواً وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾. و(الأحقاف: ١٩): ﴿وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمَالَهُمْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾. و(المجادلة: ٦): ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ جَمِيعاً فَيُنَبِّئُهُم بِمَا عَمِلُوا أَحْصَاهُ اللَّهُ وَنَسُوهُ وَاللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ﴾. و(التغابن: ٧ ـ ٩): ﴿زَعَمَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَن لَّن يُبْعَثُوا قُلْ بَلَى وَرَبِّي لَتُبْعَثُنَّ ثُمَّ لَتُنَبَّؤُنَّ بِمَا عَمِلْتُمْ وَذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ. فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَالنُّورِ الَّذِي أَنزَلْنَا وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ. يَوْمَ يَجْمَعُكُمْ لِيَوْمِ الْجَمْعِ ذَلِكَ يَوْمُ التَّغَابُنِ وَمَن يُؤْمِن بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحاً يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾. و(الحاقة: ١٨ ـ ٢٠): ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنكُمْ خَافِيَةٌ. فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ. إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ﴾. (الحاقة: ٢٥ ـ ٢٩): ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ. وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ. يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ. مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ. هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾. و(القيامة: ١٢ ـ ١٥): ﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ. يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ. بَلِ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ. وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾. و(الانشقاق: ٦ ـ ١٢): ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاقِيهِ. فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ. فَسَوْفَ يُحَاسَبُ حِسَاباً يَسِيراً. وَيَنقَلِبُ إِلَى أَهْلِهِ مَسْرُوراً. وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ. فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُوراً. وَيَصْلَى سَعِيراً﴾. و(الزلزلة: ٦ ـ ٨): ﴿يَوْمَئِذٍ يَصْدُرُ النَّاسُ أَشْتَاتاً لِيُرَوْا أَعْمَالَهُمْ. فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه. وَمَن يَعْمَلْ

مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَه﴾. و(القارعة: ٦ ـ ٩): ﴿فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ. فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ. وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ. فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ﴾.

ونعرض فى ضوء هذه الآيات لتفسير معنى «الكتاب» الذى جاء فى (الإسراء: ١٣ ـ ١٤ و٧٠ ـ ٧٢ والكهف: ٤٩ والزمر: ٦٩ والجاثية: ٢٨ ـ ٢٩ والحاقة: ١٨ ـ ٢٠ و٢٥ ـ ٢٩ والانشقاق: ٦ ـ ١٢)؛ ولتفسير معنى «الوزن» الذى جاء فى (الأعراف: ٨ ـ ٩ والكهف: ١٠٥ والأنبياء: ٤٧ والمؤمنون: ٤٧ والمؤمنون: ١٠٢ ـ ١٠٣ والقارعة: ٦ ـ ٩).

أما الكتاب فالمفسرون مجمعون على أنه صحف الأعمال. جعلوه اسمًا للصحيفة فى (الإسراء: ١٣ ـ ١٤ والإسراء: ٧١ والحاقة: ١٨ ـ ٢٠و ٢٥ ـ ٢٩ والانشقاق: ٦ ـ ١٢)؛ واسم جنس فى (الكهف: ٤٩ والزمر: ٦٩ والجاثية: ٢٨ ـ ٢٩) (انظر الزمخشرى فى تفسير هذه الآيات).

واضطربوا فى التوفيق بين هاتين الآيتين: ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ﴾ (الحاقة: ٢٥) ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ وَرَاءَ ظَهْرِهِ. فَسَوْفَ يَدْعُو ثُبُورًا﴾ (الانشقاق: ١١). فقال الطبرى فى تفسير آية الانشقاق: «ذلك أن جعل يده اليمنى إلى عنقه ويجعل الشمال من يديه وراء ظهره فيتناول كتابه بشماله من وراء ظهره، ولذلك وصفهم جل ثناؤه أحيانًا أنهم يؤتون كتبهم بشمائلهم وأحيانًا أنهم يؤتونها من وراء ظهورهم». وقال الزمخشرى مثل ذلك. أما الأستاذ الإمام فكان مدخله إلى معنى الآية أن اليمين تستعمل فى كتاب الله عبارة عن القوة أو اليمن والخير، والشمال تسعمل عبارة عن ضد ذلك «فمعنى آية الحاقة والآية التى نحن بصددها فأما من عرض عليه كتابه وقدم إليه ليأخذه فاندفع إليه بعزيمة نفسه لشعوره بأنه مستودع الصالحات وسجل البر والمكرمات فشأنه كذا وأما من قدم إليه كتابه وعرض عليه عمله فخزيت نفسه وخارت عزيمته فمد إليه يساره لعله لا يستطيع ضبطه فيسقط منه فلا يرى ما فيه أو يعرض عنه فيوليه ظهره لشعوره بأنه ديوان السيئات وسجين المخازى فأمره كيت وكيت. ويرشد إلى ذلك ما ورد من التفصيل فى سورة (الحاقة: ١٩ ـ ٢٠) فإنه

قال ﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ. إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ﴾. ودعوة الناس إلى القراءة دليل الفرح والنشاط وقوة العزيمة. (الحاقة: ٢٥ ـ ٢٩) ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ. وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ. يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ. مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ. هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾. وهذا قول المخذول الكاره لما عرض عليه. فإيتاء الكتاب باليمين أو باليسار أو وراء الظهر تمثيل وتصوير لحالة المطلع على أعماله فى ذلك اليوم، فمن الناس من إذا كشف له عمله ابتهج واستبشر وهو التناول باليمين ومنهم من إذا تكشفت له سوابق أعماله عبس وبسر وأعرض عنها وأدبر وتمنى لو لم تكشف له، وهذا هو التناول باليسار أو وراء الظهر. وبهذا اتفق المعنيان فى الآيتين ولم تبق حاجة إلى الجمع بين الشمال ووراء الظهر باختراع معنى لا يليق بكتاب الله كما جرى عليه كثير من المفسرين». (تفسير جزء عم ص ٥٢).

وعندى أن حمل «وضع الكتاب» (الكهف: ٤٩، والزمر: ٦٩) على أنه مجاز عن المحاسبة ييسر فهم هذه الآيات ولا يترك الذهن يضل فى صحائف الأعمال هذه على أية صورة هى وكيف توضع وأن توضع إلى آخره. ومما يقرب هذا المجاز إلى أفهامنا أن نشر الكتب مما يلازم الحساب عادة، وأن كلمة الكتاب من أوسع الكلمات استعمالاً فى القرآن الكريم، لما يقترن بها من معنى العلم أحيانًا ومن معنى الفرض والحكم أحيانًا أخرى. أما إيتاء المحاسب كتابه فقد زيد على هذا المعنى الأصلى لبيان أن حسنات المرء وسيئاته تنبسط له ويكشف الغطاء عن عينيه فلا يكون بحاجة إلى رقيب غير نفسه، وذلك نظير ما جاء من تنبئة الخلق بأعمالهم (المجادلة: ٦، والتغابن: ٧، والقيامة: ١٣)، فالتعبير عن الحساب «بالتنبئة» يفيد أنه تنبيه من الخالق للضمائر الغافلة، والنفوس الذاهلة، وهى بعد ذلك تحاسب صاحبها على ما فعل. وجاء الإيتاء باليمين أو بالشمال أو وراء الظهر كما لاحظ الأستاذ الإمام تعبيرًا عن اليمن والشؤم كما قال تعالى أصحاب اليمين وأصحاب الشمال ومن ورائه جهنم. وجاء وضع الكتاب فى بعض الآيات تعبيرًا عن حساب الأمم (الكهف: ٤٩، والزمر: ٦٩، والجاثية: ٢٨)، وعده

المفسرون فى هذه المواضع اسم جنس، والتعبير هنا نظير ما جاء من إشهاد الأنبياء على أممهم وسؤال المرسلين والمرسل إليهم.

وقد ورد ذكر كتاب أعمال الفجار وكتاب أعمال الأبرار فى هذه الآيات: ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الْفُجَّارِ لَفِي سِجِّينٍ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا سِجِّينٌ. كِتَابٌ مَرْقُومٌ﴾. (المطففين: ٧ ـ ٩) ﴿كَلاَّ إِنَّ كِتَابَ الأَبْرَارِ لَفِي عِلِّيِّينَ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا عِلِّيُّونَ. كِتَابٌ مَرْقُومٌ. يَشْهَدُهُ الْمُقَرَّبُونَ﴾. (المطففين: ١٨ ـ ٢١). وإذا لم تكن هذه الآيات من وصف القيامة فإن دراستها فى هذا المقام لازمة لبيان المراد بكتب الأعمال.

وقد اختلف فى تفسير «سجين» و «عليين» اختلافًا كبيرًا، فمن المفسرين من جعلهما مكانين، وعينوهما بالأرض السابعة أو حد إبليس، والسماء السابعة أو قائمة لعرش اليمنى، إلى آخر ما جاءوا به من أقوال لا تغنى وإن أدخلها بعض المؤلفين من بعد فى جغرافية الجنة والنار... (انظر هذه الأقوال فى تفسير الطبرى) وقال الزمخشرى ـ وتابعه أبو حيان ـ إن سجين علم لديوان الشر وعليين علم لديوان الخير.

أما أصل الكلمتين فالمفسرون المسلمون على أن سجينًا فعيل من السجن ـ وهو الحبس والتضييق ـ كما يقال سكير من السكر وفسيق من الفسق (الطبرى)، وعلى أنه ديوان الشر يكون قد سمى بذلك؛ لأنه سبب الحبس والتضييق فى جهنم، أو لأنه مطروح كما روى تحت الأرض السابعة فى مكان وحش مظلم وهو مسكن إبليس وذريته استهانة به وإذلاله، وليشهده الشياطين المدحورون كما يشهد ديوان الخير الملائكة المقربون (الزمخشرى). وعلى أن عليين جمع معناه شىء فوق شىء وعلو فوق علو وارتفاع بعد ارتفاع، فذك جمعت بالياء والنون كجمع الرجال، إذ لم يكن له بناء من واحده واثنيه، كما حكى عن بعض العرب سماعا أطعمنا مرقة مرقين يعنى اللحم المطبوخ، كما قال الشاعر:

قد رويت إلا الدهيد هينا   قليصات وأبيكرينا

فقال وأبيكر ينا فجمعها بالنون إذ لم يقصد عددًا معلومًا من البكارة، بل أراد عددًا لا يحدد آخره، وكما قال الشاعر:

فأصبحت المذاهب قد أذاعت بها الأمطار بعد الوايلينا

يعنى مطرًا بعد مطر غير محدود العدد، وكذلك تفعل الهرب فى كل جمع لم يكن بناء له من واحده واثنيه فجمعه فى جميع الإناث والذكر أن بالنون على ما بينا. ومن ذلك قولهم للرجال والنساء عشرون وثلاثون (الطبرى). وقيل إنه علم منقول من جمع على فعيل كسجين (الزمخشرى). وعلى أنه جمع أريد به العدد غير المتناهى يكون معنى قوله فى عليين: فى علو وارتفاع فى سماء بعد سماء وعلو بعد علو (الطبرى). وعلى أنه علم منقول يصح كونه اسمًا للمكان أو اسمًا للكتاب.

وللمستشرقين فى هذين اللفظين أقوال أخرى تتفق مع ما أولعوا به من البحث عن أصول أجنبية للكلمات العربية. فقال فرنكل إن سِجينًا هى بعينها السجل وأصلها كلمة يونانية دخلت العربية عن طريق الآرامية وهى Sigillum ومعناها الخاتم، والختم والكتابة متقاربان فيجوز أن يقع هذا التحريف اليسير فى معنى الكلمة عند انتقالها من الآرامية إلى العربية (Die Aramaische Worter S. 252). وقال نولدكه إن سجينًا كلمة اخترعها محمد اختراعًا مثل غسلين وتسنيم وسلسبيل، لكى يؤثر فى عقول سامعيه غير المثقفين (كذا). وإن عليين اسم مأخوذ من العبرية وهو هناك Elyon العلى اسم الله فغلط محمد (كذا) وجعله اسمًا لكتاب سماوى.

وتفاسير المستشرقين هذه يظهر فيها التمحل، ويشهد على تمحلهم لجوئهم إلى القول بأن الكلمة حرف معناها فى العربية عن الأصل الذى يزعمونه. وربما كان الأحجى والأقرب إلى طريقة البحث العلمى أن يشكوا فى هذا الأصل الذى افترضوه ماداموا يجدون فيه بعدًا عن استعمال القرآن للكلمة. ونحن نستحسن تفسير الطبرى لكلمة عليين بأنها جمع لا واحد له أريد به العلو الشديد الذى لا يعرف مداه، لما جاء به من الشواهد على استعمال جمع العاقلين عند العرب بهذا المعنى. إذ كان جل ثناؤه قد أخبر بأنه كتاب مرقوم يشهده المقربون، فالمراد أن ما حفظ من أعمال الأبرار فى كتاب عال إلى أبعد ما يتصوره الذهن من معنى العلو. ويكون معنى سجين على هذا القياس كتابًا سافلاً إلى أبعد ما يتصوره

الذهن من معنى التسفل. ويشهد لهذا المعنى أن جميع النقول التى جاء بها الطبرى فى معنى سجين وعليين - على ما فيها - مجمعة على معنى الانحطاط الشديد فى الأول، والعلو العظيم فى الثانى. وعندنا أن مجىء كلمة الكتاب أول الأمر مصدرًا أو بمعنى الشىء الذى يكتب لا الصحيفة المكتوبة، ثم تسمية الشىء الذى يكتب فيه بهذين الاسمين اللذين يعتمد معنياهما على الإيحاء أكثر مما يعتمدان على الدلالة الصريحة، والسؤال بعدهما بما أدرك تعجيبًا للسامع - كل ذلك إنما أريد به التنبيه على أن كتب أعمال الخلق وحفظها ليس على إذا النمط المعروف فى الدنيا. فإذا جاء بعد ذلك وضع الكتب ونشرها وإيتاؤها الخلق يوم القيامة، فحمل ذلك على أنه تعبير عن الحساب أولى من فهمه على ظاهر معناه الحسى من الكتب التى هى صحائف مدونة.

أما وزن الأعمال فقد اختلف من قديم فى المراد به، ونقل الطبرى ذلك الخلاف ورأيه فيه بالحجج العقلية المفصلة فى تفسير آيتى (الأعراف: ٨ - ٩) ﴿وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾. وللقارئ أن يرجع إلى هذا الجدال إن شاء، أما نحن فنفضل ألا نقف عنده، وأن ننصرف إلى ما هو أجدى. وحسبنا أن ننظر فى أقوال من فسروا الميزان بأنه الميزان المعروف الذى له لسان وكفتان لنرى كيف اضطربوا فى فهم وزن الأعمال بهدا الميزان، وجعلهم الموزون هو الإنسان مرة، وصحائف الأعمال مرة أخرى، وكلامهم فى إحداث الله الثقة والخفة فى الميزان، كلام يتفق مع اعتقدتهم بخلق الأفعال... حسبنا أن ننظر فى هذه الأقوال المضطربة لنرى أنها لا تؤدى إلى فهم مستقيم للآية، وكأنهم وجدوا فيها منفذًا لمجادلاتهم الاعتقادية، فجادلوا وما اقتصدوا... والقرآن - وهو الكتاب المبين - برىء من هذه المعانى المتعسفة، وهذه التأويلات المتناقضة. والفهم اللغوى الأدبى يدلنا على أن الوزن والموازين كثيرًا ما يستعاران للتقدير، كما أن معانى مادة «وزن» تدور حول التقدير مشارًا به إلى جانب الثقل (كقولهم درهم وازن). فليس من الضرورى إذا أن يفهم من «الوزن» و «الميزان» هذا الجهاز المعروف ذو اللسان والكفتين. وقد أنكر الأستاذ الإمام قول من قالوا

يوزن الأعمال بميزان هذه صفته، وقال إن الوزن تعبير عن كون الشيء ذا قيمة وأثر، ولذلك صحت نسبة الخفة والثقل إلى الموازين بأجمعها، ولو صح ما قالوه لكان حق التعبير من رجحت كفة أعماله وخفت كفة أعماله (تفسير جزء عم ص ١٤٦). واحتج الأستاذ الإمام عليهم بأن الأعمال ليست أثقالاً جسمية فتوزن، «وأن البشر قد اخترعوا من الموازين ما هو أتقن من ذلك وأضبط وأوفى ببيان الموازين، أفيأبى الحكيم الخبير إلا استعمال ذلك الميزان الخشن الناقص، الذى هدى العلم عقول البشر إلى ما هو أدق منه... «ونحن نترك الاحتجاج الفعلى لنتكلم فيما أورده الأستاذ الإمام من بيان الاستعمال اللغوى، ونفصل القول فى نسبة الخفة والثقل إلى الموازين جمعا؛ فنقول إن استعمال الوزن بمعنى التقدير عمومًا، دون استعارة معنى الميزان المعروف، استعمال عربى صريح، فمن ذلك حديث ابن عباس: «نهى رسول الله - ﷺ - عن بيع النخل حتى يؤكل منه وحتى يوزن»؛ أى حتى يحزر، ومنه قول الشاعر»:

قد كنت قبل لقائكم ذا مرة عندى لكل مخاصم ميزانه

ومن هذا الاستعمال فى القرآن قوله تعالى: **﴿وَأَنْبَتْنَا فِيهَا مِنْ كُلِّ شَىْءٍ مَوْزُونٍ﴾** (الحجر: ١٩) ومنه استعمل الميزان فى قريب من معنى القانون والنظام. كقوله تعالى **﴿اللَّهُ الَّذِى أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ﴾** (الشورى: ١٧) وقوله **﴿وَالسَّمَاءَ رَفَعَهَا وَوَضَعَ الْمِيزَانَ. أَلاَّ تَطْغَوْا فِى الْمِيزَانِ﴾** (الرحمن: ٧ ـ ٨). وهنا جناس بين الميزان الأولى والميزان الثانية.

فما جاء من آيات الكتاب فى وزن الأعمال ينبغى حمله على أحد هذين المعنيين، حسب ما يقتضيه السياق. فمن الاستعمال الأول آية (الكهف: ١٠٥): **﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْناً﴾**، ومن الاستعمال الثانى آية (الأنبياء: ٤٧): **﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً﴾** وأتبعه استعارة النقل لمعنى التقدير فقال عز من قائل: **﴿وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾** (الأنبياء: ٤٧).

أما نسبة الخفة والثقل إلى الموازين جمعا فهو أقرب إلى المجاز الذى تتوسبت فيه الاستعارة، حتى جاز أن يعامل الاسم معاملة المصدر، ويجمع دلالة على كون الوزن والتقدير شاملاً لأمور كثيرة، فى اللسان «وقوله تعالى فأما من ثقلت موازينه وأما من خفت موازينه قال ثعلب إنما أراد من ثقل وزنه أو خف وزنه فوضع الاسم الذى هو الميزان موضع المصدر».

- ٧ -

أحوال الخلق عند الحساب

ورد وصف أحوال الخلق عند الحساب فى هذه الآيات: (آل عمران: ٣٠) ﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُحْضَراً وَمَا عَمِلَتْ مِنْ سُوءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُ أَمَداً بَعِيداً﴾ و(آل عمران: ٧٧) ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِى الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. و(آل عمران: ١٠٦ ـ ١٠٧) ﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِى رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. و(النساء: ٤٢) ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَعَصَوُا الرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّى بِهِمُ الأَرْضُ وَلا يَكْتُمُونَ اللَّهَ حَدِيثاً﴾. و(الأنعام: ٢٧ ـ ٢٨) ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ. بَلْ بَدَا لَهُمْ مَا كَانُوا يُخْفُونَ مِنْ قَبْلُ وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ﴾. و(الأنعام: ٣١) ﴿قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾. و(الأنعام: ٩٤) ﴿وَلَقَدْ جِئْتُمُونَا فُرَادَى كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَتَرَكْتُمْ مَا خَوَّلْنَاكُمْ وَرَاءَ ظُهُورِكُمْ وَمَا نَرَى مَعَكُمْ شُفَعَاءَكُمُ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ أَنَّهُمْ فِيكُمْ شُرَكَاءُ لَقَدْ تَقَطَّعَ بَيْنَكُمْ وَضَلَّ عَنكُمْ مَا كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾. و(الأعراف: ٥٣) ﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلاَّ تَأْوِيلَهُ يَوْمَ يَأْتِى تَأْوِيلُهُ يَقُولُ الَّذِينَ نَسُوهُ مِنْ قَبْلُ قَدْ جَاءَتْ رُسُلُ رَبِّنَا بِالْحَقِّ فَهَلْ لَنَا مِنْ

شُفَعَاءَ فَيَشْفَعُوا لَنَا أَوْ نُرَدُّ فَنَعْمَلَ غَيْرَ الَّذِى كُنَّا نَعْمَلُ قَدْ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾. و(يونس: ٢٦ ـ ٢٧) ﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ. وَالَّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئَاتِ جَزَاءُ سَيِّئَةٍ بِمِثْلِهَا وَتَرْهَقُهُمْ ذِلَّةٌ مَا لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مِنْ عَاصِمٍ كَأَنَّمَا أُغْشِيَتْ وُجُوهُهُمْ قِطَعاً مِنْ اللَّيْلِ مُظْلِماً أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾. و(يونس: ٥٤) ﴿وَلَوْ أَنَّ لِكُلِّ نَفْسٍ ظَلَمَتْ مَا فِى الأَرْضِ لافْتَدَتْ بِهِ وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ﴾. و(إبراهيم: ٢١ ـ ٢٢) ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعاً فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعاً فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَىْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ. وَقَالَ الشَّيْطَانُ لَمَّا قُضِىَ الأَمْرُ إِنَّ اللَّهَ وَعَدَكُمْ وَعْدَ الْحَقِّ وَوَعَدْتُكُمْ فَأَخْلَفْتُكُمْ وَمَا كَانَ لِى عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ إِلاَّ أَنْ دَعَوْتُكُمْ فَاسْتَجَبْتُمْ لِى فَلا تَلُومُونِى وَلُومُوا أَنْفُسَكُمْ مَا أَنَا بِمُصْرِخِكُمْ وَمَا أَنْتُمْ بِمُصْرِخِىَّ إِنِّى كَفَرْتُ بِمَا أَشْرَكْتُمُونِى مِنْ قَبْلُ إِنَّ الظَّالِمِينَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾. و(إبراهيم: ٤٤ ـ ٤٥) ﴿وَأَنذِرْ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمْ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخِّرْنَا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نُجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعْ الرُّسُلَ أَوَلَمْ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلُ مَا لَكُمْ مِنْ زَوَالٍ. وَسَكَنتُمْ فِى مَسَاكِنِ الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمْ الأَمْثَالَ﴾.. و(النحل: ٢٤ ـ ٢٥) ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ. لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾. و(النحل: ٢٧) ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِيهِمْ وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِى الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشَاقُّونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْىَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾. و(النحل: ٨٤ ـ ٨٧) ﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لا يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ (٨٤) وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ ظَلَمُوا الْعَذَابَ فَلا يُخَفَّفُ عَنْهُمْ وَلا هُمْ يُنظَرُونَ. وَإِذَا رَأَى الَّذِينَ أَشْرَكُوا شُرَكَاءَهُمْ قَالُوا رَبَّنَا هَؤُلاءِ شُرَكَاؤُنَا الَّذِينَ كُنَّا نَدْعُو مِنْ دُونِكَ فَأَلْقَوْا إِلَيْهِمْ الْقَوْلَ إِنَّكُمْ لَكَاذِبُونَ. وَأَلْقَوْا إِلَى اللَّهِ يَوْمَئِذٍ السَّلَمَ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾. و(النحل: ١١١) ﴿يَوْمَ تَأْتِى كُلُّ نَفْسٍ تُجَادِلُ عَنْ نَفْسِهَا وَتُوَفَّى كُلُّ نَفْسٍ

مَا عَمِلَتْ وَهُمْ لا يُظْلَمُونَ﴾. و(الكهف: ٤٨ ـ ٤٩) ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفاً لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ بَلْ زَعَمْتُمْ أَلَّنْ نَجْعَلَ لَكُمْ مَوْعِداً. وَوُضِعَ الْكِتَابُ فَتَرَى الْمُجْرِمِينَ مُشْفِقِينَ مِمَّا فِيهِ وَيَقُولُونَ يَا وَيْلَتَنَا مَالِ هَذَا الْكِتَابِ لا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلا كَبِيرَةً إِلاَّ أَحْصَاهَا وَوَجَدُوا مَا عَمِلُوا حَاضِراً وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَداً﴾. و(الكهف: ٥٢ ـ ٥٣) ﴿وَيَوْمَ يَقُولُ نَادُوا شُرَكَائِيَ الَّذِينَ زَعَمْتُمْ فَدَعَوْهُمْ فَلَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُمْ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمْ مَوْبِقاً. وَرَأَى الْمُجْرِمُونَ النَّارَ فَظَنُّوا أَنَّهُمْ مُوَاقِعُوهَا وَلَمْ يَجِدُوا عَنْهَا مَصْرِفاً﴾. و(الكهف: ١٠٠ ـ ١٠١) ﴿وَعَرَضْنَا جَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ لِلْكَافِرِينَ عَرْضاً. الَّذِينَ كَانَتْ أَعْيُنُهُمْ فِي غِطَاءٍ عَنْ ذِكْرِي وَكَانُوا لا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعاً﴾. و(مريم: ٧٧ ـ ٨٢) ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِي كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً. أَاطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً. كَلاَّ سَنَكْتُبُ مَا يَقُولُ وَنَمُدُّ لَهُ مِنَ الْعَذَابِ مَداً. وَنَرِثُهُ مَا يَقُولُ وَيَأْتِينَا فَرْداً. وَاتَّخَذُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ آلِهَةً لِيَكُونُوا لَهُمْ عِزّاً. كَلاَّ سَيَكْفُرُونَ بِعِبَادَتِهِمْ وَيَكُونُونَ عَلَيْهِمْ ضِداً﴾. و(مريم: ٨٧) ﴿لا يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً﴾ و(مريم: ٩٥) ﴿وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْداً﴾. و(طه: ٩٩ ـ ١٠١) ﴿كَذَلِكَ نَقُصُّ عَلَيْكَ مِنْ أَنْبَاءِ مَا قَدْ سَبَقَ وَقَدْ آتَيْنَاكَ مِنْ لَدُنَّا ذِكْراً. مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً. خَالِدِينَ فِيهِ وَسَاءَ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ حِمْلاً﴾. و(طه: ١٠٩) ﴿يَوْمَئِذٍ لا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾. و(طه: ١١١) ﴿وَعَنَتِ الْوُجُوهُ لِلْحَيِّ الْقَيُّومِ وَقَدْ خَابَ مَنْ حَمَلَ ظُلْماً﴾. و(الأنبياء: ٩٧) ﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾. و(الفرقان: ٢٦ ـ ٢٩) ﴿الْمُلْكُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ لِلرَّحْمَنِ وَكَانَ يَوْماً عَلَى الْكَافِرِينَ عَسِيراً. وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً. يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلاناً خَلِيلاً. لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِي وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً﴾. و(العنكبوت: ١٢ ـ ١٣) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾.

و(الروم: ١٢ ـ ١٣) ﴿وَيَوْمَ تَقُومُ السَّاعَةُ يُبْلِسُ الْمُجْرِمُونَ. وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ مِنْ شُرَكَائِهِمْ شُفَعَاءُ وَكَانُوا بِشُرَكَائِهِمْ كَافِرِينَ﴾. و(الروم: ٥٧) ﴿فَيَوْمَئِذٍ لا يَنفَعُ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَعْذِرَتُهُمْ وَلا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾. و(سبأ: ٢٣) ﴿وَلا تَنفَعُ الشَّفَاعَةُ عِنْدَهُ إِلاَّ لِمَنْ أَذِنَ لَهُ حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقَّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾. و(سبأ: ٣١ ـ ٣٣) ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذْ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنْ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنتُمْ مُجْرِمِينَ. وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنداداً وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الأَغْلالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلاَّ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. و(سبأ: ٤٢) ﴿فَالْيَوْمَ لا يَمْلِكُ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ نَفْعاً وَلا ضَرّاً وَنَقُولُ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا ذُوقُوا عَذَابَ النَّارِ الَّتِي كُنتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ﴾. و(سبأ: ٥١ ـ ٥٤) ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ. وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ وَأَنَّى لَهُمْ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ. وَقَدْ كَفَرُوا بِهِ مِنْ قَبْلُ وَيَقْذِفُونَ بِالْغَيْبِ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ. وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ كَمَا فُعِلَ بِأَشْيَاعِهِمْ مِنْ قَبْلُ إِنَّهُمْ كَانُوا فِي شَكٍّ مُرِيبٍ﴾ و(فاطر: ١٨) ﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى وَإِنْ تَدْعُ مُثْقَلَةٌ إِلَى حِمْلِهَا لا يُحْمَلْ مِنْهُ شَيْءٌ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَى﴾. و(الصافات: ٢٤ ـ ٣٣) ﴿وَقِفُوهُمْ إِنَّهُمْ مَسْئُولُونَ. مَا لَكُمْ لا تَنَاصَرُونَ. بَلْ هُمْ الْيَوْمَ مُسْتَسْلِمُونَ. وَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَى بَعْضٍ يَتَسَاءَلُونَ. قَالُوا إِنَّكُمْ كُنتُمْ تَأْتُونَنَا عَنْ الْيَمِينِ. قَالُوا بَلْ لَمْ تَكُونُوا مُؤْمِنِينَ. وَمَا كَانَ لَنَا عَلَيْكُمْ مِنْ سُلْطَانٍ بَلْ كُنتُمْ قَوْماً طَاغِينَ. فَحَقَّ عَلَيْنَا قَوْلُ رَبِّنَا إِنَّا لَذَائِقُونَ. فَأَغْوَيْنَاكُمْ إِنَّا كُنَّا غَاوِينَ. فَإِنَّهُمْ يَوْمَئِذٍ فِي الْعَذَابِ مُشْتَرِكُونَ﴾. و(الزمر: ٤٧ ـ ٤٨) ﴿وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً وَمِثْلَهُ مَعَهُ لافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنْ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ. وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾. و(الزمر: ٥٥ ـ ٦١) ﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ

أَنْ يَأْتِيكُمْ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لا تَشْعُرُونَ. أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنْ السَّاخِرِينَ. أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنْ الْمُتَّقِينَ. أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنْ الْمُحْسِنِينَ. بَلَى قَدْ جَاءَتْكَ آيَاتِي فَكَذَّبْتَ بِهَا وَاسْتَكْبَرْتَ وَكُنْتَ مِنْ الْكَافِرِينَ. وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ تَرَى الَّذِينَ كَذَبُوا عَلَى اللَّهِ وُجُوهُهُمْ مُسْوَدَّةٌ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِلْمُتَكَبِّرِينَ. وَيُنَجِّي اللَّهُ الَّذِينَ اتَّقَوا بِمَفَازَتِهِمْ لا يَمَسُّهُمْ السُّوءُ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾. و(غافر: ١٦) ﴿يَوْمَ هُمْ بَارِزُونَ لا يَخْفَى عَلَى اللَّهِ مِنْهُمْ شَيْءٌ لِمَنْ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْوَاحِدِ الْقَهَّارِ﴾. و(غافر: ١٨) ﴿وَأَنذِرْهُمْ يَوْمَ الآزِفَةِ إِذْ الْقُلُوبُ لَدَى الْحَنَاجِرِ كَاظِمِينَ مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ وَلا شَفِيعٍ يُطَاعُ﴾. و(الشورى: ٤٤ ـ ٤٦) ﴿وَتَرَى الظَّالِمِينَ لَمَّا رَأَوْا الْعَذَابَ يَقُولُونَ هَلْ إِلَى مَرَدٍّ مِنْ سَبِيلٍ. وَتَرَاهُمْ يُعْرَضُونَ عَلَيْهَا خَاشِعِينَ مِنْ الذُّلِّ يَنْظُرُونَ مِنْ طَرْفٍ خَفِيٍّ وَقَالَ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ الْخَاسِرِينَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ وَأَهْلِيهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَلا إِنَّ الظَّالِمِينَ فِي عَذَابٍ مُقِيمٍ. وَمَا كَانَ لَهُمْ مِنْ أَوْلِيَاءَ يَنصُرُونَهُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَنْ يُضْلِلْ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ سَبِيلٍ﴾. و(الزخرف: ٦٧) ﴿الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ﴾. و(الدخان: ٤٠ ـ ٤٢) ﴿إِنَّ يَوْمَ الْفَصْلِ مِيقَاتُهُمْ أَجْمَعِينَ. يَوْمَ لا يُغْنِي مَوْلًى عَنْ مَوْلًى شَيْئاً وَلا هُمْ يُنصَرُونَ. إِلاَّ مَنْ رَحِمَ اللَّهُ إِنَّهُ هُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ﴾. و(الجاثية: ٣٣) ﴿وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ﴾. و(ق: ٢١ ـ ٢٩) ﴿وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ. لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ. وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ. أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ. مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ. الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهاً آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ. قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلالٍ بَعِيدٍ. قَالَ لا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ. مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلاَّمٍ لِلْعَبِيدِ﴾. و(المجادلة: ١٨) ﴿يَوْمَ يَبْعَثُهُمْ اللَّهُ جَمِيعاً فَيَحْلِفُونَ لَهُ كَمَا يَحْلِفُونَ لَكُمْ وَيَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ عَلَى شَيْءٍ أَلا إِنَّهُمْ هُمْ الْكَاذِبُونَ﴾. و(الحاقة: ١٨ ـ ٢٠) ﴿يَوْمَئِذٍ تُعْرَضُونَ لا تَخْفَى مِنْكُمْ خَافِيَةٌ. فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمْ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ. إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي

مُلاقٍ حِسَابِيَهْ﴾. و(الحاقة: ٢٥ ـ ٢٩) ﴿وَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِشِمَالِهِ فَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُوتَ كِتَابِيَهْ. وَلَمْ أَدْرِ مَا حِسَابِيَهْ. يَا لَيْتَهَا كَانَتِ الْقَاضِيَةَ. مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ. هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ﴾. و(القيامة: ٢٢ ـ ٢٥) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ. إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ. وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ بَاسِرَةٌ. تَظُنُّ أَنْ يُفْعَلَ بِهَا فَاقِرَةٌ﴾. و(المرسلات: ٣٥ ـ ٤٠) ﴿هَذَا يَوْمُ لا يَنطِقُونَ. وَلا يُؤْذَنُ لَهُمْ فَيَعْتَذِرُونَ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ. هَذَا يَوْمُ الْفَصْلِ جَمَعْنَاكُمْ وَالأَوَّلِينَ. فَإِنْ كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ. وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِلْمُكَذِّبِينَ﴾. و(النبأ: ٣٨ ـ ٤٠) ﴿يَوْمَ يَقُومُ الرُّوحُ وَالْمَلائِكَةُ صَفاً لا يَتَكَلَّمُونَ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَقَالَ صَوَاباً. ذَلِكَ الْيَوْمُ الْحَقُّ فَمَن شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ مَآباً. إِنَّا أَنذَرْنَاكُمْ عَذَاباً قَرِيباً يَوْمَ يَنظُرُ الْمَرْءُ مَا قَدَّمَتْ يَدَاهُ وَيَقُولُ الْكَافِرُ يَا لَيْتَنِي كُنتُ تُرَاباً﴾. و(النازعات: ٣٤ ـ ٣٦) ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الطَّامَّةُ الْكُبْرَى. يَوْمَ يَتَذَكَّرُ الإِنسَانُ مَا سَعَى. وَبُرِّزَتِ الْجَحِيمُ لِمَنْ يَرَى﴾. و(عبس: ٣٣ ـ ٤٢) ﴿فَإِذَا جَاءَتِ الصَّاخَّةُ. يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ. وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ. لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ. وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ. ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ. وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ. تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ. أُوْلَئِكَ هُمُ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾. و(التكوير: ١٢ ـ ١٤) ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ. وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ. عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾. و(الفجر: ٢٧ ـ ٣٠) ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ. ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً. فَادْخُلِي فِي عِبَادِي. وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾.

ويلاحظ أن كثيرًا من هذه الآيات تصف الكفار يوم القيامة بأنهم ينكشف عن عيونهم الغطاء حين يرون حقيقة ما أنذروا به من قبل، فيتذكرون ما ارتكبوه من الذنوب، ويتمنون لو كان بينهم وبين هذه الذنوب أمد بعيد (الكهف: ١٠٠ ـ ١٠١ والأنبياء: ٩٧، والزمر: ٤٨، و ق: ٢١ ـ ٢٢، والنازعات: ٣٤ ـ ٣٦، والتكوير: ١٢ ـ ١٤، والفجر: ٢٣ ـ ٢٤)، ويود الكفار لو يردون إلى الدنيا ثانية فيصلحوا (الأنعام: ٢٧ ـ ٢٨، والأعراف: ٥٣، وإبراهيم: ٤٤ ـ ٤٥، وسبأ: ٥١ ـ ٥٤، والشورى: ٤٤...)، ويتمنون الشفيع ولا شفاعة إلا لمن اتخذ عند الرحمن عهدا ـ فيكفر بعضهم ببعض، ويتخلى بعضهم عن بعض (الأعراف: ٥٣، وإبراهيم: ٢١ ـ ٢٢، والكهف: ٥٢ ـ ٥٣، وسبأ: ٣١

ـ ٣٣، والصافات: ٢٤ ـ ٣٢، والزخرف: ٦٧ ...) فلا يبقى لهم إلا الندم المرير. فهم إذا تعساء بذنوبهم التى انكشفت لهم حين بعد ما بينهم وبين الحياة الدنيا بنوازعها المختلفة وبرزوا لله الواحد القهار ورأوا ما ينتظرهم من العذاب. وهم فى تعاستهم هذه لا يستطيعون الفكاك من ذنوبهم بالعودة إلى حياة جديدة، ولا بشفاعة شفيع، ولا بمعونة قريب أو صديق... هذا مجمل شأنهم يوم القيامة، وفى ضوء هذه الملاحظات، المستمدة من الآيات، نعرض لشرح معنى كلمة «الوزر» الذى وصف الكفار بأنهم يحملونه يوم القيامة (الأنعام: ٣١، والنمل: ٢٥، وطه: ١٠٠).

مادة «وزر» تفيد معنى الثقل، ثم ما يتضمنه الثقل من معانى الرسوخ، والجهد. فالوزر الحمل الثقيل، والفعل منه وزرت الشىء أزره وزرا أى حملته. ولعل هذا هو الأصل الحسى للمادة: الوزر الجبل المنيع، والوزر كل معقل. ومنها أوزار الحرب، وهى أثقالها وآلاتها. ويقال أوزرت الشىء أى أحرزته، ووزرت فلانًا أى غلبته.

ويورد اللغويون مع هذه المعانى الوزر بمعنى الذنب. ولا يحددون هذا المعنى ـ كعادتهم ـ بعصر من العصور، وإن كان صاحب اللسان بنقل عن ابن الأثير: «وأكثر ما يطلق فى الحديث على الذنب والإثم، يقال وزر يزر إذا حمل ما يثقل ظهره من الأشياء المثقلة ومن الذنوب، ووزر وزرا حمله. وفى التنزيل العزيز ولا تزر وازرة وزر أخرى أى لا يؤخذ أحد بذنب غيره ولا تحمل نفس آثمة وزر نفس أخرى ولكن كل مجزى بعمله، والآثام تسمى أوزارًا لأنها أحمال تنقله، واحدها وزر». على أن هذه الإشارة لا يمكن أن تدل بمفردها على أن استعمال الوزر بمعنى الذنب استعمال إسلامى. فنلجأ إلى المفسرين، فنجد الطبرى يقول فى تفسير الأوزار فى (الأنعام: ٣١) «يحملون أوزارهم: يقول آثامهم وذنوبهم، واحدها وزر، يقال منه وزر الرجل يزر إذا أثم. فإن أريد أنهم أثموا قيل قد وزر القوم فهم يوزرون وهم موزرون. وقد زعم بعضهم أن الوزر الثقل والحمل، ولست أعرف ذلك كذلك فى شاهد ولا من رواية ثقة من العرب.» على أن الطبرى ـ وقد ذكر أنه لا يعرف شاهدًا من كلام العرب على أن الوزر بمعنى الحمل ـ لا يروى كذلك كذلك شاهدًا من كلامهم على أن الوزر بمعنى الذنب، وذلك على الرغم من عنايته الشديدة بإيراد الشواهد.

ويمضى الطبرى فيفسر الوزر بالذنب أيضًا فى آية (النحل: ٢٥) ﴿**لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ**﴾. فيقول: «لتكون لهم ذنوبهم التى هم عليها مقيمون من تكذيبهم بالله وكفرهم بما أنزل على رسوله - ﷺ - ومن ذنوب الذين يصدونهم عن الإيمان بالله... وقوله ألا ساء ما يزرون يقول ألا ساء الإثم الذى يأثمون والثقل الذى يتحملون. «فتحس من هذا العطف أنه يجد تفسير الوزر بالذنب لا يستقيم مع ورود الفعل فى ختام الآية، إذ لو فسر قوله يزرون بيأثمون لكان المراد تقبيح ما أتوه هم وحدهم من الذنوب، فيكون هذا التذييل منصبًا على جزء المعنى فقط، والذوق يحس أنه لا يكون واقعًا موقعه إلا إذا كان منصبًا على جميع ما قبله.

على أن إنكار الطبرى لكون الوزر بمعنى الثقل فى كلام العرب، لا تبقى له من قيمة حين يفسر الأوزار فى (طه: ٨٧) ﴿**قَالُوا مَا أَخْلَفْنَا مَوْعِدَكَ بِمَلْكِنَا وَلَكِنَّا حُمِّلْنَا أَوْزَاراً مِنْ زِينَةِ الْقَوْمِ فَقَذَفْنَاهَا فَكَذَلِكَ أَلْقَى السَّامِرِيُّ**﴾ فيقول: «وقوله ولكنا حملنا أوزارًا من زينة القوم يقول ولكنا حملنا أثقالاً وأحمالاً من زينة القوم يعنون من حلى آل فرعون». وليس فى كلام العرب شاهد أقطع من القرآن على أن الوزر استعمل بمعنى الثقل والحمل.

ويظهر لنا أن الطبرى تأثر بما وراء من التفاسير فى أن الوزر بمعنى الإثم، وهى تفاسير قصد بها دلالة اللفظ فى الآية وحسب كما أوضحنا فى مقدمة هذه الرسالة عند كلامنا عن خصائص التفسير المأثور، فوقع فى الاضطراب فى تفسير الوزر فى غير موضع. على أننا نجد مثل هذا الاضطراب أيضًا عند الزمخشرى فى تفسير آية (طه: ١٠٠) ﴿**مَنْ أَعْرَضَ عَنْهُ فَإِنَّهُ يَحْمِلُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وِزْراً**﴾: «يريد بالوزر العقوبة الثقيلة الباهظة، سماها وزرا تشبيهًا فى ثقلها على المعاقب وصعوبة احتمالها بالحمل الذى يفدح لحامل وينقض ظهره ويلقى عليه بهره، أو لأنها جزاء الوزر وهو الإثم». فقد جوز كون الوزر بمعنى الإثم أو بمعنى الحمل الثقيل، ثم قال إنه على الحالين فهو فى الآية مجاز عن العقوبة الباهظة.

والقارئ يجد نفسه أكثر أنسًا بالمعنى الثانى لما يجده فى آية الأنعام من حمل الأوزار على الظهور.

على أن الراغب يقول فى تفسير الوزر: «والوزر الثقل (تشبيهًا بوزر الجبل) ويعبر بذلك عن الإثم كما يعبر عنه بالثقل. قال ليحملوا أوزارهم، الآية، كقوله وليحملن أثقالهم وأثقالاً مع أثقالهم». فيفسر الوزر بأنه الثقل، ويقول إنه عبر به عن الإثم، أى استعمل فيه مجازًا. والنص الذى نقلناه من ابن الأثير يقرر أن هذا الاستعمال كثير فى الحديث. وكون الوزر لم ينقل فيه شاهد عن العرب الجاهلين بمعنى الإثم، يجعلنا أميل إلى القول بأن هذا الاستعمال استعمال إسلامى، وأن الوزر استعير فى القرآن للذنب «وهم يحملون أوزارهم على ظهورهم»؛ أى يحملون جرائمهم التى ارتكبوها، وتلزمهم وحدهم ويتعذبون بها خالدين فيها. وذلك نظير قوله: **﴿وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَا عَمِلَتْ﴾** (الزمر: ٧٠) **﴿وَمَنْ يَغْلُلْ يَأْتِ بِمَا غَلَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾** (آل عمران: ١٦١) **﴿سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا بِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾** (آل عمران: ١٨٠) أخرج مخرج التصوير لحالتهم وتجسيمها للحس.

وتتبع استعمال الوزر فى القرآن فى غير الآيات السابقة يدل على أن الوزر لم يستعمل فيه بمعنى الإثم إلا على سبيل الاستعارة كما ذكرنا: **﴿وَلا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى﴾** (الأنعام: ١٦٤، والإسراء: ١٥، وفاطر: ١٨، والزمر: ٧، والنجم: ٣٨) إذا فسر الوزر بالإثم كان المعنى لا تأثم نفس إثم نفس أخرى، وهذا فهم لا يعطى شيئًا. أما إذا فسر الوزر بالحمل فيكون المعنى لا تحمل نفس حمل نفس أخرى ولا تخفف عنها شيئًا من ذنوبها التى ستلزم إياها يوم القيامة.

وكذلك آية (الشرح: ٢) **﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ الَّذِى أَنقَضَ ظَهْرَكَ﴾**. فقد فسر الوزر هنا بالذنوب الصغيرة التى كانت تثقل صدر الرسول قبل بعثه فغفرها الله له. ولعل كون الوزر هنا مستعار للدلالة على هم النفس لما لا يستريح إليه من الأعمال التى يأتيها أو عادات أهله التى يكره ممارستها، أولى من حمله على الذنوب الصغيرة التى غفرها الله للرسول بعد البعثة؛ لأن الوزر هو الحمل الثقيل، فلأجدر أن يكون مجازًا عن الشىء الثقيل لا عن الشىء اليسير. ولا يكفى أن يقال إن هذه الذنوب اليسيرة فى نفسها كان

الرسول يجدها ثقيلة، لأن الآية لا تدل بمفردها على هذا المعنى، ثم السياق سياق ذكر لنعم الله الكبرى على الرسول.

فاستعمال كلمة «الوزر» فى شأن الكفار يوم القيامة، هو ـ فى نظرنا ـ استعارة تصور حالتهم فى ذلك اليوم، وهم ينتظرون الحساب والجزاء، من شعورهم بفظاعة ما ارتكبوه من الذنوب، ولزوم هذه الذنوب لهم حين لا يستطيعون العودة إلى الحياة فيكون فى مقدورهم أن يذهبوا السيئة بالحسنة، مع ما فى هذه الاستعارة من إشارة إلى ما هم فيه من ذل، بعد أن كانوا فكهين لاعبين يسخرون من المؤمنين.

وجاء وصف حال المؤمنين عند الحسا فى (آل عمران: ١٠٦ ـ ١٠٧) **﴿يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ. وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾**. و(يونس: ٢٦) **﴿لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَى وَزِيَادَةٌ وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ أُولَئِكَ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾**. و(الحاقة: ١٩ ـ ٢٠) **﴿فَأَمَّا مَنْ أُوتِيَ كِتَابَهُ بِيَمِينِهِ فَيَقُولُ هَاؤُمُ اقْرَءُوا كِتَابِيَهْ. إِنِّي ظَنَنْتُ أَنِّي مُلاقٍ حِسَابِيَهْ﴾**. و(القيامة: ٢٢ ـ ٢٣) **﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ. إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾**. و(عبس: ٣٨ ـ ٣٩) **﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ. ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ﴾**. و(الفجر: ٢٧ ـ ٣٠) **﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ. ارْجِعِي إِلَى رَبِّكِ رَاضِيَةً مَرْضِيَّةً. فَادْخُلِي فِي عِبَادِي وَادْخُلِي جَنَّتِي﴾**.

وقد اختلف فى تفسير قوله تعالى «إلى ربها ناظرة»، فتمسك بها أهل السنة فى إثبات أن المؤمنين يرون الله تعالى يوم القيامة، وقال المعتزلة إن ظاهر الآية لا يدل على ذلك. وقد جمع الفخر الرازى حجج المعتزلة التى أوردها صاحب الكشاف وغيره، ورد على إنكارهم كون النظر بمعنى الرؤية، ثم على وجوه التأويل التى جاءوا بها للآية، على طريقة القوم من إيراد المقدمات والنتائج المنطقية، فى واد من البحث العقلى المجرد: «وإنما نعنى بهذا الجدل لما جاء فيه من الشواهد اللغوية على معنى النظر»، إذ كان أصل بحثنا هنا تحقيق معانى المفردات، وكنا

نطمح من ذلك إلى أن يكون فهمنا للمعانى وذوقنا لأساليب التعبير على أساس من الفهم اللغوى السليم.

احتج المعتزلة لكون النظر المقرون بحرف إلى لا يدل على الرؤية، بل على مقدمة الرؤية التى هى تقلب الحدقة نحو المرئى التماسًا لرؤيته، بقوله تعالى ﴿وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾ (الأعراف: ١٩٨)، فأثبت النظر حال عدم الرؤية، وبأنه يقال انظر إليه حتى تراه ونظرت إليه فرأيته، وبقولهم دور فلان متناظرة أى متقابلة، ويقول الشاعر:

وجوه ناظرات يوم بدر … إلى الرحمن تنتظر الخلاصا

وقالوا احتج أبو على الفارسى على أن النظر ليس عبارة عن الرؤية التى هى إدراك النصر، بل هو عبارة عن تقليب الحدقة إلى الجهة التى فيها للشىء الذى يرد رؤيته يقول الشاعر:

فيا مى هل يجزى بكائى بمثله … مراراً وأنفاسى إليك الزوافر

وأنى متى أشرف على الجانب الذى به أنت من بين الجوانب ناظر

فلو كان النظر عبارة عن الرؤية لما طلب الجزاء عليه؛ لأن المحب لا يطلب الثواب على رؤية المحبوب فإن ذلك من أعظم مطالبه. قال ويدل على ذلك أيضًا قول الراجز:

ونظرة ذى شجن وامق … إذا ما الركائب جاوزن ميلا

وأورد الفخر غير هذه الأدلة اللغوية دليلين عقليين وهما ما قاله الزمخشرى من أن تقديم الجار والمجرور يفيد معنى الحصر، والمؤمنون نظارة ذلك اليوم فهم يرون غير الله، فبطل على ذلك القول بأن النظر يدل على الرؤية لأن ذلك لو صح ما جاء الحصر. والدليل الثانى قوله تعالى ولا ينظر إليهم يوم القيامة فلو قيل إن النظر هنا بمعنى الرؤية لكان ذلك كفرًا... ويفسر المعتزلة النظر فى هذه الآية بالانتظار أو يقدرون حذف المضاف فيكون المعنى إلى ثواب ربها ناظرة، أو أن يكون معنى قوله إلى ربها ناظرة أنها لا تسأل ولا ترغب إلا إلى الله، وهو

المراد ـ قالوا ـ من قوله ﷺ اعبد الله كأنك تراه؛ فأهل القيامة لشدة تضرعهم إليه وانقطاع أطماعهم عن غيره صاروا كأنهم ينظرون إليه. ويلاحظ أن هذا التأويل الأخير قائم برأسه بين ما نقله الفخر من أقوال المعتزلة، إذ أنه لا يعتمد على إنكار كون النظر بمعنى الرؤية كسابقه.

ويرد الفخر على أقوال المعتزلة فيدفع قولهم إن النظر معناه تقلب الحدقة لرؤية الشىء بما حكى الله تعالى عن موسى ـ عليه السلام ـ، وهو قوله انظر إليك (الأعراف: ١٤٣)، فلو كان النظر عبارة عن تقليب الحدقة إلى جانب المرئى لاقتضت الآية أن موسى ـ عليه السلام ـ أثبت لله ـ تعالى ـ جهة ومكانًا وذلك محال؛ وبأنهم قالوا إن الرؤية مترتبة على النظر وتقليب الحدقة غير متقدم على الرؤية... ثم قال إننا إذا سلمنا بأن النظر عبارة عن تقليب الحدقة وكان حمله على حقيقة المعنى محالاً كما سبق القول فحمله على معنى الرؤية أولى من حمله على معنى الانتظار، لأن تقليب الحدقة سبب للرؤية وليس سببًا للانتظار، فالمجاز مفهوم فى الأول غير مفهوم فى الثانى. وأنكر الفخر تأويل المعتزلة للآية بأن النظر يدل على الانتظار والتوقع من حيث اللفظ ومن حيث المعنى؛ فمن حيث اللفظ قال إن ذلك يقتضى الاشتراك، وإن هذا البيت:

وجوه ناظرات يوم بدر إلى الرحمن تنتظر الخلاصا

مصنوع: ولرواية الصحيحة:

وجوه ناظرات يوم بكر إلى الرحمن تنتظر الخلاصا

والرحمن هنا هو مسيلمة الكذاب وكان أصحابه ينظرون إليه ويتوقعون منه التخليص من الأعداء.

ثم أنكر كون النظر المقرون بإلى يدل على الانتظار من حيث المعنى بأن لذة الانتظار مع يقين الوقوع كانت حاصلة فى الدنيا فلا بد وأن يحصل فى الآخرة شىء أزيد منه.

وأنكر التأويل الثانى بأن المعنى إلى ثواب ربها ناظرة فقال إنه ترك للظاهر بغير دليل عقلى ولا نقلى، إذ كانت الأدلة العقلية والنقلية عنده قائمة على رؤية المؤمنين لله يوم القيامة.

هذه خلاصة ما أورده الفخر من أقوال المعتزلة فى معنى النظر إلى الله ورده عليها. ويلاحظ أنه ترك مناقشة الشواهد التى جاء بها المعتزلة على كون النظر غير مساو للرؤية، واكتفى بنقض ما نسب إليهم أنهم قالوه من أن النظر يعنى تقليب الحدقة لرؤية الشىء. ثم ترك التأويل الثالث الذى ذكروه من كون نظر المؤمنين إلى الله تعبيراً عن شدة تضرعهم إليه وانقطاع أطماعهم عن غيره؛ لم يعرض له بشىء من البحث. وهذه الطريقة فى البحث سمة مميزة من سمات التفسير العقلى التى أشرنا إليها فى المقدمة، إذ تنحصر قيمة البحث اللغوى عند المفسر فى استنباط الحجج التى يمكن الاستدلال بها على صحة عقيدته أو الطعن فى رأى خصمه.

فإذا تركنا هذه المجادلات العقلية واتبعنا طريقتنا الأدبية فى دراسة دلالة الكلمة اللغوية وألوان هذه الدلالة ثم تطبيق هذا الفهم على استعمالها فى الآية وذوق معناها هنالك ذوقًا نفسيًا وفنيًا، مسترشدين بما ورد من الآيات الأخرى فى بابها - قلنا لا شك إن النظر غير الرؤية كما تدل على ذلك الشواهد التى جاء بها المعتزلة تأييداً لصحة قولهم من القرآن والشعر؛ وقول صاحب القاموس: نظره... تأمله بعينه؛ وقول صاحب اللسان: النظر حس العين؛ ولم يقولا هو الرؤية أو الإبصار أو الإدراك بالبصر. فالنظر يدل على فعل الناظر، وإن جاز أن يدل بسياقه على نتيجة هذا الفعل. ولذلك استعمل بمعنى الانتظار، وعدى بحرف الجر «فى» ليدل على معنى إحالة الفكر. واقترانه بإلى يقوى دلالة الفعل على حالة الناظر، دون دلالته على نتيجة النظر؛ ألا ترى إلى أن حرف الجر نوع من الظرف، فتعلقه بالفعل أدنى إلى أن يكون تحديداً لهذا الفعل، منه إلى أن يكون تكملة لمعناه.

ويؤيد هذا القول أن أكثر استعمال النظر فى القرآن أكثر نتلو بأداة استفهام يقصد بها الإرشاد أو التعجيب إذا كان فعل أمر. فمن ذلك قوله: **﴿أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِى الأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ﴾** (يوسف: ١٠٩) **﴿انظُرْ**

كَيْفَ كَذَبُوا عَلَى أَنفُسِهِمْ وَضَلَّ عَنْهُمْ مَا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾ (الأنعام: ٢٤) **﴿وَأَمْطَرْنَا عَلَيْهِمْ مَطَراً فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُجْرِمِينَ﴾** (الأعراف: ٨٤).

واستعمل النظر مقرونًا بإلى فى آية (البقرة: ٢٥٩): **﴿أَوْ كَالَّذِى مَرَّ عَلَى قَرْيَةٍ وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا قَالَ أَنَّى يُحْيِي هَذِهِ اللَّهُ بَعْدَ مَوْتِهَا فَأَمَاتَهُ اللَّهُ مِائَةَ عَامٍ ثُمَّ بَعَثَهُ قَالَ كَمْ لَبِثْتَ قَالَ لَبِثْتُ يَوْماً أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ قَالَ بَل لَّبِثْتَ مِائَةَ عَامٍ فَانظُرْ إِلَى طَعَامِكَ وَشَرَابِكَ لَمْ يَتَسَنَّهْ وَانظُرْ إِلَى حِمَارِكَ وَلِنَجْعَلَكَ آيَةً لِلنَّاسِ وَانظُرْ إِلَى الْعِظَامِ كَيْفَ نُنشِزُهَا ثُمَّ نَكْسُوهَا لَحْماً فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**. وواضح أن المراد من النظر هنا هو الاعتبار وإجالة الفكر بدليل قوله: **﴿فَلَمَّا تَبَيَّنَ لَهُ قَالَ أَعْلَمُ أَنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**. وفى (آل عمران: ٧٧): **﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَناً قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لا خَلاقَ لَهُمْ فِي الآخِرَةِ وَلا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلا يَنظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ﴾**. وقد احتج المعتزلة بهذه الآية على أن النظر ليس معناه الرؤية، ويظهر لنا أن المراد به هنا هو التكريم، من أن الشىء إذا راعاه المرء فهو مكرم له، كقولهم هو فى عينى للدلالة على هذا المعنى. وفى (الأنعام: ٩٩): **﴿وَهُوَ الَّذِى أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ نَبَاتَ كُلِّ شَيْءٍ فَأَخْرَجْنَا مِنْهُ خَضِراً نُّخْرِجُ مِنْهُ حَبّاً مُّتَرَاكِباً وَمِنَ النَّخْلِ مِن طَلْعِهَا قِنْوَانٌ دَانِيَةٌ وَجَنَّاتٍ مِّنْ أَعْنَابٍ وَالزَّيْتُونَ وَالرُّمَّانَ مُشْتَبِهاً وَغَيْرَ مُتَشَابِهٍ انظُرُوا إِلَى ثَمَرِهِ إِذَا أَثْمَرَ وَيَنْعِهِ إِنَّ فِي ذَلِكُمْ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾**. فالمراد من النظر فى هذه الآية هو التأمل والاعتبار. وفى (الأعراف: ١٤٣): **﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ قَالَ رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ قَالَ لَن تَرَانِي وَلَكِنِ انظُرْ إِلَى الْجَبَلِ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي﴾**. فالمقصود بالنظر إلى الله هنا هو ما كان يطمع فيه موسى من لذة النظر، ولذلك رتب على إراءة الله إياه. أما النظر فى أمر الله إياه بالنظر إلى الجبل فمعناه توجيه العينين تلقاءه، إذ ليس الجبل هو المقصود بالرؤية. وفى (الأعراف: ١٩٨): **﴿وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى الْهُدَى لا يَسْمَعُوا وَتَرَاهُمْ يَنظُرُونَ إِلَيْكَ وَهُمْ لا يُبْصِرُونَ﴾**. و(التوبة: ١٢٧) **﴿وَإِذَا مَا أُنزِلَتْ سُورَةٌ نَّظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاكُم مِّنْ أَحَدٍ ثُمَّ انصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُم بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لا يَفْقَهُونَ﴾**.

و(يونس: ٤٣) ﴿وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْظُرُ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَهْدِي الْعُمْيَ وَلَوْ كَانُوا لا يُبْصِرُونَ﴾. والسياق فى هذه الآيات الثلاث دال على معنى التحير كما قال الراغب. وفى (طه: ٩٧) ﴿وَانْظُرْ إِلَى إِلَهِكَ الَّذِي ظَلْتَ عَلَيْهِ عَاكِفاً لَنُحَرِّقَنَّهُ ثُمَّ لَنَنْسِفَنَّهُ فِي الْيَمِّ نَسْفاً﴾. وسياق هذه الآية يدل على تأمل فيه شىء من اللهفة. وفى (الأحزاب: ١٩) ﴿فَإِذَا جَاءَ الْخَوْفُ رَأَيْتَهُمْ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ تَدُورُ أَعْيُنُهُمْ﴾. و(محمد: ٢٠) ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا لَوْلا نُزِّلَتْ سُورَةٌ فَإِذَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مُحْكَمَةٌ وَذُكِرَ فِيهَا الْقِتَالُ رَأَيْتَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يَنْظُرُونَ إِلَيْكَ نَظَرَ الْمَغْشِيِّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَوْتِ فَأَوْلَى لَهُمْ﴾. والنظر كما يظهر من هاتين الآيتين الأخيرتين تحير فى فزع. وجاء معنى الاعتبار أيضًا فى (ق: ٦) ﴿أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ﴾ و(عبس: ٢٤ ـ ٢٧) ﴿فَلْيَنْظُرِ الإِنْسَانُ إِلَى طَعَامِهِ. أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبّاً. ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقّاً. فَأَنْبَتْنَا فِيهَا حَبّاً ..﴾.

ويظهر من هذا البحث أن الشواهد على استعمال «النظر» فى الشعر وفى القرآن تدل على أنه اسم لفعل الرائى، أى أنه ملحوظ فيه الشخص المبصر لا الشىء المبصر، ولهذا فأكثر ما يجىء دالاً على الاتجاه بالعين غالبًا مع دلالته على حالة الناظر، والسياق يحدد هذه الدلالة فى كل موضع.

فإذا بحثنا فى سياق آيتى (القيامة: ٢٢، ٢٣) ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ. إِلَى رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾ لاحظنا ما يدل عليه وصفهم بالنضرة من السرور العظيم، ولاحظنا إضافة «رب» إلى ضمير المؤمنين أو الوجوه، والرب هو المربى، ففى إضافته إلى ضمير المؤمنين معنى من الإعزاز لا يخفى. كذلك نجد فى غير هذه الآية من الآيات التى وردت فى وصف حال المؤمنين يوم القيامة، كوصفهم بإسفار الوجوه واستبشارها وأنهم لا يرهقهم قتر ولا ذلة. فأرجح أن المراد بقوله «إلى ربها ناظرة» أن المؤمنين لا يشغلهم عن الله شاغل فى ذلك اليوم مما كان قمينًا أن يشغلهم فى الدنيا، فنفوسهم منصرفة إلى محبته، وهم من ذلك فى الغاية القصوى من السعادة.

الباب الثانى

الأساليب

تمهيد
فى أسلوب الوصف

الأسلوب عندنا هو طريقة التعبير. وطريقة التعبير لا تنفصل من المعنى الذى يراد التعبير عنه، بل إن بينهما عروة وثقى، فإذا شبهنا الأسلوب والفكرة فلا ينبغى أن نشبههما بالمادة والقالب الذى تصب فيه، بل بالجسم الإنسانى الذى تأتلف أجزاؤه المختلفة، وأجهزته المتخصصة، على القيام بوظيفة واحدة كبرى، هى «الحياة»؛ فكذلك الأسلوب: هو طريقة ائتلاف المعانى الجزئية، لتؤدى غرض الأدب، وهو التعبير عن التجربة الوجدانية. وإن نسيان هذه الرابطة الوثيقة، ليؤدى بالباحثين فى البلاغة والنقد الأدبى، إلى إحدى اثنتين: إما اعتبار المعانى الأدبية شيئًا قائمًا فى الذهن منفصلاً عن الألفاظ يتوصل إليه بالتفكير العقلى المجرد، وبذلك يهملون قيمة الألفاظ التعبيرية، وما يتضمنه اللفظ الأدبى فى ثناياه من معان كثيرة، تدور حول المعنى الحرفى، ويلزم الإحساس بها جميعًا لأداء التجربة الوجدانية واستقبالها كما أرادها القائل، بحيث لا يغنى لفظ غناء لفظ آخر اختاره القائل للتعبير عن المعنى الذى يريد؛ وإما اعتبار صور التعبير، من مجاز وتشبيه واستعارة، أنواعًا من الزينة، وضروبًا من الحلية، تروع بما فيها من طرافة، ويكد الذهن فى البحث عنها، والتقاطها من أبعد مظانها، والمعنى بعد مستغن عنها، قائم بدونها. وأصحاب هذا الرأى يهونون من شأن المعانى، ويعدون حلاوة جرس اللفظ، أو غرابة التشبيه، أو حسن التأليف بين أجزائه، معيار الفن العالى؛ كما هون أصحاب الرأى الأول من شأن الألفاظ، ودلالتها الوجدانية، وحسبوا المعانى الأدبية شيئًا يدرك بالاستقلال عن هذه الدلالات.

وعندنا أن الاتفاق على ما يراد «بالمعانى الأدبية» هو الحكم الفيصل فى هذا الخلاف. فليست المعانى الأدبية كالمعانى الحكمية، ولا المعانى الفلسفية، ولا المعانى العلمية؛ إذ ليس المعنى الأدبى هو الرأى النافذ فى شئون الحياة والأحياء، ولا البحث المرتب فى مسائل الوجود، ولا القانون الطبيعى الناشئ عن ملاحظة وتجريب... بل هو شىء غير هذا كله، وأعم من هذا كله؛ هو نتيجة لتفاعل النفس الإنسانية، بكل ما فيها من قوى إدراكية، ودفعات غريزية، وعواطف ومطامح، وميول ونزعات، مع مجالى الطبيعة التى يلابسها المرء، والقوى التى يحس بوجدانه أنها تهيمن على هذه الطبيعة أو تجول فيها وتضطرب بين ثناياها.. والمعنى الأدبى بعبارة أخرى، هو خاطرة تصور جانبًا من جوانب الكون، أثر فى وجدان المنشئ، فهو ينقل هذا التأثير إلى نفس القارئ أو السامع. وهذه المعانى معقدة متشابكة بطبيعتها، وهى لا تضبط ولا تحصر، وليس لها حد تقف عنده، ولا مدى تنتهى إليه. ويرجع ذلك إلى الفروق النفسية الكثيرة بين جيل وجيل، وبين أمة وأمة، ثم إلى الفروق النفسية الفردية، واختلاف المزاج الذى تتألف منه نفسية كل فرد، كاختلاف السمات والملامح. فوسيلة التعبير عن المعانى الأدبية لاينبغى أن تكون هى الوسيلة المضبوطة المحصورة، التى تتحدد دلالتها عند الناس جميعًا بعد قليل أو كثير من إعمال الفكر؛ بل هى الوسيلة المرنة الطيعة، التى تحتمل ما يضفيه عليها الفنان، من ضروب الإحساس، وألوان الوجدان، فقد تكون هذه الوسيلة مادة يعمل فيها الفنان يده وجنانه، ليصورها كما يشاء ويهوى، على غير مثال سابق، لا نمط متبع. وقد تكون هذه الوسيلة هى الألفاظ. واللغة الأدبية هى أقوى وسائل التعبير الوجدانى، وأنفذها أثرًا: كيف لا وقد صحبت الإنسان طفلاً وصبيًا وشابًا، وتصحبه رجلاً وكهلاً وشيخًا، وهى أقرب وسيلة يعبر بها عن نوازع نفسه، ومطالب حسه، ومرامى خياله؟ فكل لفظ فى لغة الحياة العادية قد اكتسبت فى حياته الطويلة فنونًا من المعانى، وألوانًا من الدلالات لا تفتأ تتسع وتعمق، ما بقيت اللغة، وما بقى اللفظ فى اللغة. وهذا البحث فى مادة الأدب ـ الألفاظ ـ يقودنا إلى مسألتين نرى من الضرورى أن نطمئن إلى رأى فيهما قبل أن نقدم على بحث «أسلوب القرآن فى وصف القيامة». وهاتان المسألتان هما:

دلالة الألفاظ الحسية؛ والفرق بين تصوير مشاهد الطبيعة فى الأدب وتصويرها فى الفنون التجسيمية.

فأما عن المسألة الأولى، أعنى دلالة الألفاظ الحسية، فقد فتن بعض معاصرينا بما زعموه أساس التعبير الأدبى، بل سر الإعجاز القرآنى، من مقدرة اللفظ على أن يثير فى ذهن السامع صورًا حسية مقدرة يسمونها تارة تصويرًا، وتارة تجسيمًا، وتارة تخييلا[1]... ولئن كنا نجد فى هذا القول مشابهًا من بعض ما كتبه عبد القاهر عن التشبيه، وما نجده فى الكتب البلاغة المدرسية نفسها من البحث فى فائدة التشبيه، وأنه يوضح المعنى فى ذهن السامع ويقرره، برد المجهول البعيد إلى المشهود المتعارف.. لئن كنا نجد فى هذه المقالة المحدثة شبهًا ببعض ما ذكره الأقدمون فى معرض الكلام على مزية التشبيه، إننا لنجدها أقرب لحمة وأوضح نسبًا بما أفاض فيه بعض نقّاد الغرب من البحث فى «ورجع قيمة التعبير إلى ما يثيره الألفاظ بمدلولها أو بجرسها أو بائتلاف نغمها من الصور الحسية المبصرة بالعين أو المسموعة بالأذن[2]. ولو قد اكتفى هؤلاء وأولئك بإثبات ما يكون لتجسيم المعنى من أثر فى توضيحه وتقريبه إلى ذهن السامع ما كان لنا عليهم من سبيل؛ ولكننا ننكر أن يكون ذلك الصنيع هو أصل العمل الأدبى ولبابه، فاللغة الإنسانية ـ وإن لم تخل من محاكاة للواقع الخارجى الملموس ـ ليست صورة مطابقة لذلك الواقع، بل هى ـ فى مجموعها ـ ردود أفعال له؛ فإذا ذهبنا نلتمس رابطة مطردة بين جرس اللفظ ومدلوله ضللنا فى مطاوى النفس البشرية، ولم نهتد إلى أصل يعتمد عليه فى تقرير هذه الرابطة: ما هى، وما قوانينها التى تضبطها؟. والأديب إذن حين يستخدم الألفاظ للتعبير عن معناه يعتمد على ارتباطاتها الوجدانية فى ذهن السامع، ولا يعتمد بالضرورة على ما تثيره من صور حسية. ومثال واحد يكفى لتوضيح ما نقول: إليك لفظة «الموت» مثلا: ماذا تثيره بجرسها ـ أو بغير جرسها ـ من دلالة على صورة الميت؟ لا أظنها تثير فى

---

(١) سيد قطب: التصوير الفنى فى القرآن. صفحات: ٢١ ـ ٢٢ و٥٩ ـ ٦٠ و١٩٠ ـ ١٩٣.

(٢) انظر هذا الرأى والرد عليه فى كتاب

I.A. Richards: The philosophy of Rethoric. PP. 16, 17, 98, 103.

ذهنك شيئًا من ذلك، أو تثير شيئًا ذا بال، إلا أن تكون ممن يسميهم علماء النفس بالسمعيين أو البصريين إلخ، أى الذين لا يدركون الشى إلا متجسمًا لأسماعهم أو لأبصارهم إلخ. وهذه الفروق هى مما يعنى به «علم النفس الفردى» لبيان اختلاف الأفراد فى طرق الفهم والتعلم، لا لتفسير الإنتاج الأدبى أو الفهم الأدبى عامة. فإذا جاءوا إلى دلالة الألفاظ قالوا إن الألفاظ تفهم بما يرتبط بها فى ذهن قائلها أو سامعها من تجارب نفسية، أكثر مما تفهم بصورها الحسية. فكلمة «الموت» تثير فى ذهنك بارتباطاتها المعنوية، الوجدانية، ما لا يحصى من الأحاسيس، من جمود كجمود الحجر، أو عدم وخواء، أو انقطاع وفناء، أو فراغ ضخم يتحسر عنه البصر. ألست ترى إذا أن لفظة الموت شديدة الإيحاء، عميقة الأثر، وأن قوتها ليست راجعة إلى ما ترسمه لناظريك من صورة أو صور حسية، بل إلى مالها فى ذهنك من ارتباطات وجدانية؟ وما يصدق على الكلمة المفردة يصدق على الصورة الأدبية. فهل ترى بعد ما أسلفناه أن قيمة التشبيه الرائع، أو الاستعارة البليغة، ترجع إلى ما يثيره التشبيه أو الاستعارة من صور حسية؟ أحسب أن لا. إنما ترجع قيمة التشبيه ـ وهو عمود التعبير الفنى فى الأدب ـ إلى أنه مزاوجة بين معنيين؛ أى إلى أنه يريك فى الشىء شيئًا آخر؛ فيبرز لك من الأول معنى كان خافيًا عليك؛ هو تأليف واختراع فى المعانى والمشاعر، وآية ذلك أن تحس اللفظ المستعار، حين تعرضه على ذوقك ووجدانك، شيئًا غير المستعار منه أو المستعار: له: هو تلك الصور الجديدة أو المخترعة، التى يعرضها عليك القائل ثمرة لتجربة وجدانية عميقة. وإنا لمهدون إليك مثالاً أو مثالين لتوضيح ما نقول:

انظر قوله تعالى من ذكر يوم القيامة: ﴿يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ. وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ﴾ (القارعة: ٤ ـ ٥)؛ تقول البلاغة المدرسية إنه شبه الناس فى تفرقهم وضعفهم بالفراش، وشبه الجبال فى انعدام تماسكها بألوان الصوف. فوجه الشبه فى الأول هو الضعف والانتشار. وفى الثانى هو سقوط القوة وانعدام التماسك. وقصدهم من ذلك أنه أراد وصف الناس بالضعف والانتشار فاختار لذلك الوصف شيئًا يظهر فيه الضعف والانتشار على

أتم ما يكونان، وهو الفراش، وزاد «المبثوث» ليؤكد المعنى، وأراد وصف الجبال بسقوط القوة وانعدام التماسك فاختار الصوف المنفوش كذلك. ويتلقف صاحب «التصوير الحسى» هذا التعبير الميت، عن صنيع أدبى حى، ليقول لك: أى روعة كنت تحسها لو قال قائل: يوم يكون الناس متفرقين منتشرين، وتكون الجبال واهية ساقطة القوة؟ أليست روعة التشبيه فى الموضعين راجعة إلى أنهما لا يضعان أمامك معانى مجردة، بل صورة حسية للفراش فى ضعفه وانتشاره، وأخرى للصوف فى انتفاشه؟[1].

وارجع إلى نفسك بعد أن سمعت هذين القولين فتلمس مواقع الوضعين من نفسك. فسترى أن روعة التشبيه الأول راجعة إلى أنه فرق بين المعانى والمشاعر التى تدور حول «الإنسية»، والمعانى والمشاعر التى تدور حول «الفراشية»، فى حالة من الحالات. فلديك «أناس»، بما تحمله كلمة الناس من معان مختلفة واسعة، أكبرها التقلب بين القوة والضعف، والعلم والجهل، والفضيلة والرذيلة، ولديك «فراش» بما يثيره هذا اللفظ من معانى الضعف، والخفة، والتفرق، والانتشار، والفزع لأقل حركة، والارتماء على كل ضوء، وهذه الحركة العنيفة التى لا يزال يحاولها بجناحيه الضعيفين، وهى منتهية به آخر الأمر إلى الهلاك. ولديك الناس والفراش مجتمعين: لديك ما تثيره لفظة «الناس» من مشاعر وما تثيره لفظة «الفراش» من مشاعر.. صورة جديدة للناس عند فزعهم وتهافتهم، صورة تثير فى نفسك شيئًا من الأسى وتبصرك بمعان للإنسانية ما رأيتها من قبل.

وانظر فى تشبيه الجبال بالعهن المنفوش. فهنا الجبال بما توحيه فى الذهن من معانى الرسوخ الشموخ؛ تلك الجبال التى تأوى إليها العصم، والتى تشد إليها

(١) مما تجد الإشارة إليه أن أصحاب التصوير الحسى يتوهمون أن الأصل فى العبارة أن تدل على المعنى مجردًا، وأن تجسيمها للحس هو عمل الأديب الفنان. وأقل ملاحظة فى طبيعة التعبير العادى تكفى لنقض هذا المعنى. فالمعانى المجردة هى أقل المعانى استعمالا، والناس يعبرون عادة عن المظاهر الحسية، فيعبرون عن الفزع بوقوف القلب عن الحركة مثلا، كما يعبرون عنه بوقوف شعر الرأس. فلعل الصواب إذ أن يقال إن هذه اللغة القريبة إلى الحس هى مما يفرق به بين لغة الحياة العادية واللغة التى يصطنعهما الفلاسفة. ويبقى بعد ذلك أن لغة الأدب هى طراز ممتاز من هذه للغة العادية التى يفهمها الناس جميعًا. وعلى الناقد حين يبحث عن مزايا التعبير الأدبى أن يكشف عما به يكون هذا الامتياز.

نجوم السماء إذا أبى الليل أن يزول. هذا الشموخ وهذا العلو وهذه القوة كل ذلك مقرون بما حول العهن المنفوش من معان: معنى التفكك والانحلال، ومعنى الكبر الذى لا يتناسب مع القوة، ومعنى الخضوع والطواعية للأيدى، التى تتصرف فيه بالصبغ والنفس والغزل وما إلى ذلك... وهذه الأحاسيس المختلفة يأتلف منها إحساس جديد، بالقدرة البالغة التى تحيل هذه المادة القوية مادة لا تماسك فيها ولا صلابة.

وانظر كلمة «الوزر» فى وقوله تعالى: ﴿**قَدْ خَسِرَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِلِقَاءِ اللَّهِ حَتَّى إِذَا جَاءَتْهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً قَالُوا يَا حَسْرَتَنَا عَلَى مَا فَرَّطْنَا فِيهَا وَهُمْ يَحْمِلُونَ أَوْزَارَهُمْ عَلَى ظُهُورِهِمْ أَلا سَاءَ مَا يَزِرُونَ**﴾ (الأنعام: ٣١). «فالذنب» معنى غامض مبهم؛ هو شىء مكروه، ولكنك لاتحس بشاعته حتى يقرن بالحمل الثقيل الذى يبهظ متن الإنسان، فتجد أن الذنب قد اكتسب معانى جديدة غائبة عنك: إنك تراه الآن شيئًا يغدو به الإنسان ويروح، ليس هو من صميم طبيعته، ولكنه لا يستطيع التخلى عنه. هو شىء قد اكتسبه الإنسان راغبًا فيه، كالمتاع الذى يحتاج إليه فى بعض مرافقه، ثم يطويه ويحمله حين يرتحل. ولكنه متاع قبيح، ثقيل، ليس لصاحبه منه إلا ما يهد المتن، ويوهى القوة... هو شىء كان بين يدى الإنسان فى قضاء مآربه، ثم استقل عنه، وإذا هو رابض فوقه، كأنه يقتضيه ثمن ما لذه وأمتعه من قبل. هذا بعض ما تحسه فى هذه الصورة، ولو أنك أجريت الاستعارة التمثيلية كما يجريها الأقدمون، فقلت إنه شبه حال الكفار من العناء والضيق بسبب ما ارتكبوه من ذنوب، بحالة من يحمل حملاً ثقيلاً يبهظه، لكنت قد اختصرت المعنى اختصارًا، واقتضبته اقتضابًا، حتى غابت عنك مواطن الروعة فيه.

وننتقل الآن إلى المسألة الثانية، وهى الفرق بين تصوير مشاهد الطبيعة فى الأدب، وتصويرها فى الفنون التجسيمية. ولعلنا نخرج من هذا البحث، بتوضيح لمعنى «الوصف» فى الأدب، كما وضحنا معنى الأسلوب فيما سبق.

فأول ما نلاحظه من فرق، يرجع إلى ما سبق لنا بيانه من أن الأسلوب الأدبى على وجه العموم لا يرتكز على التصوير الحسى، بل على الإيحاء الوجدانى. فواسطة الحس غير موجودة فى الألفاظ دائمًا؛ وقد تعمدالألفاظ ـ وكثيرًا ما

تفعل ـ إلى الإثارة الوجدانية دونما تصوير حسى. فإذا جئنا إلى الوصف ـ وأكثر ما يكون للمحسوسات ـ وجدناه يعتمد على تصوير الشىء للمخيلة؛ ولكن تخيل المحسوسات فى الوصف الأدبى يشف بسهولة عما تحته من معان؛ فالواصف ينقل إليك هذه المعانى فى غير كبير عناء، على عكس من يرسم أو ينحت؛ لأن الرسام أو النحات يعبر بمادة صلبة، كمادة مرئيات الطبيعة نفسها، إلا أنه أجرى فيها تيارًا من خياله ووجدانه، ففسرها نوعًا من التفسير، يحتاج منك إلى أن تتأمل وتستبطن. أما الواصف فى الأدب، فمادته (الألفاظ) نابعة من النفس الإنسانية مباشرة، فهى أشف عن مكنونات هذه النفس، وأدل على حركاتها.

ثم يختلف فنا الرسم والنحت عن الأدب فى أنهما يعرضان أجزاء الشىء المراد تصويره فى وقت واحد. فتقع العين على الأجزاء مجتمعة، وتقع على المنظر كله فى حالة واحدة. أما الأدب فلا يعرض فيه الشىء الموصوف إلا جزءًا جزءًا، وقد يتغير المنظر فى أثناء الوصف. ومن ثم يستنتج بعض النقَّاد أن الرسم والنحت أوفى من الأدب بتصوير الحالة أو المشهد، كما أن الأدب أوفى بتصوير الحركة؛ وأن الكلام عن «الأسلوب الوصفى» فى الأدب ضرب من التجوز، إذ أن هذا الأسلوب ينتهى إلى تصوير حركات وأفعال، كما هو الشأن فى الأسلوب القصصى، لا إلى تصوير مشاهد وأحوال، كما يطلب من الوصف[1].

وهذا القول يرشدنا إلى جملة خصائص عامة فى أسلوب الوصف الأدبى. فالخصيصة الأولى هى أنه لا يكاد يستقل بالأداء، بل الغالب أن يأتى ممتزجًا بأسلوب القصص والحوار، وبين ذلك نجد قطعة أو قطعًا، أو عبارة أو عبارات، فى تصوير حالة أو مشهد. والخصيصة الثانية أن الوصف الأدبى أقدر من الفنون التجسيمية على تصوير حالة الشىء المتحرك. والخصيصة الثالثة أن المشاهد تتتابع فى الوصف الأدبى، ومن ثمة لا تجد نفسك أما مشهد عريض، تحتاج إلى إطالة النظر؛ لتدرك فيه مبدأ الفكرة ومنتهاها، وصلبها وحواشيها، كما هى الحال فى الفنون التجسيمية. وهذه الخصائص الثلاث تترتب عليها أمور ينبغى

(١) فنون الأدب ل هـ. ب. تشارلتون، تعريب زكى نجيب محمود، من ص ١٠٢ ـ ١١٤.

أن تطلب فى أسلوب الوصف، وتقاس بها جودته، فضيق المساحة التى لدى القائل حين يصف، يتطلب أن يكون الوصف جامعًا بين الدقة والإيجاز، بحيث يبرز لك ـ فى لمحة عين ـ الملامح الرئيسية فى شىء موصوف، فتجد هذه الملامح متضامة متماسكة تبرز لك فى مجموعها صورة الشىء الموصوف كما يراه الواصف. والوصف الأدبى يمتاز بأن لديه عاملاً مهمًا فى التعبير الفنى، لا يتوفر فى الفنون التجسيمية؛ فإذا أحسن الواصف استخدامه جعل لوصفه فضلاً على التصوير المجسم. ذلك هو عامل «التوجيه»؛ أى تجزئة الوصف بحيث يقدم منه ويبرز ما يدل على قصد القائل فيكون بمثابة الخيط الذى ينظم أجزاء الوصف جميعها.

تلك جملة من خصائص الوصف الأدبى، نسوقها هنا على سبيل التعميم، وفى الفصول التالية مجال التفصيل والاستشهاد.

ـ ١ ـ

التوجيه

الفكرة الموجهة فى وصف القيامة فى القرآن هى فكرة الانقلاب العنيف الذى يصيب الأرض ومن عليها. تأتى هذه الفكرة أولا فى سياق الوعيد بعذاب النار: ﴿**وَذَرْنِى وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِى النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً . إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً . وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً. يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً. إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً . فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً. فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً. السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً**﴾ (المزمل: ١١ ـ ١٨)، ثم تفصل هذه الفكرة وتقرن بمعانى الحساب والجزاء التى تدور حولها أوصاف يوم الدين وتصبح عمادًا لهذه الأوصاف: ﴿**إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ. وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ. وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ. وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ. وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ. وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ. وَإِذَا**

النُّفُوسُ زُوِّجَتْ. وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ. بِأَيِّ ذَنْبٍ قُتِلَتْ. وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ. وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ. وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ. وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ. عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ (التكوير: ١ ـ ١٤). ﴿كَلاَّ إِذَا دُكَّتْ الأَرْضُ دَكّاً دَكّاً. وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفّاً صَفّاً. وَجِيءَ يَوْمَئِذٍ بِجَهَنَّمَ يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى. يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ (الفجر: ٢١ ـ ٢٤). ﴿فَإِذَا جَاءَتْ الصَّاخَّةُ. يَوْمَ يَفِرُّ الْمَرْءُ مِنْ أَخِيهِ. وَأُمِّهِ وَأَبِيهِ. وَصَاحِبَتِهِ وَبَنِيهِ. لِكُلِّ امْرِئٍ مِنْهُمْ يَوْمَئِذٍ شَأْنٌ يُغْنِيهِ. وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ مُسْفِرَةٌ. ضَاحِكَةٌ مُسْتَبْشِرَةٌ. وَوُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ عَلَيْهَا غَبَرَةٌ. تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ. أُوْلَئِكَ هُمْ الْكَفَرَةُ الْفَجَرَةُ﴾ (عبس: ٣٣ ـ ٤٢). ﴿الْقَارِعَةُ. مَا الْقَارِعَةُ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا الْقَارِعَةُ. يَوْمَ يَكُونُ النَّاسُ كَالْفَرَاشِ الْمَبْثُوثِ. وَتَكُونُ الْجِبَالُ كَالْعِهْنِ الْمَنفُوشِ. فَأَمَّا مَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ. فَهُوَ فِي عِيشَةٍ رَاضِيَةٍ. وَأَمَّا مَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ. فَأُمُّهُ هَاوِيَةٌ. وَمَا أَدْرَاكَ مَا هِيَهْ. نَارٌ حَامِيَةٌ﴾ (القارعة: ١ ـ ١١). ﴿لا أُقْسِمُ بِيَوْمِ الْقِيَامَةِ. وَلا أُقْسِمُ بِالنَّفْسِ اللَّوَّامَةِ. أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَلَّنْ نَجْمَعَ عِظَامَهُ. بَلَى قَادِرِينَ عَلَى أَنْ نُسَوِّيَ بَنَانَهُ. بَلْ يُرِيدُ الإِنسَانُ لِيَفْجُرَ أَمَامَهُ. يَسْأَلُ أَيَّانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ. فَإِذَا بَرِقَ الْبَصَرُ وَخَسَفَ الْقَمَرُ وَجُمِعَ الشَّمْسُ وَالْقَمَرُ. يَقُولُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ أَيْنَ الْمَفَرُّ . كَلاَّ لا وَزَرَ. إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ . يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ. بَلْ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ. وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾ (القيامة: ١ ـ ١٥).

ثم يفصل وصف الحشر، مقترنًا بالنفخ فى الصور (ق: ١٩ ـ ٢٩) وبالصيحة (ق: ٤١ ـ ٤٤)، وباقتراب الساعة (القمر: ١ ـ ٨). وعلى هذا الأسلوب تجد الآيات التالية فى وصف القيامة. فوصف الحشر والحساب مقترنان عادة بما يشير إلى الهياج الشديد وانقلاب الحال: كالنفخ فى الصور، والزجرة، والصيحة، والقارعة... أو بما يفصل هذا الانقلاب تفصيلا: كتسيير الجبال ودك الأرض وانشقاق السماء.

وقد تكون هذه الفكرة الموجهة فى إهلاك الأمة المكذبة هلاكًا مفاجئًا، ويظهر أثر التوجيه فيما يلى من الآيات، فيتناول الوصف عندئذ حساب الأمم وسؤال

المرسلين عن رسالاتهم: (الأعراف: ٤ ـ ٩): ﴿وَكَمْ مِنْ قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَاهَا فَجَاءَهَا بَأْسُنَا بَيَاتًا أَوْ هُمْ قَائِلُونَ. فَمَا كَانَ دَعْوَاهُمْ إِذْ جَاءَهُمْ بَأْسُنَا إِلاَّ أَنْ قَالُوا إِنَّا كُنَّا ظَالِمِينَ. فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ. فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِمْ بِعِلْمٍ وَمَا كُنَّا غَائِبِينَ. وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ. وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ بِمَا كَانُوا بِآيَاتِنَا يَظْلِمُونَ﴾.

وقد تكون هذه الفكرة الوجهة هى فكرة الموت. والموت ـ فى نظر الحى ـ انقلاب مروع كانقلاب الساعة أو أشد. ويظهر أثر التوجيه فيما يلى من الآيات، فيرتكز الوصف على نعيم المؤمن وعذاب الكافر: ﴿فَلَوْلاَ إِذَا بَلَغَتِ الْحُلْقُومَ. وَأَنْتُمْ حِينَئِذٍ تَنْظُرُونَ. وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْكُمْ وَلَكِنْ لاَ تُبْصِرُونَ. فَلَوْلاَ إِنْ كُنْتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ. تَرْجِعُونَهَا إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. فَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُقَرَّبِينَ. فَرَوْحٌ وَرَيْحَانٌ وَجَنَّةُ نَعِيمٍ. وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ. فَسَلاَمٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ. وَأَمَّا إِنْ كَانَ مِنَ الْمُكَذِّبِينَ الضَّالِّينَ. فَنُزُلٌ مِنْ حَمِيمٍ. وَتَصْلِيَةُ جَحِيمٍ﴾ (الواقعة: ٨٣ ـ ٩٤). ﴿كَلاَّ إِذَا بَلَغَتِ التَّرَاقِي. وَقِيلَ مَنْ رَاقٍ. وَظَنَّ أَنَّهُ الْفِرَاقُ. وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ. إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمَسَاقُ﴾ (القيامة: ٢٦ ـ ٣٠).

هذه الفكرة الموجهة، فكرة الانقلاب العنيف المفاجئ، سواء أكان ذلك الانقلاب فى حياة الفرد، أم فى حياة الأمة، أم فى حياة الدنيا بأسرها، يعد ذهن السامع أحسن إعداد لتلقى سائر أوصاف القيامة: فهى تملأ نفسه رهبة تليق بجلال تلك الأوصاف، حين تجمع الخلائق كلها فى صعيد واحد، وتشرق الأرض بنور ربها، ويقضى بين الناس بالحق وهم لا يظلمون. وزوال الموجودات المادية، يؤذن بتلاقى الخلق والخالق، وناهيك به من تلاق. وانقلاب النظم الكونية، يؤذن بحياة جديدة، وتجرد الخلق من أعراض الدنيا، من مال يذهب ويعطل، وبنين قد شغلوا بأمور أنفسهم، كما شغل عنهم بأمر نفسه، يؤذن بحساب لا ينفع المرء فيه إلا عمله وإيمانه. وانقلاب أحوال الموجودات، كلها، من جبال تدك، وسماء تنفطر، ونجوم تنكدر، يؤذن بانقلاب أحوال الناس، فيرتفع من كان يعد خفيضاً، وينخفض من

كان يعد رفيعًا. وتلك إذا تأملت هى جملة معانى القيامة فى القرآن. فقد أشار إليها ودل عليها بما بدئ به وصف يوم الدين من ذكر الساعة وأهوالها، أو الصيحة وعذابها، أو الموت وبشاعته.

- ٢ -

التصوير

بينا فيما سبق، أن الوصف الجيد ينبغى أن يكون «جامعًا بين الدقة والإيجاز، بحيث يبرز لك - فى لمحة عين - الملامح الرئيسية فى شىء موصوف، فتجد هذه الملامح متضامة متماسكة تبرز لك فى مجموعها صورة الشىء الموصوف كما يراه الواصف». فبدون ذلك الشرط يحتاج الواصف إلى تجزئة الشىء الموصوف، فيضعف الأثر العام لذلك الوصف، إلا أن يقصد إلى التجزئة ويريد بها أثرًا فنيًا خاصًا، كما أسلفناه من «التوجيه». أما إذا لم يقصد إلى التجزئة، بل عمد إلى الإطالة فى الوصف فإنه يناقض بذلك طبيعة اللغة التى لا تتيح للواصف إلى مجالا ضيقًا، وإنك لتجد هذه المناقضة فيما تحسه من الملل والعجز عن حصر الذهن حين تقرأ صفحة أو صفحات من الوصف «الخالص» الذى لم يكد يمزج بشىء من القصص أو الحوار. فأعلى درجة من الوصف الأدبى هى ذلك الوصف الذى يختار لك من جزئيات الشىء الموصوف أبرزها وأقواها وأدلها عليه، ثم يؤلف بينها بحيث تبرز لك من هذه الأجزاء صورة كاملة، لا تعدو فى مساحة الكلم جملة أو جملا معدودة. وإذا كان أسلوب التصوير - بعد - حيًا، موحيًا، بلغ الوصف الأدبى غاية ما يطلب فيه.

على أننا ننتظر شيئًا من التساؤل حين نقرر أن الوصف الجيد ينبغى أن يقوم على اختيار أبرز جزئيات الشىء الموصوف. فيم يقاس هذا البروز؟ هل يقاس بأشياء معينة هى أبرز أو أدل من غيرها؟ أو بعبارة أخرى، هل ينبغى للكاتب أو الشاعر إذا وصف «الليل» مثلا أن يصف ظلامه، وما فيه من نجوم منثورة فى

السماء، على أن الظلام والنجوم هما أبرز ما يلحظ من أوصاف الليل؟ وهل ينبغى له إذا وصف امرأة أن يبادر إلى وصف قدها وفرعها، أو عينيها وفمها، لأن هذه الأشياء قد أجمع الواصفون من قديم على أنها أمور يقاس بها جمال المرأة؟ أما إن كنت ممن يقولون إن المعانى مطروحة فى الطريق، ويرون أن الشعر سبك لهذه المعانى فى قوالب مختلفات، فأنت ولا شك مجيب عن سؤالنا بالإيجاب، بل لعلك تعجب إذ نجعل ذلك موضوعًا للتساؤل والبحث. وأما إن كنت قد وعيت ما قدمناه من أن الفن إحساس وشعور، وحصلت كنه الرابطة الوثيقة بين اللفظ والمعنى، فالأمر عندك جدير بالتأمل والنظر. وإذا رجعت إلى تلك الأصول رأيت أن المرء يختلف إحساسه بالشىء من وقت إلى وقت، فأنت ترضى اليوم عن الشىء يسخطك غدًا، وتقبل اليوم على الأمر كنت تنفر منه بالأمس، وبين هذه الأطراف المتناقضة، درجات من اختلاف الحس تجعلك ترى الشىء بصور مختلفات، وتطلعك منه كل يوم على جديد لم تكن تراه. فإذا كنت أديبًا أو شاعرًا فليس يطلب منك أن تخرج صورة شمسية للشىء الذى تصفه، بل عليك أن ترينا إياه بعينيك، فأنت حر إذا تفصل جزئياته ثم تركبها كما تشاء، وإذا استطعت أن ترينا منه معنى جديدًا كان غائبًا عن الناس فأنت الأديب المبدع. ولا تظن أن هذه المعانى الجديدة تنتهى أو يدركها الفناء، فهى متجددة ما تجدد الإحساس، وأحاسيس الناس مهما تتشابه ففيها دائمًا عناصر من الجدة تختلف باختلاف العصور والبيئات والأشخاص. ولا تحسبن أن من المعانى نبيلا فخمًا ولا سوقيًا وضيعًا إلا بمقدار تعبيره عن إحساسك بالشىء. فنباح كلب فى سكون الليل العميق قد يكون أبلغ وصف الليل من كل نجم فى السماء.

وبعد، فإخالنى قد وضحت مما أعنيه بالتصوير الأدبى ما يعدنا للنظر فى هذا الأسلوب فى تصوير القيانة فى القرآن؛ ولعلنا نخرج من هذا البحث بمزيد من إرهاف الذوق لهذا الأسلوب فى القرآن، ثم لعلنا نخرج منه بجديد فى فهمنا لأسلوب التصوير الأدبى على العموم.

فلننظر فى نماذج من تصوير القيامة فى القرآن.

لدينا آيات سورة (التكوير: ١ : ١٤): ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ. وَإِذَا النُّجُومُ انكَدَرَتْ. وَإِذَا الْجِبَالُ سُيِّرَتْ. وَإِذَا الْعِشَارُ عُطِّلَتْ. وَإِذَا الْوُحُوشُ حُشِرَتْ. وَإِذَا الْبِحَارُ سُجِّرَتْ. وَإِذَا النُّفُوسُ زُوِّجَتْ. وَإِذَا الْمَوْءُودَةُ سُئِلَتْ. بِأَيِّ ذَنبٍ قُتِلَتْ. وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ. وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ. وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ . وَإِذَا الْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ. عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾.

الموصوف هنا هو يوم القيامة كله. وأول ما نلاحظه أن الأسلوب ليس بأسلوب قصص: فالأسماء مقدمة على الأفعال فى الجمل جميعها، وذلك لتحضر فى الذهن «الشىء» قبل «الفعل»، ثم الجمل غير مرتبة ترتيب القصص، فكشط السماء يأتى بين نشر الصحف وتسعير الجحيم. فهذه الأيات إذا ليست قصصًا عما يحدث يوم القيامة بل وصف له. فلننظر فى جزئيات هذا الوصف: فأول ما يطالعنا هو وصف ما يحدث لأجرام السماء، والسماء هى مراد التأمل، ومطمح الرجاء، وآية الجمال فى الكون. إليها يرفع الإنسان بصره ويديه إذا دعا، وفى أفقها الممدود يجيل عينيه إذا تخيل أو رجا. فقد قبضت شمسها وتهاوت نجومها. أليس هذا أروع توجيه لما يتلوه من وصف أحوال الأرض، والأحياء؟ فالجبال ـ وهى أوتاد الأرض ـ مسيرة. والعشار ـ وهى عند العربى أنفس الأشياء ـ مهملة معطلة؛ والوحوش المتفرقة المتجافية عن الإنس قد جمعت وأميتت؛ وهذه سيول المياه وقد تفجر بعضها فى بعض، فهى تأتى على ذلك كله وتذهب جميعًا. وتتجه النفس بعد ذلك إلى الخطوط الإنسانية الخالصة من الصورة: «وإذا النفوس زوجت»، فقد ميز بين الأخيار والأشرار، بين الخير والشر، وهذا هو أبرز الأوصاف القرآنية للقضاء بين الخلق يوم القيامة». و«إذا الموءودة سئلت بأى ذنب قتلت»: خطان من خطوط الحساب يوم القيامة، ولعل فى تقديم سؤال الموءودة ما يوحى بنوع ذلك الحساب، وأنه حساب عادل، وأن أفظع ما يحاسب عليه المرء الظلم وقسوة القلب.

على أننا نجد بعد ذلك ذكر السماء «وإذا السماء كشطت» يتبعها ذكر الجحيم والجنة. ولعلك كنت تظن أن يأتى ذكر السماء بعد ذكر الشمس والنجوم أو

قبلهما، فلماذا لم يأت الوصف على هذا النسق القريب؟ تأمل وقع الأسلوب فى نفسك لو لم يذكر كشط السماء. أرأيت لو قيل: وإذا الصحف نشرت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت. أكنت تجد لهذا الأسلوب من الروعة ما لقوله «وإذا الصحف نشرت. وإذا السماء كشطت. وإذا الجحيم سعرت. وإذا الجنة أزلفت؟ ألا ترى أن «كشط السماء» جزئية لا بد منها مع وصف تسعير الجحيم وإزلاف الجنة؟ فكلمة الكشط مستعارة من كشط الجلد عن الجزور أى إزالته. وإذا كانت السماء مكشوطة كالجلد فهذا الوصف يثير روعتك، ويهيئك لتوقع ما وراء هذا الشىء المزال. فكشط السماء معنى يتطلبه حسن الوصف بين نشر الصحف وبين تسعير الجحيم وإزلاف الجنة.

وهذا يعيدنا إلى فكرة التوجيه مرة أخرى. فقد استخدم التوجيه فى الآيات الأولى سبيلا إلى وصف جمع الناس وجعلهم فرقًا، ثم سؤالهم وحسابهم، ثم أشرف على الغاية من ذلك كله، وهى دخول أهل الجنة الجنة، وأهل النار النار، فحسن المجىء بتوجيه جديد، ليكون ترشيحًا لهذا المعنى وليفصل بينه وبين المعنى الذى قبله - وإن لم يقطعه عنه قطعًا - حتى يمثل هذا المعنى واضحًا مستقلاً. ويلاحظ أنه قدم تسعير الجحيم فى الصورة على إزلاف الجنة، فبدأ بصورة العذاب التى تتفق مع ما قبلها من الصور المخوفة، وعقب بصورة النعيم مطمئنًا ومبشرًا، وليتحقق اعتدال الصورة وتمامها بذكر الضدين المتقابلين.

ويختم الوصف كله بما تثيره هذه المناظر فى نفس الإنسان «علمت نفس ما أحضرت»، وذلك لتؤدى السورة كلها ما يراد بها من تنبيه شديد، يدل على ختام السورة: ﴿**فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ. إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ. لِمَنْ شَاءَ مِنْكُمْ أَنْ يَسْتَقِيمَ. وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ**﴾ (سورة التكوير: الآيات: ٢٦ - ٢٩).

فلننظر فى سورة أخرى سيقت مساق الوعيد؛ وذلك فى سورة (الطور ١ - ١٠): ﴿**وَالطُّورِ وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ فِى رَقٍّ مَنْشُورٍ وَالْبَيْتِ الْمَعْمُورِ وَالسَّقْفِ الْمَرْفُوعِ. وَالْبَحْرِ الْمَسْجُورِ. إِنَّ عَذَابَ رَبِّكَ لَوَاقِعٌ مَا لَهُ مِنْ دَافِعٍ. يَوْمَ تَمُورُ السَّمَاءُ مَوْرًا. وَتَسِيرُ الْجِبَالُ سَيْرًا**﴾. فقد أتى من أوصاف ذلك اليوم بجزئيتين اثنتين: مور

السماء، وسير الجبال. وأول ما يلاحظ أن الجزئيتين متجانستان، فكلتاهما تعتمد على الحركة. ويظهر لنا أن اختيار هذين الوصفين فى سياق الوعيد أبلغ وأروع؛ فلم يصور من أحوال القيامة إلا انتقاض السماء والأرض، وانتقاض قوى الطبيعة فكرة روعت خيال الإنسان من قديم. ثم اختير من أحوال السماء والأرض عند التقاض، اضطرابهما السابق للانهيار التام، وهو أبلغ فى الترهيب مما لو وصفت السماء وقد انفطرت، والأرض قد اندكت فعلا. ألا ترى أن مقدمات البلاء أشد زلزلة للنفس من وقوع البلاء ذاته؟ فإن النفس عند نزول مقدمات البلاء تنقسم وتتوزع، ولا تستخذى استخذاء تامًا كشأنها حين تنزل النازلة القاضية. والتمس أثر الوصفين فى نفسك، واستشفهما بخيالك؛ تخيل السماء تضطرب كخيمة عصف بها الريح، والجبال تسير وكأن حاديًا من ورائها يسوقها سوقًا، ثم تأمل السماء وقد انفطرت، والجبال وقد اندكت، تجد أن انفعالك أقرب إلى الفزع عند الصورة الأولى، وأقرب إلى الخشوع عند الصورة الثانية.

وانظر إلى هاتين السورتين فى (المزمل: ١١ ـ ١٩): **﴿وَذَرْنِى وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِى النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً. إِنَّ لَدَيْنَا أَنكَالاً وَجَحِيماً. وَطَعَاماً ذَا غُصَّةٍ وَعَذَاباً أَلِيماً. يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً. إِنَّا أَرْسَلْنَا إِلَيْكُمْ رَسُولاً شَاهِداً عَلَيْكُمْ كَمَا أَرْسَلْنَا إِلَى فِرْعَوْنَ رَسُولاً. فَعَصَى فِرْعَوْنُ الرَّسُولَ فَأَخَذْنَاهُ أَخْذاً وَبِيلاً. فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً. السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً. إِنَّ هَذِهِ تَذْكِرَةٌ فَمَنْ شَاءَ اتَّخَذَ إِلَى رَبِّهِ سَبِيلا﴾**.

السورة الأولى فى قوله **﴿يَوْمَ تَرْجُفُ الأَرْضُ وَالْجِبَالُ وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً﴾**، هذه الصورة جاءت فى سياق الوعيد، والوصف هنا يشبه ما فى سورة الطور. فالأرض والجبال قد وصفا بالرجفة وهى الاهتزاز الشديد الشامل، والجبال شبهت ـ عندئذ ـ بالكثيب الذى حرك أسفله فانهال من أعلاه. فالحركة ظاهرة فى هاتين الجزئيتين كما فى سورة الطور، ولكن الجزئيتين اللتين اختيرتا هناك، كانتا مور السماء واضطراب الجبال، كأنما روعى فى السماء والجبال

العلو والعظمة، اللذان يتفقان مع ما بدئت به السورة من القسم بالطور والبيت المعمور والسقف المرفوع والبحر المسجور. أما فى سورة المزمل، فاختيار الأرض ـ مسكن الإنسان ـ وما عليها من رواس، يتفق مع ما قبلها من وعيد صريح: ﴿وَذَرْنِي وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِي النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾ (المزمل: ١١) فالأرض ترجف من تحتهم، والجبال ترجف من فوقهم، و﴿وَكَانَتْ الْجِبَالُ كَثِيباً مَهِيلاً﴾ (المزمل: ١٤). فهذه الرجفة العنيفة قد تركت الجبال ككثبان الرمل، يتحرك أعلاها لينقض.. وما أروعها منصورة لهذه الأرض الراجفة، وهذه الجبال التى توشك أن تنحدر عليها فتندك وإياها.. هذه أيضًا مقدمات الاندكاك، وهى كما أوضحنا، أبلغ فى الوعيد من وصف الاندكاك التام.

والسورة الثانية فى آيات المزمل هى قوله: ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْماً يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيباً. السَّمَاءُ مُنْفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً﴾ (المزمل: ١٧ ـ ١٨). فجزءا الوصف هما شيب الأطفال لهول ذلك اليوم، وانفطار السماء. واختيار هاتين الجزئيتين يناسب انتقاله من الوعيد إلى القصص الوعظى، فأتى بهذا المعنى الإنسانى وهو أن الأطفال يشيبون من الفزع، ووصف السماء بأنها تنفطر، والسماء ـ كما أسلفنا ـ قد ربطها الإنسان بحياته النفسية ربطًا وثيقًا، ففى ذكرها، عدا تمثيل الانقلاب المفاجئ، والقدرة البالغة، عطف فى هذا الجانب النفسى، الذى جانست به ذكر شيب الولدان. وفى الصورة المجتمعة من هاتين الجزئيتين، تبصير وتذكير، ينسبان الغرض الوعظى، بل لا أغلو حين أقول، إن وراء ما فيهما من وصف لفظاعة ذلك اليوم، لونًا من الرفق بالإنسانية، التى تدعى إلى اتقاء عذاب الله الحق.

وإن كنت لما تأنس إلى هذا المعنى، فانظر إلى هاتين الآيتين من سورة الحج: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ. يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُمْ بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ﴾ (الحج: ١ ـ ٢). ألا ترى أن الغرض من هذه الآيات هو الوعظ، وأن ذلك واضح فى ابتداء السورة بقوله «يأيها الناس اتقوا ربكم»؟ أو لاترى أنه ـ لكى يؤدى هذا الغرض أوفى الأداء ـ ترك من صفات

القيامة كل ما هو خارج عن الإنسان، مكتفيًا بهذا الوصف المحمل **﴿إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ﴾**. ثم ألف بين هذه الأحوال الإنسانية التى تمثل فزع الناس عند نزول البلاء، ليبصرهم ويذكرهم؟

ونترك هذه السور لننظر فى سور أخرى من وصف الحشر:

فى سورة (القمر: ١ ـ ٨): **﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانشَقَّ الْقَمَرُ. وَإِن يَرَوْا آيَةً يُعْرِضُوا وَيَقُولُوا سِحْرٌ مُّسْتَمِرٌّ. وَكَذَّبُوا وَاتَّبَعُوا أَهْوَاءَهُمْ وَكُلُّ أَمْرٍ مُّسْتَقِرٌّ. وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّنَ الأَنبَاءِ مَا فِيهِ مُزْدَجَرٌ. حِكْمَةٌ بَالِغَةٌ فَمَا تُغْنِ النُّذُرُ. فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُّكُرٍ. خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُّنتَشِرٌ. مُّهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾**.

وحدة السورة ظاهرة فى هذه الآيات (٦ ـ ٨). فالسورة ترتكز على وصف حالة الكفار عند خروجهم من القبور، والمحافظة على هذه الوحدة ظاهرة فى وصفه ما يدعو إليه الداعى بأنه «شىء نكر»، فلم يصف من الدعوة إلا وقعها فى نفوس الكفار، ثم اختار من وصف حالة هؤلاء الكفار جزئيات يجتمع منها ما يريد من صورة ذليلة قبيحة؛ فهم خاشعو الأبصار، قد لطئت أبصارهم بالأرض خيفة أن يرفعوها فيروا ما يكرهون. وتشبيههم بالجراد المنتشر يعطينا معنى الكثرة والتفرق، ويزيد عليه التقبيح، إذ شبهوا بهذه الحشرات المؤذية ووصفهم بالإهطاع تشبيهًا بحالة البعير المسرع يضيف إلى ذلك معنى الإسراع فى خضوع وذلة؛ ثم تختم هذه الصورة بما يهمسون به لأنفسهم، من قولهم: **﴿هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾**، وهو قول لا يوجهونه إلى أحد، وإنما يكون منهم حين لا يستطيعون كتمان حالهم، فهم ينطقون بهذه العبارة التى لا تبلغ أن تكون شكوى ولا ندمًا، وإنما هى استفظاع مطلق لما هم فيه.

والسورة ـ فى مجموعها ـ تقبح هؤلاء الكفار، وتزيد على تصوير الفزع تصوير الغباء، إذ أن إحساساتهم قريبة مباشرة، فدعوة الداعى عندهم **﴿شَيْءٍ نُّكُرٍ﴾**، وأبصارهم خاشعة لا يجسرون على رفعها ليروا ما حولهم، وقد شبهوا بالحيوان

مرتين. وسورة القبح والغباء، تتسق مع الغرض منها، وهو ذم الكفار لإعراضهم المستمر، واتباعهم أهواءهم، على الرغم من نزول الآيات، وتكرار الوعظ.

ولعلك حين تطلع على تصوير حالة الكفار عند البعث فى (سورة إبراهيم: ٤٢ ـ ٤٣). تدرك اختلاف ما بين السورتين. ففى سورة إبراهيم: **﴿وَلاَ تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ الأَبْصَارُ. مُهْطِعِينَ مُقْنِعِي رُءُوسِهِمْ لاَ يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ﴾**. فالغرض فى هاتين الآيتين هو الوعيد، والكفار هنا قد أمعنوا فى كفرهم إمعانًا، فليسوا بغافلين إذا ولا بأغبياء، بل ظالمون معاندون. لذلك كان وصف حالتهم عند البعث غير مبنى على غبائهم وغفلتهم، بل على المقابلة بين ظلمهم استكبارهم اليوم وفزعهم غدًا: فأبصارهم شاخصة معلقة لتوقع البلاء، ورءوسهم على ذلك مقنعة لأنهم لا يستطيعون لفزعهم أن ينظروا إلى الجهة التى يتوقعون أن يأتى منها هذا البلاء، وعيونهم قد ثبتت فى محاجرهم كما يحدث للمرء إذا اشتد فزعه فجمدت عيناه وكأنما هو مسحور.

تلك نماذج من الأسلوب القرآنى فى التصوير. ولعل أهم ما نخرج به من هذا التمثيل أن تكرار وصف القيامة فى القرآن ليس بتكرار على الحقيقة، إذا لاحظنا اختلاف الغرض من الوصف، واختلاف مجاله سعة وضيقًا، واختلاف المعانى التى تعبر عنها كل سورة. فإذا تحدث مفسر عن التكرار فينبغى أن يفهم على أنه تناول للموضوع جهات مختلفة، يعرض من تفاصيلها فى كل حالة ما لا يعرضه فى الحالات الأخرى. أو إن شئت على أن تكرار فى أجناس المعانى، لا فى مفرداتها التى تتغير بتغير الغرض والسياق.

ـ ٣ ـ

استخدام الحوار فى الوصف

لاحظنا أن الوصف كثيرًا ما يأتى ممتزجًا بأسلوب القصص وأسلوب الحوار. فالقصص يكون حينئذ رابطة بين السور الوصفية. كما فى سورة (ق: ١٩ ـ ٢٩):

﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ. وَنُفِخَ فِي الصُّورِ ذَلِكَ يَوْمُ الْوَعِيدِ. وَجَاءَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَعَهَا سَائِقٌ وَشَهِيدٌ. لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ. وَقَالَ قَرِينُهُ هَذَا مَا لَدَيَّ عَتِيدٌ. أَلْقِيَا فِي جَهَنَّمَ كُلَّ كَفَّارٍ عَنِيدٍ. مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ مُرِيبٍ. الَّذِي جَعَلَ مَعَ اللَّهِ إِلَهًا آخَرَ فَأَلْقِيَاهُ فِي الْعَذَابِ الشَّدِيدِ. قَالَ قَرِينُهُ رَبَّنَا مَا أَطْغَيْتُهُ وَلَكِنْ كَانَ فِي ضَلَالٍ بَعِيدٍ. قَالَ لَا تَخْتَصِمُوا لَدَيَّ وَقَدْ قَدَّمْتُ إِلَيْكُمْ بِالْوَعِيدِ. مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَيَّ وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ﴾.

أما الحوار فهو كما ترى فى هذه الآيات سائر مع سباق الفكرة، جلى فى التعبير عنها. فهو يرسم الخطوط الكبيرة فى المعنى، إذ يرسم الوصف والقصص دقائق هذه الخطوط. على أن أسلوب الحوار يتداخل وأسلوب الوصف فى كثير من المواضع، فيكون الحوار جزءًا متممًا لوصف الحالة، كما فى (سبأ: ٣١ ـ ٣٣):

﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ نُؤْمِنَ بِهَذَا الْقُرْآنِ وَلَا بِالَّذِي بَيْنَ يَدَيْهِ وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ مَوْقُوفُونَ عِنْدَ رَبِّهِمْ يَرْجِعُ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ الْقَوْلَ يَقُولُ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لَوْلَا أَنْتُمْ لَكُنَّا مُؤْمِنِينَ. قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا لِلَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا أَنَحْنُ صَدَدْنَاكُمْ عَنِ الْهُدَى بَعْدَ إِذْ جَاءَكُمْ بَلْ كُنْتُمْ مُجْرِمِينَ. وَقَالَ الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا بَلْ مَكْرُ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ إِذْ تَأْمُرُونَنَا أَنْ نَكْفُرَ بِاللَّهِ وَنَجْعَلَ لَهُ أَنْدَادًا وَأَسَرُّوا النَّدَامَةَ لَمَّا رَأَوُا الْعَذَابَ وَجَعَلْنَا الْأَغْلَالَ فِي أَعْنَاقِ الَّذِينَ كَفَرُوا هَلْ يُجْزَوْنَ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾.

فهذه المحاورة بين المستضعفين والمستكبرين تؤدى من خطوط الفكرة العامة مثل ما يؤديه الحوار فى الآيات السابقة، وهى مع ذلك جزء متمم للوصف، وحديث كل من المستضعفين والمستكبرين هو ما ينبغى أن يتوقع منهم، فهو مياطبق لأحوالهم، وهو أبلغ وصف فى التعبير عن هذه الأحوال.

وقدى يستخدم الحديث جزءًا من الوصف، كما جاء فى سورة (القمر: ٦ ـ ٨):

﴿فَتَوَلَّ عَنْهُمْ يَوْمَ يَدْعُ الدَّاعِ إِلَى شَيْءٍ نُكُرٍ. خُشَّعًا أَبْصَارُهُمْ يَخْرُجُونَ مِنَ الْأَجْدَاثِ كَأَنَّهُمْ جَرَادٌ مُنْتَشِرٌ. مُهْطِعِينَ إِلَى الدَّاعِ يَقُولُ الْكَافِرُونَ هَذَا يَوْمٌ عَسِرٌ﴾.

فقولهم: هذا يوم عسر، يتسق، كما لاحظنا فى الفصل السابق، مع سائر أوصافهم، وهو كلام مختصر، يناسب ما هم فيه من ضيق، ويصح أن يقولوه وهم مسرعون عند حشرهم.

ومن استعمال الحديث كالوصف أيضًا ما جاء فى سورة (الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩): **﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً. يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً. لَقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِى وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً﴾**. فحديث هذا الظالم مغن عن كل وصف فى التعبير عن حالته، بل إن فى نبرته أسى وحسرة، لعلهما يرجعان إلى هذه الألف التى ختمت بها كل آية، والتى تشبه ألف الندبة.

وجملة القول فى استخدام الحوار فى وصف القيامة، أن الحوار فن قائم برأسه، له طريقة فى الأداء غير طريقة الوصف. وقد يمزج بالوصف كما يمزج به القصص، ويكون عندئذ أداة قوية لبعض الفكرة؛ وقد يأتى فى ثنايا الوصف كجزء منه، فيعبر بمعناه، أو أسلوبه، أن بنبراته، عن حالة المتكلم.

ـ ٤ ـ

أساليب التخييل

عرضنا فيما سبق لما سماه بعض الباحثين فى القرآن «التصوير» و«التخييل» و«التجسيم»، يعنون بذلك تصوير المعانى تصويرًا يمثلها للحس؛ وهذا التصوير هو عندهم أساس الفن القرآنى. وقد بينا خطأ هذا الزعم، وبناءه على وهمين متناقضين فى طبيعة اللغة. فأما الوهم الأول فهو أن اللغة محاكاة للواقع المحسوس، وأما الوهم الآخر فهو أن التعبير العادى يغلب عليه التجريد. وقد أوضحنا أن الأساليب الفنية ينبغى فهمها على غير هذا الأساس، وقدمنا نماذج لهذا الفهم فى الفصلين السابقين. ثم عالجنا أسلوب الوصف، وبينا أنه، وإن صور أشياء محسوسة، لا تنبنى روعته على محاكاة هذه المحسوسات، بل على المعنى الأدبى الذى تؤديه وحدة الصورة. وأحسب أن هذا البحث يمهد إلى فهم

أدق لمعنى «التخييل» فى الوصف. فمن الأساليب الأدبية ما يحسن أن يسمى تخييلا. ولكن هذا التخييل ليس معناه تمثيل المعنى المجرد فى صورة يتملاها الخيال، بل يصح أن يدل به على تقرير الوصف - سواء أكان حسيًا أم معنويًا - فى ذهن السامع، بأسلوب يصور له أن الشىء الموصوف واقع فعلا، أو بأسلوب يصور الشىء الجامد حيًا متحركًا. فكلا الأسلوبين يعتمد على أصل نفسى واحد، عظيم القيمة فى دراسة الحياة الوجدانية، وهو «تنزيل الخيال منزلة الحقيقة»[1]، وهو أصل ملازم لسيطرة الوجدان على الحياة النفسية، ولذلك كان عند الأطفال أظهر وأقرب مثال له أننا فى كثير من الأحيان نحار فى أمر من الأمور فلا ندرى أحدث لنا فى الحقيقة أم حدث لنا فى الحلم. ومخاطبة الجمادات أو نسبة القول وبالفعل إليها نوع من الخيال المنزل منزلة الحقيقة. ويمكن أن يعد «التجريد» من هذا النوع، لدلالته على حالة وجدانية بليغة، والتجريد هو أن يجرد المتكلم من نفسه شخصًا آخر يخاطبه.

وقد استعمل القرآن هذين النوعين من التخييل فى وصف القيامة.

فمن النوع الأول - وهو كثير من الاستعمال جدًا - استعمال الفعل الماضى مكان الفعل المضارع، كما فى قوله: **﴿يَوْمَئِذٍ يَتَّبِعُونَ الدَّاعِيَ لاَ عِوَجَ لَهُ وَخَشَعَتِ الأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَنِ فَلاَ تَسْمَعُ إِلاَّ هَمْسًا﴾** (طه: ١٠٨)، وقوله: **﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَصَعِقَ مَنْ فِي السَّمَوَاتِ وَمَنْ فِي الأَرْضِ إِلاَّ مَنْ شَاءَ اللَّهُ ثُمَّ نُفِخَ فِيهِ أُخْرَى فَإِذَا هُمْ قِيَامٌ يَنْظُرُونَ﴾** (الزمر: ٦٨).

ومما يقوى التخييل فى مثل هذه الآيات استعمال إذا الفجائية، كما فى قوله: **﴿وَنُفِخَ فِي الصُّورِ فَإِذَا هُمْ مِنَ الأَجْدَاثِ إِلَى رَبِّهِمْ يَنْسِلُونَ. قَالُوا يَا وَيْلَنَا مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ. إِنْ كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ جَمِيعٌ لَدَيْنَا مُحْضَرُونَ﴾** (يس: ٥١ - ٥٣).

---

(١) ألممنا بهذه النقطة فى المقدمة إلمامًا يغنى عن إعادتها الآن.

ومنه أيضًا بدء الجمل بضمير الشأن. من نحو قوله: ﴿فَإِنَّمَا هِيَ زَجْرَةٌ وَاحِدَةٌ (١٣) فَإِذَا هُمْ بِالسَّاهِرَةِ﴾ (النازعات: ١٣ ـ ١٤).

ومنه بدء الوصف بفعل يدل على الرؤية أو السماع. كقوله: ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ (ق: ٤١)، وقوله: ﴿وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا فَلَا فَوْتَ وَأُخِذُوا مِنْ مَكَانٍ قَرِيبٍ﴾ (سبأ: ١٥).

ومنه إسقاط لفظ القول. كما فى قوله: ﴿وَيَوْمَ يَحْشُرُهُمْ جَمِيعًا يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ قَدِ اسْتَكْثَرْتُمْ مِنَ الْإِنْسِ﴾ (الأنعام: ١٢٨)، وقوله: ﴿وَعُرِضُوا عَلَى رَبِّكَ صَفًّا لَقَدْ جِئْتُمُونَا كَمَا خَلَقْنَاكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ﴾ (الكهف: ٤٨).

والنوع الثانى، وهو تنزيل الجماد منزلة الحى، أقل استعمالاً، غير أنه ملحوظ فى بعض الآيات التى قصد بها إلى مزيد من التهويل، كقوله: ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ الْأَرْضُ زِلْزَالَهَا (١) وَأَخْرَجَتِ الْأَرْضُ أَثْقَالَهَا. وَقَالَ الْإِنْسَانُ مَا لَهَا. يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَى لَهَا﴾ (الزلزلة: ١ ـ ٥)؛ وقوله: ﴿إِذَا السَّمَاءُ انْشَقَّتْ وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ. وَإِذَا الْأَرْضُ مُدَّتْ وَأَلْقَتْ مَا فِيهَا وَتَخَلَّتْ. وَأَذِنَتْ لِرَبِّهَا وَحُقَّتْ﴾ (الإنشقاق: ١ ـ ٥).

كما يعد من التجريد، وصف شهادة الجلود والأسماع والأبصار على الكافرين، ومقاولتها إياهم، كما ورد فى (النور: ٢٤، ويس: ٦٥، وفصلت: ٢٠ ـ ٢١).

فأساليب التخييل ـ إذًا ـ تقوم على المبالغة فى استخدام الوجدان لتقريب المعانى والصور. وهى أساليب تعتمد على استعدادات فطرية فى النفس، وتلازم ـ غالبًا ـ كل وصف يراد به التأثير الوجدانى القوى.

الباب الثالث

المرامى

تمهيد
فى العلاقة بين الدين والفن

يلتقى الدين والفن فى كونهما تعبيرًا عن الجانب الوجدانى من النفس الإنسانية، وينفصل الدين بعد ذلك بجملة من المميزات المشتركة بين شتى الأديان، أخصها الإيمان بقوة عليا، وبحياة آخرة مثالية. على أن الدين يظل وثيق الصلة بالفن، لأن الدين - وإن صعب تحديد منشئه - «فموضوعه يتضمن - ولا بد - مشكلات الشخصية والوجود، والتقلبات العميقة فى الحياة والفكر[1]. «والأديان تختلف فى معالم أفكارها الكبرى، وفق اختلاف ظروفها التاريخية والاجتماعية، ولكن ما تنطوى عليه من تجربة نفسية عميقة، يكاد يكود عنصرًا خالدًا فى كل منها. فالكتب الدينية الكبرى تمثل حدًا أو مستوى عاليًا لا يزال الناس يجدونه مشبعًا للوجدان والفكر، ومحركًا للآمال والمثل، بل إن الطقوس الوحشية الفجة قد تنطوى على فكرة يمكن تقديرها على صورتها، وإن لم يمكن قبولها والتسليم بها. وإذ كانت التجارب النفسية هى موضوع الأدب، وكانت هذه التجارب أعمق ما توجد فى الدين، كان الأدب الدينى أرفع ألوان الأدب؛ وإذ كان الأدب الدينى يقوم على تجارب مشتركة بين الجنس الإنسانى كله، كان أعظمها وأجلها قيمة.

وقد مهد هذا الأصل النفسى لكل من الدين والأدب، كما مهد نمو الدراسة النفسية فى العصر الحديث إلى ربط الدراسة النفسية بالدراسة الدينية وبالدراسة الأدبية. فأصبحت الدراسة النفسية جزءًا مهمًا فى دراسة الدين. فعلم

---

(١) مادة Reilgion دائرة معارف الدين والأخلاق لها ستتجس وقد استقينا من هذه المقالة كثيرًا من الأفكار التى سقناها فى هذا التمهيد.

النفس الدينى يبحث استعداد الفرد لتقبل الأفكار الدينية والاحتفاظ بها، كما يبحث حاجاته النفسية والخلقية. فهو يعنى بالجانب الذاتى من المعتقدات التى يعتنقها الفرد ويمارسها.

أما ربط الدراسة النفسية بالأدب، فلا نعرفه أثمر حتى اليوم إلا محاولات متفرقة، نعثر عليها فى بعض الدراسات النقدية؛ وقلما أفرد هذا الموضوع بالبحث؛ على أن الرغبة فى إقامة النقد الأدبى وعلوم الشعر والبيان على أساس علمى متين. قد حدت بعض الباحثين إلى محاولة نظرية فى الأدب، على أساس النشاط النفسى، كما رسمته بعض المدارس الحديثة فى علم النفس. فقال إن العمل الفنى إنما هو تفسير لجانب من جوانب الحياة، وهو هذه الناحية يناظر العمل العلمى أو الفكرى المحض، سوى أن التفسير الفنى يعتمد على الوجدان أكثر من اعتماده على الفكر، ثم حاولوا وضع معايير تقاس بها قيمة هذا التفسير الفنى، كما بحثوا فى أدواته، من الكلمة، إلى التشبيه والاستعارة، إلى القصة والقصيدة، وحاولوا إخضاع الوحدة الفنية التى كثر القول فيها قديمًا، لوحدة التجربة النفسية، وطريقة فهم «الكل» وفق مذهبهم النفسى. فوجهة هذه الدراسة - كما ترى - هى فهم حقيقة العمل الأدبى، والاعتماد على ذلك الفهم لتقدير الأشكال الفنية، وأساليب التعبير[1].

وقد دعا أستاذنا أمين الخولى، إلى أن تقوم محاولة جديدة فى البلاغة والتفسير ترمى إلى استخدام القوانين النفسية التى توصل إليها علم النفس الحديث فى الفهم الأدبى[2]. فدعوته - إذًا - أعم وأشمل، وهى تناظر - فى البحث الأدبى - الدراسة النفسية التى أشرنا فى البحث الدينى. على أنه تنبغى التفرقة بين اللونين من البحث. فالدراسة النفسية للدين، أو علم النفس الدينى، ترمى إلى دراسة الجانب الذاتى من الدين، على أنه ناحية من النواحى التى تفسر بها الظواهر الدينية، مثلها فى ذلك مثل الدراسة التاريخية أو الدراسة الاجتماعية. أما التفسير النفسى فينبغى أن يكون وسلة إلى فهم التجربة النفسية التى ينطوى

---

(1) Mair and Reninger: A Psychological to Literary Criticism.

(٢) «البلاغة وعلم النفس «للأستاذ أمين الخولى.

عليها الأدب الدينى. ومن ثم كانت موضوعات «علم النفس الدينى» أكثر تحديدًا، فهو يبحث مثلاً عن «فجر التفكير الدينى» عند الإنسان والطفل، وعن «ألوان التجربة الدينية» من تصوف وروحانية وانجذاب إلخ. وعن «تأثير العقل فى الجسم» كمعجزات الشفاء بالإيمان مثلا. أما التفسير النفسى فهو أدنى إلى أن يعد لونًا من ألوان التفسير، منه إلى أن يعد فرعًا خاصًا منه، والمفسر، سواء أكان وقوفه عند لفظة مفردة، أم عند تركيب من التراكيب، أم عند معنى من المعانى، محتاج إلى حظ من الخبرة النفسية، يعينه على فهم مدخل هذا اللفظ المفرد أو هذا التركيب أو هذا المعنى العام إلى النفس الإنسانية.

وبعد، فأرى من الضرورى قبل أن أختم هذا التمهيد، أن أحدد ما أعنيه بدراسة «المرامى». فقد أوضحت فى مقدمة هذا البحث أن دراسة المرامى هى جزء من متمم للدراسة الأدبية، وسميتها إجمالا: المرامى الإنسانية والاجتماعية. هأنذا أتحدث عن لون من التفسير النفسى ينبغى أن يلون دراسة المرامى. فمن حق القارئ - إذًا - أن يعلم أنى لم أقصد بذلك كله، إلا وجوها مختلفة من فهم التجارب النفسية الكبرى، التى ينطوى عليها الدين: فى جوها الإنسانى الشامل، ثم فى جوها الاجتماعى الخاص، ثم فى جوها النفسى الفردى.

- ١ -

اقتراب الساعة

الآيات الأولى التى نزلت فى ذكر الحياة الآخرة[١] أكثرها وصف للعذاب الذى ينزل بالكافرين، حين تفجأ الساعة الناس فتسير الجبال وتفجر البحار وتفتح أبواب السماء (المزمل: ١١ - ١٩ والمدثر: ٨ - ٤٨، والتكوير: ١ - ١٤، والفجر: ٢١ -

---

(١) اتبعنا فى ملاحظة الترتيب الزمنى للآيات ترتيب مصحفنا، والروايات فى ترتيب السور والآيات مختلفة، وللمستشرقين جهود فى ذلك، على أنها لا تسمو بأية حال إلى مستوى اليقين أو شبهه... وعلى أية حال، فالملاحظة الواردة فى هذه الفقرة تصدق باتباع ترتيب المصحف وترتيب نولدكه على السواء.

٣٠)، ثم جاء بعد ذلك وصف النعيم مفصلا. على أن الوعيد «بالساعة» وهو لها لم ينقطع من القرآن مكيه ومدنيه. وقد رأينا من استعمال «الساعة» فى القرآن أنها تشير إلى هذا الانقلاب العنيف الذى يصاحب انقضاء الحياة الدنيا وابتداء الآخرة. ولم تأت ظرفًا للحساب والجزاء إلا فى قوله «ويوم تقوم الساعة»، وهو اتساع فى المعنى سوغه الاتساع فى التعبير.

ونلاحظ مجىء «الساعة» فى القرآن بما يفيد قرب وقوعها، فى (القمر: ١): **﴿اقْتَرَبَتِ السَّاعَةُ وَانْشَقَّ الْقَمَرُ﴾**، و(طه: ١٥): **﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾**، و(النحل: ٧٧): **﴿وَمَا أَمْرُ السَّاعَةِ إِلاَّ كَلَمْحِ الْبَصَرِ أَوْ هُوَ أَقْرَبُ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾**، و(محمد: ١٨): **﴿فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلاَّ السَّاعَةَ أَنْ تَأْتِيَهُمْ بَغْتَةً فَقَدْ جَاءَ أَشْرَاطُهَا فَأَنَّى لَهُمْ إِذَا جَاءَتْهُمْ ذِكْرَاهُمْ﴾**. وقد أشير أيضًا إلى اقتراب الحساب فى (الأنبياء: ١): **﴿اقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُعْرِضُونَ﴾**.

وقد روى فى هذا المعنى حديث للرسول ـ ﷺ ـ: «بعثت أنا والساعة كهاتين ـ وأشار بإصبعيه السبابة والتى تليها».

فهل كانت هذه الآيات، وهذا الحديث، إنباء بقرب قيام الساعة؟ يظهر أن لا. فآية (طه: ١٥): **﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا لِتُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا تَسْعَى﴾** هى من خطاب الله لموسى ـ عليه السلام ـ، وقد انقضت بين بعثه وبعث محمد ـ ﷺ ـ أزمان متطاولة، فلا يقال إذا إن الوعيد بقرب الساعة كان نبوءة لم تتحقق، إذ لو أريد بالقرب ما يتبادر إلى الذهن من معناه ما جاز أن يورد فى القرآن خطاب الله تعالى لموسى بقوله **﴿إِنَّ السَّاعَةَ آتِيَةٌ أَكَادُ أُخْفِيهَا﴾**. ثم إن فى القرآن آيات صريحة فى أن علم الساعة لله وحده، وأن تحديد زمان وقوعها بقرب أو بعد أمر محال (لقمان: ٣٤، والأحزاب: ٦٣، وفصلت: ٤٧، والزخرف:: ١٦، والنازعات: ٤٢ ـ ٤٤).

فإذا لم يكن فى تلك الآيات إنباء بدنو موعد الساعة، فبماذا نفسرها، وبماذا نفسر كون «قيام الساعة» وما يصحبه من ظواهر طبيعية خارقة، هما أول ما فصله القرآن من أحوال القيامة والحياة الآخرة؟

يقول يوسف هوروفتس: «لم تكن بين الأفكار التى تلقاها محمد عن العارفين بالأديان الأجنبية قبل نبوته، فكرة سيطرت عليه بقوة مثل فكرة الحساب الآخر، الذى سيقضى فى كل شىء بحكمة الخالد، ويقرر مصيره إلى الأبد، بعد أن ينقضى الدهر، وتبعث الموجودات جميعها. وكان كلما مثلت أهوال تلك «الساعة» أمام عينيه، ازداد يقينًا بأن مجيئها وشيك أن يقع فجأة. ولكن الله لما يبعث إلى قومه العرب «نذيرًا» يعدهم لفزع هذا اليوم، كما بعث إلى «أهل الكتاب»، فهل اصطفاه الله هو نفسه لهذا العمل؟ كانت الإجابة عن هذا السؤال بالإيجاب هى بدء شعور محمد بنبوته»[1].

وهكذا يرد هوروفتس الأمر إلى نفسية محمد، ويعد إيمانه باقتراب الساعة بدء شعوره بالنبوة. وهو فى تعليله هذا يساير رأى المستشرقين فى الوحى والنبوة، وجعلهم «نفسية محمد» أساسًا لفهم القرآن.. وسبيلنا إلى فهم المعانى القرآنية هو عكس هذا السبيل، فنحن لا نقيم منهجنا على رأى فى الوحى تسليمًا كان أم إنكارًا، بل نلتمس فهم المعانى القرآنية من دراسة البيئة المادية والفكرية للجزيرة العربية فى ذلك العهد، ونبحث عن مسالك هذه المعانى إلى النفس الإنسانية عمومًا، وعلى هذا الأساس نبين قيمتها. ولئن كانت دراسة المعانى بنسبتها إلى شخصية المنشئ أساسًا من أسس الدراسة الأدبية، إن هذه الدراسة الأدبية لا تخسر كثيرًا - أو هى لا تخسر شيئًا - حين ننسب المعانى القرآنية إلى البيئة وإلى النفس الإنسانية، وذلك لما أسلفناه من عموم التجربة الدينية وعمقها، اللذين يجعلان الجانب الفردى فيها أهون الجوانب شأنًا. هذا مع تصحيح المنهج العلمى، باجتنابنا الاعتماد على رأى سابق فى البعث والوحى. وإذا فنحن نفسر الإنذار بقرب الساعة على أساس من هذا المنهج الأدبى، فنقول:

إن فكرة الخراب النهائى للدنيا، فكرة قريبة كل القرب إلى عقول البشر، وكثير من الشعوب البدائية تؤمن بها على نحو من الأنحاء. وقد ترددت فكرة قرب خراب الدنيا فى كثير من أسفار العهد القديم، وخصوصًا الأخيرة منها، ممتزجة بفكرة

(1) Das Kornische Paradies, S.1.

عقاب الخاطئين من بنى إسرائيل وجمع أخيارهم من أقاصى الأرض ونصرهم على أعدائهم، ثم إسكانهم فى مملكتهم مطمئنين (إشعياء ١٣/ ٩ ـ ١٥ وإشعياء ٢٤ وإرميا ٢٥/ ١٥ ـ ٣٧ وحزقيال ٣٨ ويوئيل ٢/ ١ ـ ١١ وعاموس ٨/ ٧ ـ ١٠ وصفنيا ١ ـ ٣). وقد ورد ذكر «ملكوت السموات» وقرب مجيئه فى الأناجيل منسوبًا إلى عيسى، ومن ذلك هذه العبارة التى وردت بصور مختلفة فى أناجيل متى ورمرقس ولوقا: «الحق أقول لكم إن من القيام ههنا قومًا لا يذوقون الموت حتى يروا ابن الإنسان آتيا فى ملكوته» (متى ١٦/ ٢٨ ومرقس ٩/ ١ ولوقا ٩/ ٢٧). ومهما يكن التفسير المحدث لهذه العبارات، فقد آمن المسيحيون الأول بقرب انتهاء العالم وقيام مملكة الله[1]. وإذا فقد كانت كتب اليهود المقدسة، وكتب النصارى المقدسة، على السواء، تعدهم بدنو حياة جديدة، على النحو الذى تصوره أهل كل من هذين الدينين من الحياة الجديدة. وما كان الاعتقاد بقرب هذا التحول ليضعف على الأجيال، بل ما أشك فى أنه ازداد قوة، فى ذلك الصقع من الشرق الذى عانى ما عانى من الحكم الرومانى، وبين أولئك اليهود الذين ما برحوا مشتتين فى أرجاء الأرض. وما أشك أيضًا فى أن هذه الأفكار كانت بعض ما تسرب إلى أهل مكة ويثرب من معتقدات اليهود والنصارى. وهكذا وجد القرآن بيئة معنوية تتسامع بقرب خراب الدنيا، وتتساءل ـ متعجبة أو مستهزئة ـ عن موعد ذلك الحادث الذى كثر القول فيه. وكان تلقيهم لوعيد القرآن بقيام الساعة يتفق مع هذا المسلك، فلم يلقوه بشىء من حجج المنكرين، كما لقوا فكرة البعث مثلا (الإسراء: ٤٩، والمؤمنون: ٨٢ ـ ٨٣، والصافات: ١٦ ـ ١٧، والواقعة: ٤٧ ـ ٤٨)، بل استبقوا هذا الوعيد هازئين، متحدين، وكان سؤالهم الذى يرومون به معاجزة النبى: «متى هذا الوعد إن كنتم صادقين؟ فكانت طريقة القرآن فى الرد على هذا التحدى آية من آيات الإعجاز النفسى فى بث الدعوة: استخدم «الخوف من المجهول» أساسًا يقيم عليه الفكرة فى نفوس الناس، ثم أخذ يثبتها بالإيحاء المتكرر، ليحصل فى النفوس من ذلك اليقين بوقوعها، فإذا بلغت النفس من

---

(١) مادة Eschotolgy فى دائرة معارف الدين والأخلاق لهاستنجس.

الإيمان بالفكرة هذا الحد، لم تكن فى حاجة إلى معرفة زمان الساعة، بل كانت هذه الساعة ماثلة لها تكاد تشغل فراغ الزمن كله... فهى مشفقة منها، فى شغل بالاستعداد لها عن السؤال عنها. وبهذا الأسلوب من المنطق الوجدانى يواجه القرآن السائلين المستهزئين: **﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. مَا يَنْظُرُونَ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً تَأْخُذُهُمْ وَهُمْ يَخِصِّمُونَ. فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ تَوْصِيَةً وَلاَ إِلَى أَهْلِهِمْ يَرْجِعُونَ﴾** (يس: ٤٨ ـ ٥٠)؛ **﴿وَيَقُولُونَ مَتَى هَذَا الْوَعْدُ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ. قُلْ لاَ أَمْلِكُ لِنَفْسِي ضَراً وَلاَ نَفْعًا إِلاَّ مَا شَاءَ اللَّهُ لِكُلِّ أُمَّةٍ أَجَلٌ إِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ فَلاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ. قُلْ أَرَأَيْتُمْ إِنْ أَتَاكُمْ عَذَابُهُ بَيَاتًا أَوْ نَهَاراً مَاذَا يَسْتَعْجِلُ مِنْهُ الْمُجْرِمُونَ. أَثُمَّ إِذَا مَا وَقَعَ آمَنْتُمْ بِهِ آلآنَ وَقَدْ كُنْتُمْ بِهِ تَسْتَعْجِلُونَ﴾** (يونس: ٤٨ ـ ٥١)؛ **﴿أَفَأَمِنُوا أَنْ تَأْتِيَهُمْ غَاشِيَةٌ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ أَوْ تَأْتِيَهُمُ السَّاعَةُ بَغْتَةً وَهُمْ لاَ يَشْعُرُونَ﴾** (يوسف: ١٠٧)؛ **﴿وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّ السَّاعَةَ قَرِيبٌ. يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لاَ يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ أَلاَ إِنَّ الَّذِينَ يُمَارُونَ فِي السَّاعَةِ لَفِي ضَلاَلٍ بَعِيدٍ﴾** (الشورى: ١٧ ـ ١٨).

فالقرآن ـ إذًا ـ لا يصور قرب الساعة أو بعدها فى مقاييس الزمن، بل يتجاوز عن سؤال السائلين عن موعدها، ويقرر ـ بأسلوبه النفسى الخاص ـ أن وقوعها جائز فى كل وقت، فأولى بالسائل أن يستعد لها. من أن يجادل فيها. وإذا وصفت الساعة فى بعض الآيات بقرب الوقوع فهذا جزء من المسلك العام فى الرد على المتسائلين عن وقتها. فالساعة قريبة لا شك: هى كذلك فى تصور المؤمن، بل هى عنده أشبه بحقيقة واقعة، يدلك على هذا المعنى قوله **﴿يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ﴾** (العنكبوت: ٥٤). أما أن تقع الساعة بعد يوم أو بعد عام أو بعد ألف عام، فهذا ما لم يشر إليه القرآن، بل نسب الاستعمال بالساعة» إلى «الذين لا يؤمنون بها» فبين أن السؤال عن الساعة أو استقراب زمنها إنما هو ناشئ عن الشك فى حقيقتها، وأزال هذا الشك بأسلوبه فى الإيحاء، لتصبح الساعة قريبة كل القرب بمقاييس الوجدان، لا بمقياس الزمان».

- ٢ -

أشراط الساعة

وقد تحدث المفسرون المسلمون عن أشراط الساعة أو علاماتها التى تسبقها، فذكروا من ذلك انفطار السماء وانتثار الكواكب وتفجير البحار ودك الجبال، ويأجوج ومأجوج والدابة التى تكلم الناس.

وقد أسلفنا فى فصل «التوجيه» من الباب السابق قيمة وصف الرجفة فى تهيئة الذهن لما بعده من وصف الحساب والثواب والعقاب ولكن الملاحظة التى أوردناها عند شرح معانى «الرجفة» فى الباب الأول، بشأن تقابل معانى الانفطار والانفجار والتسيير بما هو من وصف حال السماء والنجوم والبحار والجبال اليوم، قد تهدينا إلى فهم مقاصد بعيدة الغور من هذه الأوصاف. فقد وردت فى القرآن آيات كثيرة فى بيان انتظام الكون، والإشارة إلى اتساق نواميسه: **﴿وَالشَّمْسِ وَضُحَاهَا وَالْقَمَرِ إِذَا تَلاهَا وَالنَّهَارِ إِذَا جَلاَّهَا وَاللَّيْلِ إِذَا يَغْشَاهَا وَالسَّمَاءِ وَمَا بَنَاهَا وَالأَرْضِ وَمَا طَحَاهَا﴾** (الشمس: ١ ـ ٦)؛ **﴿أَفَلا يَنْظُرُونَ إِلَى الإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ. وَإِلَى السَّمَاءِ كَيْفَ رُفِعَتْ. وَإِلَى الْجِبَالِ كَيْفَ نُصِبَتْ. وَإِلَى الأَرْضِ كَيْفَ سُطِحَتْ﴾** (الغاشية: ١٧ ـ ٢٠)؛ **﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّا جَعَلْنَا اللَّيْلَ لِيَسْكُنُوا فِيهِ وَالنَّهَارَ مُبْصِرًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ﴾** (النمل: ٨٦)... والشواهد على هذا المعنى كثيرة فى القرآن، نجتزئ منها بما ذكرناه. ثم هنالك غير هذه الآيات، آيات أخرى كثيرة، تدل على أن المخلوقات جميعها تمر بأحوال متغيرة من الميلاد إلى الفناء: **﴿ وَالتِّينِ وَالزَّيْتُونِ. وَطُورِ سِينِينَ. وَهَذَا الْبَلَدِ الأَمِينِ. لَقَدْ خَلَقْنَا الإِنسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ. ثُمَّ رَدَدْنَاهُ أَسْفَلَ سَافِلِينَ﴾** (التين: ١ ـ ٥)، **﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ثُمَّ يَتَوَفَّاكُمْ وَمِنْكُمْ مَنْ يُرَدُّ إِلَى أَرْذَلِ الْعُمُرِ لِكَيْلا يَعْلَمَ بَعْدَ عِلْمٍ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ قَدِيرٌ﴾** (النحل: ٧٠)؛ **﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لأُولِي الأَلْبَابِ﴾** (الزمر: ٢١) ـ فهل تخرج

الحياة الدنيا كلها عن هذا المثل. مثل الخلق فالتغير فالفناء؟ ﴿أَفَلاَ يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى الأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (الأنبياء: ٤٤)؛ ﴿وَاضْرِبْ لَهُمْ مَثَلَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنْزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ فَأَصْبَحَ هَشِيماً تَذْرُوهُ الرِّيَاحُ وَكَانَ اللَّهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ مُقْتَدِراً﴾ (الكهف: ٤٥). كذلك الكون الرائع الذى نعيش فيه لا بد له من نهاية، ونهايته إنما تكون بانحلال قوانينه الضابطة له، وانطلاق قوى التخريب فيه.

ثم وراء هذا الكون المتغير الفانى، حياة أخرى هى حياة دوام واستقرار: ﴿مَا عِنْدَكُمْ يَنْفَدُ وَمَا عِنْدَ اللَّهِ بَاقٍ﴾ (النحل: ٩٦)؛ ﴿ادْخُلُوهَا بِسَلاَمٍ ذَلِكَ يَوْمُ الْخُلُودِ﴾ (ق: ٣٤). فتأثير آيات الرجفة فى النفس لا يرجع إلى ما فيها من الترهيب فحسب، بل يرجع أيضًا إلى مطابقة ذلك الوصف لما تحسه النفس من التغير الدائم فى هذا الكون، فتقبل فكرة الوجود الكامل الأبدى، الذى يقابل هذا الوجود المتغير من كور إلى حور.

والنفس لا تحمل هذه الفكرة على أنها أمل يدفع إليه اليأس من الحياة الحاضرة. كلا. فالقرآن لم يدع إلى شىء من هذا اليأس - فالمؤمنون هم المنصورون (الصافات: ١٧٢) وهم الغالبون (المائدة: ٥٦، الصافات: ١١٦، ١٧٣) وهم الأعلون (آل عمران: ١٣٩، ومحمد: ٣٥)، بل إنها تحملها بحكم نزوعها إلى الوجود الكامل، وتحملها على أنها حقيقة شاهدة، توجه خطوات المرء فى هذه الحياة الدنيا.

فقد رأينا فى هذا الفصل وفى سابقه كيف تناول القرآن فكرة اقتراب الساعة، بما تتضمنه من معنى الخلاص المفاجئ لشعب يحس أنه مضطهد، أو لأهل دعوة يعانون الظلم والتعذيب، فجعل هذا القرب - بأسلوبه من التأثير الوجدانى - قربًا نفسيًا، ثم رأينا كيف تساندت آياته على جعل قيام هذه الساعة أمرا يتلقاه الفكر بالقبول، لا تساقه مع طبيعة الكون من التغير الدائب، كما يتلقاه الوجدان بالتسليم، لما ركز فى النفس الإنسانية من خوف المجهول.

ويسمو القرآن بهذه الفكرة، وبهذا الوجدان، فيربطهما بنزوع النفس الطبيعى إلى الكمال، ليصور وجودًا مثاليًا، يؤمن به المؤمن، لا على أنه نهاية محتومة فحسب، بل على أنه حقيقة شاهدة، يحسها فى أطواء نفسه، فيسمو على أحداث الكون المتغيرة.

وهذه الفكرة الأخيرة، أى إشباع حاجة النفس الإنسانية إلى الشعور بوجود كامل خالد، تربط بينه وبين الحياة الحاضرة فى تغيرها وتشوهها واختلاطها، وتستوحيه حين تضطرب فيها، هى الفكرة التى ترتكز عليها معانى الحساب والجزاء الأخرويين فى القرآن، على ما سنبنيه فى الفصل التالى.

- ٣ -

توفية الجزاء

لقد كانت من كبرى المسائل التى شغلت النفس البشرية الناظرة فى أحوال الكون، مسألة التوفيق بين كمال عدل الله وكمال قدرته، وبين ما يفجأ المتأمل من أن شرار الناس لا يجزون بشر أعمالهم دائمًا، بل كثيرًا ما يعيشون فى أمن ونعمة، على حين يلقى كثير من الأبرار عذابًا أليمًا بغير ذنب. ذلك معنى من المعانى الكبرى التى يدور حولها الأدب. ومما يتفرع عن هذا المعنى الكبير، المعانى التى قيلت فى ذم الدهر، أو «هجو الزمان»، ومعانى الاستسلام لقوة كبرى يعجز المرء عن فهمها أو إدراك غايتها، ومعانى التشاؤم التى تلون الحياة بلون أسود قاتم، ومعانى التمرد العنيف، الذى يواجه صروف الحياة مواجهة المستسخر الناقم، لا يرى فى خطوبها وأفراحها إلا مظاهر من إرادتها المضطربة.. ومعانى السخر الهادئ، الذى لا يرى للحياة حكمة ولا يثبت لها غاية... انظر مثلا إلى هذه الصورة الحزينة، المتشائمة، الهادئة، الساخرة، التى يرسمها المعرى لنفسه وللعالم:

كل ذكـــر من بــعـــده نـســيـــان وتـــغـــيب الآثـــار والأعــــيـــان

إنمـــا هـــذه الحـيــــاة عــــنــــاء فليــخبرك عن أذاها العيان

مــايـحــس الـتــــراب ثـقــــلا إذ ديـس ولا المـــاء يـتــعب الجــريــان

نــفس بــعــد مــثـله يـتـــقـــضى وتــمـــر الـدهـــور والأحــيــان

قد ترامت إلى الفســاد البـــرايا واستولت فى الضلالة الأديـان

أنت فى السهل أعوزتك الخـزامى أو على النيق ما به الطـيـان

طال صبرى، فقيل أكتم شـــبعا ن وإنــــى لمنطو طـــيان

أنـا أعـمـى، فـكـيـف أهـدى إلى المـنـهج والـنــاس كــلـهم عــمـــيـان

والـعصـا لـلضريـر خيـر من الـقـا ئـد فـيه الـفجـور والـعصـيان

وقد يعجب القارئ حين يعلم أن هذه النبرة الحزينة المتشائمة تتردد كثيرًا فى أسفار العهد القديم. ففى المزمور الثالث والسبعين: «أما أنا فكادت تزل قدماى. لولا قليل لزلفت خطواتى. لأنى غرت من المتكبرين إذ رأيت سلامة الأشرار. لأنه ليس فى موتهم شدائد وجسمهم سمين. ليسوا فى مصائب الناس ومع البشر لا يصابون». وسفر أيوب مبنى كله على الصراع بين الفكرتين: أن وراء مظاهر الحياة المضطربة البادية الخطأ أحيانًا قوة مهيمنة عادلة، وأن الحياة الإنسانية فوضى لا ضابط لها. ومن الصراع بين هاتين الفكرتين تصعد ألحان من الألم الخالد، تهز النفس هزًا عنيفًا: «لم يعط لشقى نور وحياة لمرى النفس! الذين ينتظرون الموت وليس هو، ويحفرون عليه أكثر من الكنوز. المسرورين إلى أن يبتهجوا، الفرحين عندما يجدون قبرًا. لرجل قد خفى عليه طريقه وقد سيج الله حوله، لأنه مثل خبزى يأتى أذينى ومثل الحياة تنسكب. زفرتى». (أيوب: ٣/ ٢٠ ـ ٢٤) كامل أنا. لا أبالى بنفسى. رذلت حياتى. هى واحدة. لذلك قلت إن الكامل والشرير هو يفنيهما. إذا قتل السوط بغتة يستهزئ بتجربة الأبرياء. الأرض مسلمة ليد الشرير. يغشى وجوه قضاتها ... وإن لم يكن هو فإذا من؟ أيامى أسرع من عداء. تفر ولا ترى خيرًا. تمر مع سفن البردى. كنسر ينقض إلى قنصه. إن

قلت أنسى كربتى أطلق وجهى وأتبلج أخاف من كل أوجاعى عالمًا أنك لا تبرئنى. (أيوب: ٩/ ٢١ ـ ٢٧) ـ «فلماذا أخرجتنى من الرحم؟ كنت قد أسلمت الروح ولم ترنى عين. فكنت كأنى لم أكن فأقاد من الرحم إلى القبر. أليست أيامى قليلة أترك! كف عنى فأتبلج قليلاً! قبل أن أذهب ولا أعود.. إلى أرض ظلمة وظل الموت، أرض ظلام مثل دجى ظل الموت، بلا ترتيب، وإشراقها كالدجى» (أيوب: ١٠/ ١٨ ـ ٢١).

والحياة تظهر لهذا النوع من التفكير عناء باطلاً، كما فى سفر الجامعة (١/ ١٢ ـ ١٨) «أنا الجامعة كنت ملكًا على إسرائيل فى أورشليم. ووجهت قلبى للسؤال والتفتيش بالحكمة عن كل ما عمل تحت السموات. هو عناء ردىء، جعلها الله لبنى البشر ليعنوا فيه. رأيت كل الأعمال التى عملت تحت الشمس فإذا الكل باطل وقبض الريح.. الأعوج لا يمكن أن يقوم والنقص لايمكن أن يجبر. أنا ناجيب قلبى قائلاً: ها أنا قد عظمت وازددت حكمة أكثر من كل من كان قلبى على أورشليم، وقد رأى قلبى كثيرًا من الحكمة والمعرفة ووجهت قلبى لمعرفة الحكمة والمعرفة والحماقة والجهل، فعرفت أن هذا أيضًا قبض. الريح. لأن فى كثرة الحكمة كثرة الغم والذى يزيد علما يزيد حزنًا. «كما يظهر الموت هوة سحيقة لا قرار لها: «من يعلم روح بنى البشر هى هل تصعد إلى فوق ـ وروح البهيمة هل هى تنزل إلى أسفل إلى الأرض» (الجامعة ٣/ ٢١) ـ «لكل الأحياء يوجد رجاء فإن الكلب الحى خير من الأسد الميت؛ لأن الأحياء يعلمون أنهم سيموتون، أما الموتى فلا يعلمون شيئًا وليس لهم أجر بعد، لأن ذكرهم نسى، ومحبتهم وبغضته وحسدهم هلكت منذ زمان، ولا نصيب لهم بعد إلا الأبد فى كل ما عمل تحت الشمس» (الجامعة ٩/ ٤ ـ ٦).

نعم أن القارئ لأفسار العهد القديم يجد الفكرة المقابلة لهذه، وهى نصرة المؤمنين الصابرين فى النهاية، وفوز الأخيار وبوار الأشرار، كما فى أيوب ٤٢/ ١٢. «وبارك الله آخرة أيوب أكثر من أولاه» والمزمور السابع والثلاثين ٨/ ١١: «كف عن الغضب واترك السخط ولا تغر لفعل الشر؛ لأن عاملى الشر يقطعون

والذين ينتظرون الرب هم يرثون الأرض. بعد قليل لا يكون الشرير. تطلع فى مكانه فلا يكون. أما الودعاء فيرثون الأرض ويتلذذون فى كثرة السلامة». على أنك لا تجد فى هذه الأقوال تفسيرًا لتلك المظاهر المتناقضة فى الحياة الدنيا، من شر يعقب خيرًا، وخير يعقب شرًا، وبرىء يعذب بلا إثم، وآثم يفلت من العقاب. حتى حين يقرأ صيحة المسيح» إلهى إلهى لماذا تركتنى»، تحس هذا المعنى واضحًا عنيفًا تحار النفس حيرة شديدة فى تصور جوابه.

ولسنا بصدد بيان لتفسير القرآن للحياة الدنيا جميعًا، ولتلقى الإنسان لها، وموقفه منها، ولكننا نقف أمام هذه الفكرة الرئيسية، فكرة الجزاء الدنيوى ومطابقته للعمل، ونعرض لهذه الفكرة من حيث تأثيرها الوجدانى، أى من حيث ما تحدثه الفكرة من يأس وتشاؤم، أو قلق وجزع، أو استسلام وخضوع، أو اطمئنان مستشرف طامح.. فنلاحظ أولا أن القرآن قد عارض فكرة الدهرية أوالمادية الصرف، فرد على أولئك؛ الذين قالوا: **﴿إِنْ هِيَ إِلاَّ حَيَاتُنَا الدُّنْيَا نَمُوتُ وَنَحْيَا وَمَا نَحْنُ بِمَبْعُوثِينَ﴾** (المؤمنون: ٣٧). وأوضح أن وراء الموت والحياة ناموسًا أعظم، هو تجدد الأجيال، وتتابع الأمم، على حكمة ونظام: **﴿قَالَ عَمَّا قَلِيلٍ لَيُصْبِحُنَّ نَادِمِينَ. فَأَخَذَتْهُمُ الصَّيْحَةُ بِالْحَقِّ فَجَعَلْنَاهُمْ غُثَاءً فَبُعْدًا لِلْقَوْمِ الظَّالِمِينَ. ثُمَّ أَنْشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قُرُونًا آخَرِينَ. مَا تَسْبِقُ مِنْ أُمَّةٍ أَجَلَهَا وَمَا يَسْتَأْخِرُونَ﴾** (المؤمنون: ٣٩ ـ ٤٢). ووراء هذا الناموس أيضا ناموس أكبر وأوسع: ناموس الحياة الخالدة: **﴿قُلِ اللَّهُ يُحْيِيكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ثُمَّ يَجْمَعُكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ لاَ رَيْبَ فِيهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ﴾** (الجاثية: ٢٦). وأكد القرآن جلال الخلق وحكمته: **﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاَعِبِينَ. لَوْ أَرَدْنَا أَنْ نَتَّخِذَ لَهْوًا لاَتَّخَذْنَاهُ مِنْ لَدُنَّا إِنْ كُنَّا فَاعِلِينَ. بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ﴾** (الأنبياء: ١٦ ـ ٢٠). **﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لاعِبِينَ. مَا خَلَقْنَاهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لاَ يَعْلَمُونَ﴾** (الدخان: ٣٨ ـ ٣٩). **﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لاَ تُرْجَعُونَ﴾** (المؤمنون: ١١٥).

على أن نعيم الحياة الدنيا ليس مما ينبغى أن تصرف إليه النفس جل همها، حتى تنطمس، بصيرتها، وتنغمس فى تفاهات الحياة، ثم لا تستطيع النهوض منها، بل هى تكبو لم تنهض، وتسير ثم تقف. إنما اللبيب من لم تستغرقه أفراح الحياة وأتراحها استغراقًا تامًا، بل سما عليها سموًا، فحرر نفسه بذلك من دوافع الحياة ونوازعها، بل قل ملك هذه النوازع، وتلك الدوافع، بدلا من أن يتركها تملكه وتستبد به. انظر إلى قوله تعالى: ﴿**لاَ يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلاَدِ (١٩٦) مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ**﴾ (آل عمران: ١٩٦ ـ ١٩٧)، وإلى قوله ﴿**وَأَلَّوْ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لأَسْقَيْنَاهُمْ مَاءً غَدَقاً (١٦) لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ وَمَنْ يُعْرِضْ عَنْ ذِكْرِ رَبِّهِ يَسْلُكْهُ عَذَاباً صَعَداً**﴾ (الجن: ١٦ ـ ١٧)، ثم انظر إلى هذه الآيات الكريمة فى وصف حال النفس المقسمة بين نوازعها: قوله تعالى من ذكرالمنافقين: ﴿**مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِى اسْتَوْقَدَ نَاراً فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَاتٍ لاَ يُبْصِرُونَ (١٧) صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لاَ يَرْجِعُونَ (١٨) أَوْ كَصَيِّبٍ مِنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِى آذَانِهِمْ مِنَ الصَّوَاعِقِ حَذَرَ الْمَوْتِ وَاللَّهُ مُحِيطٌ بِالْكَافِرِينَ (١٩) يَكَادُ الْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَارَهُمْ كُلَّمَا أَضَاءَ لَهُمْ مَشَوْا فِيهِ وَإِذَا أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ**﴾ (البقرة: ١٧ ـ ٢٠). وانظر قوله تعالى فيما ينبغى للمؤمن أن يعتقده من أن المصائب التى تنزل به إنما هى بحكمة وميزان، فلا ينبغى أن يجزع لها، كما لا ينبغى أن يفرط فى الفرح بما يؤتيه الله: ﴿**مَا أَصَابَ مِنْ مُصِيبَةٍ فِى الأَرْضِ وَلاَ فِى أَنْفُسِكُمْ إِلاَّ فِى كِتَابٍ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَبْرَأَهَا إِنَّ ذَلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ (٢٢) لِكَيْلاَ تَأْسَوْا عَلَى مَا فَاتَكُمْ وَلاَ تَفْرَحُوا بِمَا آتَاكُمْ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ**﴾ (الحديد: ٢٢ ـ ٢٣). وأحب أن أقف وقفة عند قوله: «فى الأرض ولا فى أنفسكم»، فقد قدم الأرض، وهى الأعم، على النفس، وهى الأخص، فكأنه نبه المتأمل إلى أنه لا ينبغى أن يجعل نفسه محور الكون، بل هو حرى أن ينظر إلى الكون كله، ويعلم أن كونه الصغير، جزء من هذا الكبير، فإذا ضجر كان حقه ألا يضجر مما ينزل بنفسه

فقط، بل إن يضجر قبل ذلك لما ينزل بالخلق كله من مصائب. إذا فمتاع الحياة الدنيا ليس كل ما ينبغى أن يهتم به المؤمن. والمصائب التى تنزل به أو بغيره لا ينبغى أن تدفعه إلى اليأس والتشاؤم، لأن لهذه المصائب سببًا وحكمة. فإذا تساءلت عن هذا السبب وهذه الحكمة فلعلك واجد جواب سؤالك فى مثل هذه الآية: **﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِظُلْمِهِمْ مَا تَرَكَ عَلَيْهَا مِنْ دَابَّةٍ وَلَكِنْ يُؤَخِّرُهُمْ إِلَى أَجَلٍ مُسَمًّى فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لاَ يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلاَ يَسْتَقْدِمُونَ﴾** (النحل: ٦١). فالحياة مبنى نصفها على العدل والخير، ونصفها على الظلم والشر، ولو أراد الله ـ سبحانه ـ أن يمحو الشر منهم لمحاها جميعًا. ولكنه يجرى ناموس الحياة على ما تراه من تجاذب وتدافع، ومد وجز، وأخذ ورد، والحق هو المنتصر فى النهاية. انظر إلى قوله تعالى من قصة داود وجالوت: **﴿وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانْصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ. فَهَزَمُوهُمْ بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُدُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلاَ دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لَفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾** (البقرة: ٢٥٠ ـ ٢٥١).

وموقف المؤمنين مما يزل بهم من المصائب هو بعض ما تتقه النفس من المعانى الكبرى فى عظمة الله تعالى للمسلمين حين أصابهم ما أصابهم يوم أحد (آل عمران ـ ١٢١ ـ ١٨٠). فلا ينبغى أن يحسب المؤمنون أن انتصارهم على أعدائهم لا بد أن يدوم، فليس ذلك شأن الحياة: **﴿إِنْ يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ الْقَوْمَ قَرْحٌ مِثْلُهُ وَتِلْكَ الأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَتَّخِذَ مِنْكُمْ شُهَدَاءَ وَاللَّهُ لاَ يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (١٤٠) وَلِيُمَحِّصَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَيَمْحَقَ الْكَافِرِينَ﴾** (آل عمران: ١٤٠ ـ ١٤١). على أن المؤمن لا ينبغى أن يجزع ويسخط حين تنزل به مصيبة، فلعله لو وعى تدبير لأدرك أنه ليس مبرأ كل البراءة من إثمها، ولا عليه من ذلك إذ تاب وأصلح، فإن الحياة الدنيا دار كدح وعمل، ما من محسن إلا تقع منه بعض الإساءة: **﴿أَوَلَمَّا أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا**

قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (آل عمران: ١٦٥)، ﴿إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنْكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ﴾ (آل عمران: ١٥٥).

أما أولئك الذين قتلوا وهم يحاربون لنصرة دينهم فانظر ماذا يقول القرآن فيهم: ﴿وَلَئِنْ قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمَعُونَ (١٥٧) وَلَئِنْ مُتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللَّهِ تُحْشَرُونَ﴾ (آل عمران: ١٥٧ ـ ١٥٨)، ﴿وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ. فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِنْ فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِمْ مِنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (آل عمران: ١٦٩ ـ ١٧٠).

وهكذا نرى القرآن يقابل بين النعيمين النعيم القريب الزائل والنعيم البعيد الدائم: نعيم الدنيا ونعيم الأخرة. وشواهد ذلك فى القرآن كثيرة لا نحتاج إلى أن ننبه عليها. وما هذه المقابلة إلا لصرف النفس عن الجزاء الخالد الأبدى، ورياضتها على أن تنظر إلى الحياة نظر العامل المجاهد، لا نظر المستمتع اللاهى. وتتلخص هذه النظرة فى عدد من الآيات: ﴿إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ (الكهف: ٧). ﴿تَبَارَكَ الَّذِي بِيَدِهِ الْمُلْكُ وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ. الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ﴾ (الملك: ١ ـ ٢).

«فالعمل» هو غاية المؤمنين الصادقين من الحياة الدنيا، وهم يصيبون ويصابون، ولكنهم يعلمون أن الحق غالب حتمًا، وأن وراء هذا الصراع الدائب يومًا تحاسب فيه الأمم، ويحاسب فيه الأفراد، فلا رجوع عندئذ، ولا عتب، ولا إصلاح لما فات، إذ قد بل كل شىء مستقره، وآن أن يفصل بين الصالح والطالح: ﴿لِيَمِيزَ اللَّهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ الْخَبِيثَ بَعْضَهُ عَلَى بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُ فِي جَهَنَّمَ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ (الأنفال: ٣٧). والسؤال والحساب يتمان على أكمل وجه، وأعمال المرء جميعها تحسب له أو عليه: ﴿هُنَالِكَ تَبْلُو كُلُّ

نَفْسٍ مَا أَسْلَفَتْ﴾ (يونس: ٣٠)، **﴿وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ فَلاَ تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئًا وَإِنْ كَانَ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفَى بِنَا حَاسِبِينَ﴾** (الأنبياء: ٤٧)، **﴿الْيَوْمَ تُجْزَى كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ لاَ ظُلْمَ الْيَوْمَ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾** (غافر: ١٧)، **﴿فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْراً يَرَه. وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَراً يَرَه﴾** (الزلزلة:" ٧ ـ ٨).

ومن تمام العدل فى الحساب ألا يشهد على كل قوم إلا شاهد منهم، كما فى (النحل: ٨٤): **﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً ثُمَّ لاَ يُؤْذَنُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا وَلاَ هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ﴾**، (النحل: ٨٩) **﴿وَيَوْمَ نَبْعَثُ فِى كُلِّ أُمَّةٍ شَهِيداً عَلَيْهِمْ مِنْ أَنْفُسِهِمْ وَجِئْنَا بِكَ شَهِيداً عَلَى هَؤُلاَءِ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ﴾**، ومن تمام العدل فى الحساب ألا يقاس العمل بنتيجته الظاهرة فحسب، بل بالدافع عليه أيضًا، فلا مكافأة على عمل خير لم يبتغ به صاحب ومرضاة الله وحده، بل أراد به بعض متاع الدنيا، **﴿قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالأَخْسَرِينَ أَعْمَالاً. الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا. أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَلِقَائِهِ فَحَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَلاَ نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا﴾** (الكهف: ١٠٣ ـ ١٠٥).

ومن تمام العدل فى الحساب أيضا ألا يكون جزاء الطاغى المضل كجزاء التابع المضلل، وإن اشتركا فى العذاب: **﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ مَاذَا أَنْزَلَ رَبُّكُمْ قَالُوا أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ. لِيَحْمِلُوا أَوْزَارَهُمْ كَامِلَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَمِنْ أَوْزَارِ الَّذِينَ يُضِلُّونَهُمْ بِغَيْرِ عِلْمٍ أَلاَ سَاءَ مَا يَزِرُونَ﴾** (النحل: ٢٤ ـ ٢٥)، **﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِلَّذِينَ آمَنُوا اتَّبِعُوا سَبِيلَنَا وَلْنَحْمِلْ خَطَايَاكُمْ وَمَا هُمْ بِحَامِلِينَ مِنْ خَطَايَاهُمْ مِنْ شَىْءٍ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ. وَلَيَحْمِلُنَّ أَثْقَالَهُمْ وَأَثْقَالاً مَعَ أَثْقَالِهِمْ وَلَيُسْأَلُنَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَمَّا كَانُوا يَفْتَرُونَ﴾** (العنكبوت: ١٢ ـ ١٣).

ومن تمام العدل فى الحساب ألاتكون الحسنة بمنزلة السيئة. فتقديم الحسنة يتطلب جهاد النفس ومغالبة الشهوات، فكان تقديم حسنة واحدة أعسر من الكف

عن سيئات كثيرة. وليس الإنسان الخيرمن لم يسئ قط ولا من كانت حسناته أكثر من ذنوبه، بل هو من جاهد ليقدم عملاً صالحًا يستر به ذنوبا كثيرة. ولهذا كان جزاء المحسن على إحسانه أعظم من عقاب المسىء على مصيته: ﴿إِنَّ اللَّهَ لاَ يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ وَإِنْ تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِنْ لَدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ (النساء: ٤٠). ﴿وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللَّهِ وَيَعْمَلْ صَالِحًا يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ (التغابن: ٩).

ومن تمام العدل فى الحساب ألا يحمل أحد ذنب غيره، وألا تقبل الشفاعة فى المذنبين: ﴿وَبَرَزُوا لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ اللَّهِ مِنْ شَيْءٍ قَالُوا لَوْ هَدَانَا اللَّهُ لَهَدَيْنَاكُمْ سَوَاءٌ عَلَيْنَا أَجَزِعْنَا أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِنْ مَحِيصٍ﴾ (إبراهيم: ٢١)، ﴿يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا. وَنَسُوقُ الْمُجْرِمِينَ إِلَى جَهَنَّمَ وِرْدًا. لاَ يَمْلِكُونَ الشَّفَاعَةَ إِلاَّ مَنِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْدًا﴾ (مريم: ٨٥ ـ ٨٧)، ﴿يَوْمَئِذٍ لاَ تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلاَّ مَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ وَرَضِيَ لَهُ قَوْلاً﴾ (طه: ١٠٩).

هذا هو وصف القرآن للجزاء الكامل يوم القيامة، وهو وصف يؤدى ـ على ما بينا ـ إلى فهم أعمق لهذه الحياة الدنيا، وإلى نظرة أرقى لها. والمعانى التى أسلفناها تتكرر فى آيات كثيرة، وبطرق مختلفة، وفى صورة متعددة، وما ذلك إلا لتثبيت الفكرة فى النفوس، فيطمئن إلى حكمة الخلق وعدالته، ويزداد ثباتًا فى جهاده الدنيوى، وتتزعزع نفس الكافر كلما سمع وصف أهوال ذلك اليوم، الذى لا يدرى متى يكون، وإنه ليرى نفسه حين يبعث، وحين يحشر، وحين يسأل، ويرى من وصف راسخ، فلا يكون له معدى عن إحدى اثنتين: إما اطمئنان إلى الإيمان، وإما إفراط فى العناد والاستكبار، يكشف أمره، ويورده موارد الهلاك والبوار.

المعانى الاجتماعية فى وصف القيامة

ورد فى وصف القرآن للقيامة ما لا يفهم حق الفهم إلا إذا قرن بالأوضاع الاجتماعية التى كانت سائدة فى الجزيرة العربية ـ ومكة على الخصوص ـ عند نزول القرآن، وبموقف القرآن من هذه الأوضاع. ونعنى بذلك مثل هذه الآيات: **﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ زِدْنَاهُمْ عَذَابًا فَوْقَ الْعَذَابِ بِمَا كَانُوا يُفْسِدُونَ﴾** (النحل: ٨٨)، **﴿وَقَالَ الرَّسُولُ يَا رَبِّ إِنَّ قَوْمِي اتَّخَذُوا هَذَا الْقُرْآنَ مَهْجُورًا (٣٠) وَكَذَلِكَ جَعَلْنَا لِكُلِّ نَبِيٍّ عَدُوًّا مِّنَ الْمُجْرِمِينَ وَكَفَى بِرَبِّكَ هَادِيًا وَنَصِيرًا﴾** (الفرقان: ٣٠ ـ ٣١)، **﴿وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُم بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِندَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾** (سبأ: ٣٧).

فقد كان فى مقدمة العوامل المناهضة لدعوة الإسلام، قيام طبقة من شيوخ القبائل فى مكة، تجمع إلى النفوذ القبلى السائد عند العرب إذ ذاك، السيطرة المالية التى اكتسبتها بهيمنتها على التجارة، وكانت الجزيرة العربية طريقًا من أهم طرقها. وكانت طبقة مترفة فاسدة، فكانت تجد فى النظام الاجتماعى القائم، والعقائد السائدة، نظامًا وعقائد يوافقانها على الموافقة، إذ لا حكم إلا ما ارتضوه هم وأقروه، ولا آلهة ثمة تحاسب وتعاقب. فكانوا أول من قاوم دعوة الإسلام وسعى فى تحطيمها، فجعلوا يضطهدون المسلمين، ويستخدمون سلطانهم المخيف لمنع الراغبين فى الإسلام من الدخول فيه، وكانوا يتعاهدون على ذلك ويشدد بعضهم بعضًا، كما روى من قصة عقبة بن أبى معيط وأمية بن خلف، وإسلام عقبة ثم لوم أمية له حتى ارتد، فنزل فيهما قوله تعالى: **﴿وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى**

يَدَيْهِ يَقُولُ يَا لَيْتَنِى اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلاً. يَا وَيْلَتَا لَيْتَنِى لَمْ أَتَّخِذْ فُلاَنًا خَلِيلاً. لَقَدْ أَضَلَّنِى عَنِ الذِّكْرِ بَعْدَ إِذْ جَاءَنِى وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِلإِنْسَانِ خَذُولاً﴾ (الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩).

كانت هذه الطبقة مناقضة كل المناقضة للأخلاق الجديدة والنظم الاجتماعية الجديدة التى دعا إليها الإسلام. فقد كانت طبقة دنيوية بشعة فى حبها الدنيا، غرقت فى الملذيات حتى أصابها ما يصيب البيئات المترفة من مرض الشك، فما عادوا يؤمنون بشىء إلا شهوات أنفسهم. والقرآن يصور لنا هذه الطبقة أدق تصوير فى عدد من السور المكية: ﴿أَفَرَأَيْتَ الَّذِى كَفَرَ بِآيَاتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالاً وَوَلَداً. أَطَّلَعَ الْغَيْبَ أَمِ اتَّخَذَ عِنْدَ الرَّحْمَنِ عَهْداً﴾ (مريم: ٧٧ ـ ٧٨)، ﴿وَذَرْنِى وَالْمُكَذِّبِينَ أُولِى النَّعْمَةِ وَمَهِّلْهُمْ قَلِيلاً﴾ (المزمل: ١١)، ﴿وَلا تُطِعْ كُلَّ حَلاَّفٍ مَهِينٍ. هَمَّازٍ مَشَّاءٍ بِنَمِيمٍ. مَنَّاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ. عُتُلٍّ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ. أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ. إِذَا تُتْلَى عَلَيْهِ آيَاتُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الأَوَّلِينَ﴾ (القلم: ١٠ ـ ١٥)، ﴿ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيداً. وَجَعَلْتُ لَهُ مَالاً مَمْدُوداً. وَبَنِينَ شُهُوداً. وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيداً. ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ﴾ (المدثر: ١١ ـ ١٥)، ﴿فَلا صَدَّقَ وَلا صَلَّى. وَلَكِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى. ثُمَّ ذَهَبَ إِلَى أَهْلِهِ يَتَمَطَّى﴾ (القيامة: ٣١ ـ ٣٣)، ﴿إِنَّ هَؤُلاءِ يُحِبُّونَ الْعَاجِلَةَ وَيَذَرُونَ وَرَاءَهُمْ يَوْماً ثَقِيلاً﴾ (الإنسان: ٢٧)، ﴿كَلاَّ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى. أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى. إِنَّ إِلَى رَبِّكَ الرُّجْعَى. أَرَأَيْتَ الَّذِى يَنْهَى عَبْداً إِذَا صَلَّى. أَرَأَيْتَ إِنْ كَانَ عَلَى الْهُدَى أَوْ أَمَرَ بِالتَّقْوَى. أَرَأَيْتَ إِنْ كَذَّبَ وَتَوَلَّى. أَلَمْ يَعْلَمْ بِأَنَّ اللَّهَ يَرَى. كَلاَّ لَئِنْ لَمْ يَنْتَهِ لَنَسْفَعَ بِالنَّاصِيَةِ. نَاصِيَةٍ كَاذِبَةٍ خَاطِئَةٍ. فَلْيَدْعُ نَادِيَه. سَنَدْعُ الزَّبَانِيَةَ﴾ (العلق: ٦ ـ ١٨).

ولقد كان الإسلام حربًا على هذه الطبقة، فحارب النظام الاجتماعى القائم بشقيه: القبلى والطبقى. كانت المثل الاجتماعية تقضى بتناصر القبيلة فى الدفاع وفى العدوان (انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا)، وكانوا يرون فى العدوان مظهرًا للقوة، ومبعثًا للفخر، فذم القرآن هذه الحمية وسماها حمية الجاهلية: ﴿إِذْ جَعَلَ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى قُلُوبِهِمُ الْحَمِيَّةَ حَمِيَّةَ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَى رَسُولِهِ

وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَى وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً﴾ (الفتح: ٢٦). ﴿وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ أَنْ صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَنْ تَعْتَدُوا وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلاَ تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ (المائدة: ٢)، كما دعا إلى إنفاق الأموال ابتغاء مرضاة الله (البقرة: ٢٦١ ـ ٢٦٥). وكانت الثورة الإسلامية، فى مظهرها العملى، تمثل مجتمعًا مناقضًا كل المناقضة لذلك المجتمع المكى، فقد كان المجتمع المدنى قائمًا على رابطة الدين الواحد. فكان مؤلفًا من مهاجرين وأنصار، وتوارت منه تلك المنازعات القبلية التى كانت ناشبة بين الأوس والخزرج، فأصبح الصراع يدور داخل المجتمع المدنى بين المسلمين الذين كانوا قوام ذلك المجتمع ورأسه، وبين المنافقين من أهل المدينة أوسًا وخزرجًا وبين اليهود. وكان الصراع بين المسلمين والمنافقين فى جوهره صراعًا بين المثل القبلية القديمة، والمثل الإسلامية الجديدة، فى النظام الاجتماعى. ويظهر هذا الصراع فى قصة عبد الله بن أبى التى نزل فيها قوله تعالى: ﴿يَقُولُونَ لَئِنْ رَجَعْنَا إِلَى الْمَدِينَةِ لَيُخْرِجَنَّ الأَعَزُّ مِنْهَا الأَذَلَّ وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَلَكِنَّ الْمُنَافِقِينَ لاَ يَعْلَمُونَ﴾ (المنافقون: ٨). فقد روى أن الأنصار كانوا أكثر من المهاجرين، وخرج المسلمون فى غزوة لهم فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار، فكان بينهما قتال إلى أن صرخ الأنصارى: يا معشر الأنصار! وصرخ المهاجرون: يا معشر المهاجرين! فبلغ ذلك النبى ـ ﷺ ـ، فقال: ما لكم ولدعوة الجاهلية! قالوا: كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار. فقال رسول الله ـ ﷺ ـ «دعوها فإنها منتنة». فقال عبد الله بن أبى: لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل. فنزلت الآية.

وقد انعكست هذه المعانى فى تصوير حساب اليوم الآخر. فحطمت المثل القديمة ببيان أنها لاتغنى فى حساب الله من شىء، فلا الكبراء يستطيعون أن ينصروا من دعواهم إلى الكفر. ولا هم يتناصرون فيما بينهم، ولا أموالهم ولا أولادهم تغنى عنهم شيئًا، بل إنهم ليتمنون لو افتدوا بأموالهم وأبنائهم وعشيرتهم الأقربين من عذاب ذلك اليوم العظيم (النحل: ٨٤ ـ ٨٨)، و(سبأ: ٣٧، والرعد: ١٨، ومريم: ٨٧، وطه، ١٠٩، والروم: ١٢ ـ ١٣، والزمر: ٤٧، والدخان، ٤٠ ـ ٤٢،

والحاقة:" ٢٥ ـ ٢٩..) وهذا التصوير يبين لنا ذلك الحساب لمثالى الكامل، كما اعتقده المؤمنون بتلك الدعوة الجديدة، ويصور ما كان من نضال بين هذه المثل والمثل الاجتماعية القديمة. على أننا لا ينبغى أن ننسى حين نقرر هذه الحقيقة أن تلك الأوصاف، وإن تأثرت بالحالة الاجتماعية للجزيرة العربية وقت الدعوة فهى أوصاف صادقة فى كل زمان ومكان: أليس من دأب الكافرين العصاة أن يجر بعضهم بعضًا إلى المعصية، كأنهم حين انعدمت من نفوسهم كل قوة ذاتية، اندفعوا بغريزة القطيع إلى التجمع الذى لا هدف له إلا الإخلاد إلى ما هم فيه؟ أوليس من دأب المترفين الفاسدين فى كل زمان ومكان أن يحثوا المستضعفين على الكفر، ويسخفوا لهم كل دعوة جديدة إلى الإصلاح، ويزعموا ألا حقيقة إلا ما هم عليه من فسوق وطغيان، ثم يتبجحوا بأنهم مانعو أولئك المستضعفين من شر ينذرون به... أليسوا هم الأقوياء المتصرفين المسيطرين؟ حتى إذا نزت النازلة، أسقط فى أيديهم، فتمنوا لو يفتدون بكل ما يملكون، وما لا يملكون!.

ـ ٥ ـ

النفس والحساب

مما عبر به القرآن الكريم عن العدالة الكاملة فى القضاء بين الناس يوم القيامة، ما جاء فى وصف حساب المرء لنفسه، كما فى قوله: **﴿وَكُلَّ إِنْسَانٍ أَلْزَمْنَاهُ طَائِرَهُ فِي عُنُقِهِ وَنُخْرِجُ لَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كِتَابًا يَلْقَاهُ مَنْشُوراً. اقْرَأْ كِتَابَكَ كَفَى بِنَفْسِكَ الْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا﴾** (الإسراء: ١٣ ـ ١٤)، وفى شهادة الكفار على أنفسهم: **﴿يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِنْكُمْ يَقُصُّونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِي وَيُنْذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا شَهِدْنَا عَلَى أَنْفُسِنَا وَغَرَّتْهُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَشَهِدُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾** (الأنعام: ١٣٠)، وفى شهادة جوارحهم عليهم، كما قوله: **﴿الْيَوْمَ نَخْتِمُ عَلَى أَفْوَاهِهِمْ وَتُكَلِّمُنَا أَيْدِيهِمْ وَتَشْهَدُ أَرْجُلُهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾** (يس: ٦٥).

ونريد فى هذ الفصل أن نتناول هذه الآيات، وما فى بابها، بالتفسير، وفق ما اتبعناه فى الفصول السابقة من بيان أن أوصاف القرآن للحياة الآخرة تمثل تجارب إنسانية، ذات أصول فى الحياة البشرية، شكلها القرآن تشكيلا يتفق مع غرضه من هداية النفوس ورياضتها.

فهذه الآيات ـ كما أسلفنا ـ تعبر عن العدالة الكاملة فى القضاء بين الناس يوم القيامة، فالإنسان لا يحاكم بقانون كان مجهولا لديه. وتذكير الخلق يوم القيامة بأنهم إنما يحاسبون على ما جاءتهم به رسلهم وارد فى كثير من الآيات (المائدة: ١١٦ ـ ١١٧، والأنعام: ١٣٠، والأعراف: ٦ ـ ٩، والقصص: ٦٥ ـ ٦٦، ويس: ٥٩ ـ ٦٢، والجاثية: ٣١ ـ ٣٢...) على أن هنالك ـ فيما أوردناه من الآيات التى تدل على حساب النفس ـ معنى نفسيًا آخر، أخص من هذا المعنى فى عدالة الحساب يوم القيامة، ذلك المعنى النفسى هو الإشارة إلى أن الإنسان لا ينزلق إلى المعصية عن جهل مطلق ولا عن غفلة تامة، بل إن عليه من نفسه رقيبًا دائمًا يرشده إلى الحق والخير، وينهاه عن الظلم والجور. وقد صرح بهذا المعنى فى قوله: **﴿إِلَى رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ الْمُسْتَقَرُّ. يُنَبَّأُ الإِنسَانُ يَوْمَئِذٍ بِمَا قَدَّمَ وَأَخَّرَ. بَلْ الإِنسَانُ عَلَى نَفْسِهِ بَصِيرَةٌ. وَلَوْ أَلْقَى مَعَاذِيرَهُ﴾** (القيامة: ١٢ ـ ١٥) فالإنسان عليه بصيرة من نفسه. ومما يدل على هذا المعنى قوله أيضا: **﴿وَاقْتَرَبَ الْوَعْدُ الْحَقُّ فَإِذَا هِيَ شَاخِصَةٌ أَبْصَارُ الَّذِينَ كَفَرُوا يَا وَيْلَنَا قَدْ كُنَّا فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا بَلْ كُنَّا ظَالِمِينَ﴾** (الأنبياء: ٩٧) فاستدرك الكفار على زعمهم أنهم كانوا غافلين بنسبتهم الظلم إلى أنفسهم، والظلم والجور متعمد. وكذلك قوله: **﴿وَجَاءَتْ سَكْرَةُ الْمَوْتِ بِالْحَقِّ ذَلِكَ مَا كُنْتَ مِنْهُ تَحِيدُ﴾** (ق: ١٩)، فعبر عن إعراضهم عن الحقد بالحيد. وهو تنكب الطريق المستقيم. ولكن حب العاجلة يطغى على الجانب الراقى من الإنسان، فيغفل، ثم يظلم، ثم تنطمس بصيرته انطماسًا، حتى إذا بلغت الحياة الدنيا غايتها التى قدرها الله لها، وأوشك الإنسان أن يلقى جزاءه وكشفت بصيرته، ووضحت له أعماله: **﴿لَقَدْ كُنْتَ فِي غَفْلَةٍ مِنْ هَذَا فَكَشَفْنَا عَنْكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾** (ق: ٢٢).

وعلى هذا المعنى من كشف بصيرة الإنسان نفهم ما جاء من الآيات فى تذكر الذنوب، والإنباء بها، وإظهارها (المجادلة: ٦، والتغابن: ٧، والقيامة: ١٢ ـ ١٥، والنازعات: ٣٤ ـ ٣٥، والتكوير: ١٢ ـ ١٤، والفجر: ٢٣ ـ ٢٤)، فهذه ألوان من العذاب النفسى الذى يلقاء المذنب يوم القيامة، قبل أن يدعى إلى نار جهنم. وقد مثلت هذه الحالة من العذاب النفسى بحالة من يحمل حملاً ثقيلاً يئوده ولا يستطيع التخلص منه (الأنعام: ٣١، والنحل: ٢٥، وطه: ١٥).

والكافر يصبح يومئذ فريسة للندم، قد أصبحت نفسه هدفًا لغضبه: **﴿ويوم يعض الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلاً. يا ويلتا ليتنى لم أتخذ فلانًا خليلاً. لقد أضلنى عن الذكر بعد إذ جاءنى وكان الشيطان للإنسان خذولاً﴾** (الفرقان: ٢٧ ـ ٢٩). وهو يتمنى لو لم يكن حيًا يحس ويشعر: **﴿يوم ينظر المرء ما قدمت يداه ويقول الكافر يا ليتنى كنت ترابا﴾** (النبأ: ٤٠). إلى غير ذلك من أوصاف جسمية ونفسية تدل على الندم الذى يبلغ حد القنوط، كاسوداد الوجه وتغيره (آل عمران: ١٠٦، ويونس: ٢٧، والقيامة: ٢٤ ـ ٢٥، وعبس: ٤٠ ـ ٤١) وكإظهار التحسر بالحديث إلى النفس (الكهف: ٤٩، والزمر: ٥٥ ـ ٥٨، والحاقة: ٢٥ ـ ٢٩).

فهذه الآيات تدل على أن النفس الإنسانية تنقسم على نفسها حين ترى العذاب، فالإنسان يحكم على أعماله السالفة، وهو يحكم عليها بذلك الجزء المراقب من نفسه، ونفسه تروغ منه وتحاول أن تتبرأ. وقد صور هذا الصراع أروع تصوير فى (الزمر: ٥٥ ـ ٥٨): **﴿وَاتَّبِعُوا أَحْسَنَ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ مِنْ قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَكُمُ الْعَذَابُ بَغْتَةً وَأَنْتُمْ لاَ تَشْعُرُونَ. أَنْ تَقُولَ نَفْسٌ يَا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللَّهِ وَإِنْ كُنْتُ لَمِنَ السَّاخِرِينَ. أَوْ تَقُولَ لَوْ أَنَّ اللَّهَ هَدَانِي لَكُنْتُ مِنَ الْمُتَّقِينَ. أَوْ تَقُولَ حِينَ تَرَى الْعَذَابَ لَوْ أَنَّ لِي كَرَّةً فَأَكُونَ مِنَ الْمُحْسِنِينَ﴾**، كما مثل ذلك التبعض أبدع تمثيل فى شهادة الأيدى والجلود والأبصار والأسماع. ومقاولة الكفار لجلودهم ولومهم إياها على تلك الشهادة، ورد الجلود عليهم واعظة مذكرة: **﴿حَتَّى إِذَا مَا جَاءُوهَا شَهِدَ عَلَيْهِمْ سَمْعُهُمْ وَأَبْصَارُهُمْ وَجُلُودُهُمْ بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ. وَقَالُوا**

لِجُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِى أَنْطَقَ كُلَّ شَىْءٍ وَهُوَ خَلَقَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ (فصلت: ٢٠ ـ ٢١).

وعلى الضد من هذا حال مؤمنين الذين تكفر عنهم سيئاتهم (النساء: ٣١، والأنفال: ٩، والعنكبوت: ٧، والتغابن: ٩) فتخلص نفوسهم وتظهر ولا يبقى بينها وبين الله حائل.

فالقرآن ـ إذًا ـ يصور من أحوال الخلق يوم القيامة ما يتفق مع طبيعة النفس الإنسانية، وكونها موزعة بين الخير والشر. وهو يذكر الكفار بذلك الجانب السامى من أنفسهم، ذلك الجانب الذى أغفلوه وأهملوه فضرب الله على قلوبهم وأسماعهم، ومن ثم يجعل حساب القيامة حسابًا قريبًا مما يجرى فى النفس الإنسانية، متصلا به بأسباب قوية، فيأنسون إلى ماخبروا به من أحوال الغيب، ويوقظون من أنفسهم الضمير النائم ليكون موجهًا لهم وهاديًا فى هذه الحياة الدنيا.

خلاصة

وبعد... فقد انتهيت إلى آخر الشوط الذى قدرته لنفسى، وأنى لألاقى قارئ الرسالة فى نهاية هذه الرحلة راجيًا أن يكون قد فهم وصف القرآن الكريم ليوم الدين والحساب فهما يقوم على إدراك مدلولات الألفاظ القرآنية فى أذهان العرب وقت نزول القرآن، وأن يكون قد مرن على ذوق هذه الألفاظ بحيث لم يقف عن مدلول اللفظ المعجمى، بل استطاع أن يحس دلالاته الأدبية، التى لا بد منها لاستيعاب قوته التأثيرية، وإحساس نوع التأثير. كما أرجو أن يكون تفريق القارئ بين الاستعمال الحقيقى والاستعمال المجازى للفظ غير قائم منذ الآن على ما يتصوره هو من حقيقة الحال يوم القيامة، بل على تتبع استعمال اللفظ فى القرآن، وملاحظة المعانى التى استعمل فيها، مع الاستعانة بسياق الكلمة اللغوى، وسياقها الأدبى، وأعنى بالسياق اللغوى الألفاظ التى استعملت معها الكلمة، وبالسياق الأدبى ملابسات الكلمة الخارجية، ولعل القارئ ينتهى من البحث عن المعانى الحقيقية والمعانى المجازية للكلمة إلى أن ليس ثمة فاصل جوهرى بين المعانى الحقيقية والمعانى المجازية، وإلى أن المعانى المجازية إنما تشتق من الدلالات الضمنية للكلمة، فتبرز هذه الدلالات الضمنية نوع إبراز، وتغلب على المعنى الأصلى. وإذا فكل ما فى المجاز من عمل إنما هو إبراز معنى كان فى حاشية الصورة التى يكونها الذهن للفظ، وجعله فى صلب الصورة، ورد المعنى الذى كان فى صلب الصورة إلى الحاشية.

ولعل القارئ قد رأى أن استعمال الألفاظ بمعان مجازية، هو صنيع شائع فى اللغة، متأثر بالمدلولات المتعارفة للفظ، وأن العمل الفنى الحق فى الألفاظ، هو أشبه بكل ابتكار أو اختراع فى أى ضرب من ضروب النشاط الفكرى: فهو يقوم على التأليف بين مضمونين وإخراج مضمون جديد منهما وهذا هو ما يسمى تارة بالتشبيه وتارة بالاستعارة.. وهذا العمل الفنى العام فى الألفاظ، يضاف إليه عمل آخر خاص بفن الوصف، وهو اختيار الجزئيات الدالة فى الشىء الموصوف، والتأليف بينها تأليف يثير معنى معينًا، وذلك ما اصطلحنا على تسميته بالتصوير.

وقد انتهينا بعد الدراسة الغوية والفنية لأوصاف يوم الحساب فى القرآن إلى دراسة المعانى البعيدة لهذه الأوصاف، فأخرجنا هذه الدراسة من محيط القصص الشعبى الذى وضعت فيه، ولم نحاول كذلك أن نبرهن ولا أن نرجح بعض الآراء فى المسائل المختلف فيها، كعذاب القبر ورؤية المؤمنين لله يوم القيامة، ولم نتبع عند دراسة المرامى القرآنية من وصف يوم الحساب، التقسيم الموضوعى الذى اتخذناه أساسًا لتفسيرنا عند دراسة الألفاظ، بل اتبعنا تقسيمًا آخر يناسب ما أردناه من أن تكون دراسة المرامى محاولة لاستخراج المعانى الكبرى التى تقوم عليها أوصاف الكتاب الكريم، وبيان قيمة هذه المعانى فى حل المشكلات الكبرى التى يشعر بها الإنسان فى الكون، ثم تأثيرها فى المجتمع الذى نزلت فيه، وعلى المجتمعات الإنسانية عامة، ثم جدواها على إبراز مكنونات النفس وتنقيتها وتصفيتها.

وهكذا حاولنا أن نبين كيف تناول القرآن فكرة اقتراب الساعة، وفكرة خراب الكون، ليجعل من حقائق يوم الدين والحساب حقائق فكرية سامية، تعلو على أحداث الكون المتغيرة، وكيف تناول فكرة الثواب والعقاب ليجعل «العمل» غاية بذاته فى هذه الحياة الدنيا. وكيف صور فى الحساب الإلهى المثل الاجتماعية التى دعت إليها الجماعة الإسلامية، ثم كيف صور من أحوال المحاسبين يوم القيامة، النزاع النفسى الخالد بين دوافع الخير ودوافع الشر.

وإنى لآمل أن تكون هذه المحاولة أغذى للروح، وأقرب إلى النفس، من الدخول فى المجادلات حول حقيقة ما سيحدث يوم القيامة، أو من جمع طائفة من القصص عن أحوال ذلك اليوم. ولعل ما اتبعناه من إحصاء الآيات، وتبويبها، والتدقيق فى دراسة ألفاظها، ثم دراسة البيئة المعنوية للقرآن، دراسة جهدنا أن تكون فنية دقيقة ـ لعل فى هذا المنهج ما يخول لنا أن نتحدث عن المرامى الإنسانية والاجتماعية والنفسية من وصف الحساب حديثًا لا نخشى فيه أن نكون مغربين فى الظن ولا قائلين بالهوى، ولا مجترئين على القرآن الكريم. أعاذنا من ذلك. آمين.

الفهرس

منافذ بيع مكتبة الأسرة

الهيئة المصرية العامة للكتاب

مكتبة المعرض الدائم

١١٩٤ كورنيش النيل - رملة بولاق

مبنى الهيئة المصرية العامة للكتاب

القاهرة

ت : ٢٥٧٧٥٠٠٠ - ٢٥٧٧٥٢٢٨ داخلى ١٩٤ - ٢٥٧٧٥١٠٩

مكتبة مركز الكتاب الدولى

٣٠ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٧٥٤٨

مكتبة ٢٦ يوليو

١٩ ش ٢٦ يوليو - القاهرة

ت : ٢٥٧٨٨٤٣١

مكتبة شريف

٣٦ ش شريف - القاهرة

ت : ٢٣٩٣٩٦١٢

مكتبة عرابى

٥ ميدان عرابى - التوفيقية - القاهرة

ت : ٢٥٧٤٠٠٧٥

مكتبة الحسين

مدخل ٢ الباب الأخضر - الحسين - القاهرة

ت : ٢٥٩١٣٤٤٧

مكتبة المبتديان

١٣ش المبتديان - السيدة زينب

أمام دار الهلال - القاهرة

مكتبة ١٥ مايو

مدينة ١٥ مايو - حلوان خلف مبنى الجهاز

مكتبة الجيزة

١ ش مراد - ميدان الجيزة - الجيزة

ت : ٣٥٧٢١٣١١

مكتبة جامعة القاهرة

خلف كلية الإعلام - بالحرم الجامعى

بالجامعة - الجيزة

مكتبة رادوبيس

ش الهرم - محطة المساحة - الجيزة

مبنى سينما رادوبيس

مكتبة أكاديمية الفنون

ش جمال الدين الأفغانى من شارع

محطة المساحة - الهرم

مبنى أكاديمية الفنون - الجيزة

أدب

تعنى بنشر النصوص المتميزة فى الشعر والنثر والنقد الأدبى وتاريخ الآداب من أجل إثراء خبرة القارئ وتنمية وعيه الأدبى والسعى إلى نشر القيم الجمالية التى تحقق المتعة والفائدة فى آن.

من وصف القرآن ـ يوم الدين والحساب

تتناول هذه الدراسة بعضًا من أوصاف القرآن الكريم ليوم الدين والحساب معتمدة المنهج الأدبى الذى يرتكز على محاور ثلاثة: دراسة معانى القرآن لإدراج مدلولات الألفاظ معجميًا وأدبيًا ، والبحث فى الأساليب القرآنية ومزاياها الخاصة فى التعبير لاستيعاب قوتها التأثيرية، وثالثًا فهم المرامى الإنسانية والاجتماعية من تلك الأوصاف لمحاولة فهم المعانى الكبرى لها وبيان قيمة تلك المعانى فى حل مشكلات الإنسان فى الكون وتأثيرها فى المجتمعات الإنسانية عامة، وجدواها على إبراز مكنونات النفس و تنقيتها.

د. شكرى محمد عياد

ناقد و قاص و أستاذ جامعى (١٩٢١ـ ١٩٩٩)، عمل مدرسًا بوزارة التربية و التعليم، ثم انتقل إلى مجمع اللغة العربية محررًا عام ١٩٤٥، و انضم إلى هيئة التدريس بجامعة القاهرة عام ١٩٥٤، ثم عين أستاذًا لكرسى الأدب الحديث فى قسم اللغة العربية ١٩٦٨، وعميدًا لمعهد الفنون المسرحية ١٩٦٩. له العديد من الدراسات النقدية و الكتابات الأدبية، و قد حصل على جائزة الدولة التقديرية للآداب ١٩٨٨، وجائزة الكويت للتقدم العلمى ١٩٨٨.

ISBN# 9789772072163



مكتبة الأسرة ٢٠١٢